دكتور عبد المحسن صالح

مسكين عالم الذكور

للأذكياء فقط

دار الشروق

مسكين عالم الذكور .. !!

الطبعة الثالثة

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

الطبعة الرابعة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى هاتف : ٥١٢١٤ برقيا : شروق القاهرة
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ برقيا : داشروق .

الغلاف بريشة الفنان مصطفى حسين

مقدمة

نكد أو دكر!

المخلوق الـذكر ـ بالنسبـة للحياة ـ « كالفقـر الدكـر .. كاللبان الـدكر .. كالحظ الـدكر » .. ومن السخريـة والغرابـة حقـا أن تكون كل هذه التشبيهات « النكد » التى تجرى على ألسنة البشر ، قـد أصبح القاسـم المشترك الاعظم بينها « دكر » ، ولـم تلصق بالانثى واحدة من هذه الصفات السيئة التى الصقت لصقـا بالذكـر .

فمن وجهة نظرنا نحن ـ النابعة أصلا من وجهة نظر الحياة ـ نستطيع أن نهتف ونقول : محظوظ عالـم الانـاث ومسكين عالـم الذكور .. ثمين عالم الاناث ، ورخيص عالم الذكور !

لكن قبل أن نسترسل فى هذه المقدمة « النكد أو الدكر » وقبل أن نندب حظنـا نحن معشر الذكـور ، وقبـل أن تمـوع نفـوس القراء ـ ذكورا أم اناثـا ـ وقبل أن يضربوا أخماسا فى أسداس ، ثـم قد ينحاز الذكر الى بنى جلدته ، والانثى الى بنات جنسهـا ، فتعقب احداهن على هذه المقدمة بقولهـا : « ياعينى علينـا وعلى بختنا .. قطيعة تقطعهم وتقطع أيامهم السودة » .. وقد تستطرد أخرى لتكمل حكم زميلتها التى ربما تجهش بالبكـاء ـ فتقول : « ان الرجـال هـم الاقويـاء المتجبـرون ، ونحن الضعيفـات المكسورات الخاطر .. ربنـا يكسر خاطرهـم » ثـم قـد تقلـد

صاحبتها ، وتنهمر من عينيها عدة دموع على الوجنــات ، ربما لأن حظ هذه أو تلك فى الحياة مع من أحبت أو تزوجت كــان نكــدا ، الا انــه يجب علينــا أن نشــير الى أن هــذا الكتــاب سيتنــاول العموميات ، ولا شأن لــه بالحالات الفردية ٪. ذلك أن الموضوع الذى سنناقشه هنا موضوع علمى .. والعلــم دائمــا دراســات هادفة ، كمــا انــه لا يستمد استنتاجاتــه الا عن طريق تجميــع أكبــر عدد ممكن من الظواهر والحقائق الطبيعية ، ثم يجــرى عليها دراســات احصائية تحليلية ، ليخرج من ذلك بنتيجة واضحــة ، نرتكــز عليهــا فى حكمنا وتقديــرنا للامــور ، وبــدون تحيــز .. فالعلــم لا يقبــل المداهنــة أو الافتراء أو الخداع .

فاذا تناولنا هذا الموضوع من وجهة نظرنا ، وقصرنــاه على أنفسنا ــ رجــالا كنا أم اناثــا ــ فلا شك أننــا نتحيــز لنوعنــا الانســانى دون اعتبار للخلائق الأخرى التى تشاركنــا الحيــاة على ذلك الكوكب .. ففيها أيضــا الذكر والانثى ، ولهذا كــان لابد أن ندخلها معنا فى الحلقــة ، فلسنا عنها بمفصولين ، بــل سيتضح لنا فيمــا بعد ــ أن الكثير من عاداتنا وتقاليدنــا متوارثــة عن تلك الكائنــات التى سبقتنا فى الظهــور على الارض بعشرات ومئــات الملايين من السنين .

اذن ، فلتكن نظرتنا لهذا الموضوع نظرة شاملة جامعة ، فمن الخطــأ ان يقيمه أحد على هــواه ، أو يتخــذه مقياســا للحيــاة الفرديــة ؛ بل عليه أن يرقب المسرحيــة العريضــة التى تقدمهــا الحياة على خشبة مسرح هذا الكوكب ، وعندمــا تنتهى فصــول التمثيلية ــ التى يلعب فيها الذكر والانثى الدور الرئيسى ــ فعليه أن يحكم الحكــم الصحيح ، وسيتضح لــه أن الحيــاة تتحيــز لاناثهــا ، وتضحى بذكورها ، أو كأنما هى تتعامــل معنا على مبــدا « الخيار والفقوس » .. فالخيار يعنى الاناث ، أما الذكور عندهــا فبمثابة « الفقوس » ، أو البضاعة الرخيصة !

كأنما طعمنا نحن معشر الذكور فى « فم » الحياة قد أصبح مثل طعم اللبان« الذكر » فى أفواهنا ، فهو ــ أى اللبان الذكر ــ لا يعمر بين أضراسنا طويلا ، لانه هش ، وبه مرارة ، وما أسرع أن نبصقه أو نحرقه فى خلطة البخور لنستمتع برائحته التى لا يظهرها الا « الحرق بالنار » .. هذا بعكس اللبان « النتاية » ، فله بين الأسنان طراوة ، وفى المضغ حلاوة .. ومن أجل هذا كان فى الاسواق أغلى سعرا ، وفى الافواه أطول عمرا !

كذلك يكون المخلوق الذكر فى سوق الحياة .. انه أرخص من الانثى ثمنا ، وأقصر عمرا .. فالانثى مرغوبة ، أما الذكر فى حياتها فليس الا بمثابة عابر سبيل ، يضع البذرة، ويترك لها الباقى ، ولهذا فان الانثى بالنسبة للحياة أثمن وأهم بيولوجيا من الذكر !

وقد تثير هذه الحقيقة بعض الاصدقاء من عالم الذكور ، فتراهم يفتلون شواربهم (ان كانت موجودة) ، ويمسكون بذقونهم، وينفخون اوداجهم ، ويبرزون عضلاتهم ، وبصوت جهورى أجش فيه نبرة رجولة فياضة قد يقولون : كيف ذلك يكون ، وقد جعلنا الله قوامين على النساء ؟ .. ثم قد يستطردون ويقولون : أن الرجل من قديم الزمن هو سيد هذا الكوكب ، وهو الذى صنع الحضارة ، ووضع القوانين ، وطور العلوم ، وأقام الدنيا وأقعدها .. وبالاختصار فهو ــ لا شك ــ اهم من الانثى وأحسن !

صحيح ! .. صحيح ان الرجل صانع الحضارة ، لكن المرأة صانعة الاجيال ، وشتان ما بين هذا وذاك ، فالرجل قد يبيد حضارته نتيجة لتهوره ، فى حين أن المراة لا تبيد ما تحمل

وتضع وتصنع ، ثم أننا فى تقديمنا لهذا الموضوع لم نتعرض للذكر والانثى من وجهة نظر العلم والحضارة والسيادة ، ولكننا نتعرض لها من وجهة نظر الحياة .. فاستمرار الحياة أهم بيولوجيا من استمرار اى شيء آخر ، ولهذا كانت الانثى اغلى ، لانها هى الحاضنة الحقيقية للاجيال .. وفيها وفى الاجيال صفة الاستمرار .

لكن .. لماذا تسرعنا فى حكمنا قبل أن نقدم فصول هذا الكتاب ؟

لسنا ندرى .. فالكلام « يجر بعضه » كما يقولون ، والذى جرنا الى كتابة هذا الكتاب حوادث عدة تمر بنا فى كل آن وحين .. فلقد مررت ذات يوم على رجل ، وهو يمسك بيده فأسا ، وبه يهوى على جذع نخلة فى ضربات قاسية متلاحقة .. لم يكن فى النخلة عاهة ولا شذوذ ، بل تبدو فى منتهى الصحة والعافية ، وبدافع الفضول تقدمت وقلت : على وسلك يا صاح .. لماذا تجز نخلتك هكذا جزا ، وكأنما هى قد جاءت شيئا نكرا ؟ .. عندئذ مسح عرقه ، ونحى فأسه ، ونظر الى بألم وحسرة وقال : فقرى دكر .. حظى دكر .. النخلة دكر ، وليس لدكر النخل من فائدة تذكر ، ونحن اولى بجذعه والياقه وجريده ، ولابد ان اقطعه من جذوره ، لأزرع مكانه نخلة أخرى .. وياليته جاء انثى ، عندئذ كنت أصونها وأرعاها ، لانها ستمدنى بما أهوى !

قلت وأنا اجتر مرارتى وحزنى : لكن لولا الذكور ما كانت الاناث ، فهذه مكملة لتلك .. قال أعلم ذلك ، لكن ذكرا واحدا يكفى لعدد كبير من الاناث ، ولابد ان نتخلص من الذكور الزائدة لنفسح مكانا لمزيد من الاناث .. ففيها خير كثير .. دعنى وفقرى الدكر !

وتركته وانطلقت الى حال سبيلى وانا أتمتم بمرارة : مسكين عـالم الذكور .. رخيص عالم الذكور !

وتكرر المشهد أمامنا مرة أخرى فى عالم الحيوان ، كمـا تكرر قبل ذلك فى عالم النبات ، ففى حظـيرة الدجـاج حلت المأسـاة بديك شاب كان يتبختر ويتباهى مع رفيقين آخرين بين عدد كبـير من الاناث ، وجىء بالسكين ، ووقع الاختيار على المسكين ، وبعـد لحظات كان الديك مضرجا فى دمائـه ، وأخـذ يرفرف ويرتعش الى أن همد جسده ، وأسلم الروح الى بارئهـا ، وسألت وقتهـا بغيظ : لمـاذا الديك بالذات والفراخ كثيرة ؟ !

وجاء الجواب كصفعة لعالمى الذى أنتمى اليه ـ عالم الذكور عمومـا ، والرجال خصوصا ـ وقيل لى : ديك واحد يكفى لكـل الفراخ .. فالدجاجـة احسن من الديك ، وحتى لحمهـا أطعم من لحـم الديك (تماما كاللبان الذكر واللبـان النتايـة) .. ثـم أن الدجاجـة هى واضعة البيض ، والبيضة بخمسة وثلاثين مليما .. وهى التى تحضنه ليفقس ويعطى كتاكيت ، والكتكوت يسـاوى خمسين مليما .. وهـذا يعنى أن الدجاجـة من ورائهـا الخـير والنعمة ، أمـا الـديك فعليـه اللعنـة ، ونحن أولى بلحمـه .. وليحيا الدجاج ، ولتذبح الديوك !

وانطلق فى داخلى هاتف حزين : بائس حقا عالم الذكور !

ثم يجىء الانسان فى النهاية ، ويضع القوانين الوضعيـة على نفس المنوال الذى سارت به القوانين الطبيعية .. ولقد كان القانون الوضعى فى صالح الانثى ، وضد الذكر على خط مستقيم ، فباسم القانون الوضعى « ممنوع ذبح الانـاث ، ولتـذبح الـذكور » ..

والقانون بطبيعة الحال وضع للمواشي ، ولم يوضع للبشر (١) . .
يعنى فليذبح العجل أو الثور وتبقى البقرة .. نذبح الارنب ،
ونحافظ على الارنبة .. نضحى بالكبش ، وتحيا النعجة ، والغريب
أيضا أن الله ارسل كبشا ليفدي به أسماعيل ولم يرسل نعجة ! (٢)
وكأنما فى التضحية بالذكر حكمة ، وتبقى الانثى معززة مكرمة !

لكن هناك قانونا طبيعيا يتمشى تماما مع قانوننا الوضعى ..
فباسم القانون الطبيعى « على الذكور أن تتصارع فيما بينهما ،
ولتقتل — ان أمكن — بعضها بعضا فى حضرة الانثى — فمن تغلب
ملكها ، ومن استسلم وجبن وضعف فالى الجحيم » !

قانون قاس ذلك الذى يضحى بالذكور ، ويعرضها لما لا تحب
وترضى .. ولتبق الاناث فى مرتبة اعلى ، ودرجة أغلى ، وهكذا
شاعت الحكمة الالهية من قديم الزمن .. لكن رغم أن فى ظاهر
هذا القانون قسوة ، الا أن فى باطنه حكمة ، وحكمته أن يتقدم
للانثى أقوى الذكور وأشدها ، وهكذا تختار الحياة لاناثها أفضل
ما أنتجت ، أما الباقى فعليه اللعنة .. وسوف نتعرض فيما بعد
لصور غريبة من هذا الصراع ، ليتبين لنا أن عالم الذكور

---

(١) بعد أن انتهينا من كتابة هذه المقدمة ، سمعنا وقرأنا عن احتمال إصدار عدة قوانين جديدة تحدد علاقة الرجل بالمرأة ، والمرأة بالرجل ، وفيها — كما يقولون — مزيد من القيود والاغلال لنا معشر الذكور ، صحيح أنى لا أهتم بمثل هذه القيود ، لأننى لم أدخل إليها أصلا ، إلا أننى أرثى لحال بنى جنسى حينما أسمع أن الذكر العاصى سوف يذبح ذبحاً ، أو أنه سيمشى « على العجين مايلخبطوش » .. ولهذا فلا بد أن يؤدبوه ويحسنوا تأديبه ، فن مفاخر الزواج أنه تأديب وتهذيب وإصلاح .. ولا بد أن يسير الذكر فى هذا الطريق القويم إلى أن يسلم الروح إلى بارئها ! .

(٢) كما سمعنا ذلك من أحد خطباء المساجد .. بارك الله لنا فى علمهم ، ونفعنا به ! .

« بريالة » .. أى أن لعابها يسيل على الانثى ، وقد تهون الحياة فى سبيلها .

لكن يبدو أننا نحن معشر ذكور البشر لسنا معزولين عما يجرى فى الطبيعة الحية من حولنا .. فصراع الذكور ــ أو الرجال ــ فى هذا العالم أشد وطأة ، وأعظم قسوة من صراع الاناث . كما أن تعرض الرجال من قديم الزمن لشدائد الحياة واخطارها أكبر مما تتعرض له النساء .. فعلى الرجل دائما ان يحمى الانثى ، فاذا لم يفعل كان فى عرفنا غير جدير بما وهبته الحياة من صفات ليكون كفؤا لمجابهة كل الاحتمالات ، وفى مقدمتها حماية الدار من الاخطار .. كما أن الحروب لا يثيرها الا الرجال ، والجيوش المقاتلة كان حطبها ووقودها شبابا ورجالا .. ويبدو أن نعرة الرجولة هى التى تدفعنا دفعا لكى نتطاحن ونتقاتل ويبيد بعضنا بعضا ، ربما لسبب أو لغير سبب ، أو قد تكون من وراء ذلك أنثى .. المهم ان الرجال تروح ، وتبقى النساء ، وعندئذ قد تختل النسبة بين عدد الاناث والذكور ، وقد يؤدى ذلك الى نوع من الانهيار الاخلاقى .. لكن الشريعة قد سمحت فى هذه الحالة للرجل المقتدر أن يتزوج من النساء مثنى وثلاث ورباع ، وفى هذا حكمة باطنة .. هى المحافظة على النساء وكرامة النساء حتى لا يتعرضن لما لا يحمد عقباه ، وفى ذلك تكريم لهن على أية حال ، « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » !

لكن المآسى الحقيقية التى قد تحل بالذكور من جراء الانثى ، والتى سنتعرض لها فى هذا الكتاب ، سنراها أكثر فى عالم الحيوان، ومن الحقائق التى سنسوقها سيظهر لنا أن الذى « اخترع » هذه التعبيرات الطريفة ــ أى الفقر الدكر واللبان الدكر .. الخ ، ونطق بها لأول مرة فى التاريخ كان على حق ، وربما كان حكيما من الحكماء أو عالما من العلماء ، أو ربما كان مجنونا ، فأحيانا ما تأتى الحكمة من أفواه المجانين ، وربما يكون جنونه قد أثمر واينع على يدى أنثى ــ وما دمنا قد تعرضنا للجنون ، فلابد أن نشير

هنا الى أن نسبة المجانين بين الذكور اكثر منهـا بين الانـاث ـ فأعصاب الذكر ـ رغم قوته الجسدية ـ قد تنهار وتتحطم أمـام اعصاب الانثى القويـة ـ رغم ضعفها الجسـدى الظاهـرى .. فمن ضعفها تبزغ القوة ، وبدموعها الحقيقيـة والصناعيـة ـ التى تنهمر أحيانا كالمطر الطبيعى والصناعى ـ قد تحـول قوتنـا الى ضعف ، وشموخنـا الى خنـوع ، فنستجيب للانثى بمـا تحب وتهوى .. فهى تعرف تماما كيف تستخدم الدمعة المناسبـة ، وفى الوقت المناسب ، للموقف المناسب .. وهذا ذكاء لا نقدر عليه نحن معشر ذكور البشر ـ كما أن دموع الانثى قد يحل بها السلام ، وقد يأتى منها الخراب ، ورحم الله آبانا آدم وقصته مع امنا حـواء ـ فلقد أخرجته من الجنة بمطلب ودمعة ، وفى قول آخر ضحكت عليه بدمعتين ـ ويقال انهما دمعتان صناعيتان .. لكن ليس ذلك هامـا بقدر ما يهمنا أن نعرف انه ضعف امامها ، فلم يستمع لكلمات ربه ، وسمع كلامها ، وأطاع رغبتها ، وخرج وخرجت وخرجنا والسلام. ولازالت الدموع متوارثة فى بنات أمنا الاولى حواء حتى يومنا هذا ، أو بعد يومنا هذا بملايين الايـام .

والدموع ـ لا شك ـ رحمة ، ولقد أصابت رحمة الله الانثى دون الذكر ، فهيأ لها طريق الدموع ، ويسر لها سبيل البكـاء .. فى حين أن الذكر منا قد خلق عصى الدمع ، « محبوس » الدم .. فان تمرد اوبكى قيل لـه « اكتم أمال .. خليك دكر » .. ولابـد أن ينكتم ، وقد ينفجر .. وما انفجاره الا سكتة قلبية ، أو نزيفـا فى مخـه أو جلطة فى شريانـه ، أو ضغطا فى دمـه .. وكل هـذه الامراض تظهر بين الذكور اكثـر من ظهورهـا بين الانـاث ـ كما سيتبين لنا ذلك فيمـا بعد .

ولقد كان الانسان هو المخلوق الوحيـد الـذى يستطيـع أن يضحك ويبكى .. ولهذا عرف باسم « الضاحك الباكى » .. ولقد ظهرت فيه هذه الصفة نتيجة لتطور المراكـز العليـا للعاطفـة فى مخـه .. فاذا أثير الانسان ، ووقع فى ضنك عضوى ، واجهـاد

نفسى ، فان ذلك ينشأ من سلسلة من الاحداث الكيميائية الحيوية التى تؤدى فى النهاية الى افراز هرمون الأدرينالين من الغدة الكظرية أو الغدة فوق الكلى ، ثم صبه فى الدم ، ليقوم بعمليات فسيولوجية كثيرة من بينها احتقان الغدد الدمعية فى عيوننا ، فتسيل الدموع على خدودنا ، أو قد تندفع الدماء الى وجوهنا ، أو قد نجهش بالبكاء .. كل هذا يتوقف على نوع الضنك والاثارة التى يتعرض لها الانسان أو الحيوان .

لكن الحيوان اذا تعرض للاثارة ، فانه لا يبكى ولا يدمع ، ولا تندفع الدماء الى وجهه ، بل يقف شعره ، أو « ينتفش » ريشه (كما فى القطط والكلاب والطيور) ، والذى فعل ذلك هو هرمون الادرينالين العجيب . . وهو يفعل أيضا فى أجسامنا الكثير ومنها اثارة الدم والدمع والحض على البكاء ، فاذا بكى الانسان ارتاح ، ولهذا كانت الدمعة أو البكاء بمثابة صمام الامان الذى يريحنا من الازمات النفسية .. ولقد استخدمت الانثى ذلك الصمام أعظم استخدام بحيث أصبح من « التكتيكات » الهامة فى حياتها ، ولهذا أصابت بدمعتها عصفورين فى وقت واحد : عصفور ينفرج به كربها ، وتستريح أعصابها ، وتهدأ نفسها ، وعصفورها الثانى ذكر يضعف أمام دمعتها ، ويجيب لها مطالبها — تماما كما فعل من قبل الذكر آدم ، فعرفنا الحلال والحرام ، والفضيلة والرذيلة ، والقبح والجمال .. الخ ، اى أننا أدركنا كثيرا من المتناقضات بعقولنا المتطورة .

اذن فالدمعة أيضا سلاح ذو حدين : حد تذبح به الانثى ضنكها ، وتنفرج أزمتها ، وحد لتذبح به ذكرا ، أو تضعف ارادة رجل ، أو تستعدى ذكرا على ذكر ، أو تأخذ ما ليس لها بحق .. الى آخر هذه « التكنولوجيا » الدمعية التى قد تفعل أكثر مما تفعله الاسلحة الفتاكة .. ومع ذلك فالانثى فتاكة بدموعها ، فتاكة بعيونها .. على شرط ان تكون ساحرة الطرف ، جميلة الوجه .. والا فلا !

والواقع أن الذكر ليس هاما فى حياة الانثى الا بقدر ما يجلب ، فان لم يفعل فعليه اللعنة ، أو ان شئتم تعبيرا أدق من عالمكم — عالم العقل والحكمة ، فعليكم بهذا القول العظيم المأثور عن عالم الحريم « الراجل عيبه جيبه » .. يعنى ان الذكر منا ليس مرغوبا فيه من اجل أنه رجل فقط ، ولكن بما يستطيع أن يقدم ، فاذا كان غير ذلك .. فالى الجحيم !

لكن مما لا شك فيه أن الانثى بها شيء من ذكاء ، وأن الذكر به بعض غباء ، ونسبة الذكاء والغباء فى الحقيقة متروكة لتقديرك ، وغباء الذكور عموما يقودهم رغما عنهم الى الدخول برؤوسهم راضين فى المصيدة ، وكأنما هناك طعم لذيذ فى « سنارة » ، وعندما « يشبك » الذكر فى الشص ، وتقع الفاس فى الرأس ، تراه يقول بمرارة ان هذا « شر لا بد منه » . أو هكذا أخبرنى من قضم الطعم وشبك فى السنارة ، ثم لا يستطيع منها فكاكا ، ولا من براثنها انطلاقا ، ولابد أن يدور فى فلكها وملكوتها الصغير ، فاذا أهمل أو تمرد أو اظهر العصيان ، وهرب من الميدان .. ميدانها ، فالى المحكمة .. فلقد حفظت للانثى هناك حقوقها .. فمن دخل راضيا سالما ، فانه فى اغلب الاحيان — لا تخرج غانما ، فليست الامور فوضى ، ولابد للذكر أن يتحمل المسئولية مع انثاه حتى نهايتها .. وليشارك بعبء محمود أو غير محمود .. لسنا ندرى !

ولا شك أن الحياة حكيمة ، والطبيعة ماكرة .. فلقد ضحكت علينا نحن معشر ذكور الانسان والحيوان ، وزودتنا بمادة كيميائية يطلقون عليها اسم « تستستيرون » ، وبهذه المادة العجيبة ينقلب كياننا راسا على عقب ، فتبدو الانثى أمامنا وكأنما هى الفردوس المقيم ، فاذا دخلناه من بعد حرمان ، انتهى التأثير وضاعت المباهج ، وانطفأت الشعلة المتوقدة ،

ليكون من ورائها أجيـــال وأجيـــال من سائر المخلوقات ، ومن هنا برزت الحكمة . . حكمة أن يعمر هذا الكوكب بطوفان دافق من سائر افــراد البشر والحيوان !

ولولا هــذا التستستــيرون العجيب ، أو الهرمــون الجنسى الفريــد ، لما سعت الذكور الى اناثهــا ، ولا توددت اليها ، ولا دخلت فى شراكها ، ولا حدث الصراع والتنافس بينها لتفوز بها . . وتتضح لنا هذه الحقيقة تمامــا فى ذكور الانسان والحيوان قبل أن يبلغوا مبلغ الرجــال أو قبــل أن يحل هذا الهرمون فى أجسامهم كضيف عريز ، ففى هذه الحالة يعيش الذكر الصغير مع الانثى الصغــيرة ، دون أن يفكــر أحدهمــا فى الاخر كما يفكــر فى ذلك البالغــون من الجنسين ، أو لو أننا أزلنا الغدد الجنسية من الذكــور قبل سن البلوغ ، وتركناها حتى تبلــغ ؛ فلن تظهــر عليهــا أيــة مظاهــر للرجولــة ، بــل سيصبح الفتى أقرب الى الفتــاة صوتــا وبشرة وسلوكــا ، وفوق كل هذا يبدو لــه الجنس الاخــر كشىء عــادى لا يستحق الاهتمــام أو الاثــارة ، حتى ولــو برزت امامــه كــل مفاتنــه !

لكن أن يظهر هذا الهرمون فى الذكور ، ثم يسرى فى دمائهم . . فهــذا أعظــم « تكتيك أو تكنولوجيــا » بيولوجيــة على درجــة هائلة من الكفــاءة والضحك على الذقــون . . ذقوننــا نحن معشر الذكور ، فما أن تظهر مفاتن الانثى امام اعيننــا ، حتى يســيل لعابنا ، كما سال لعاب أبينــا آدم من قديم الزمان ، فعصى امر ربــه واتبع هوى حواء (وهوى كل حواء جــاءت بعدهــا بطبيعــة الحال) . . فهى بذكائهــا تعرف مكامن الضعف فينــا ، ولا شك ان هذا الهرمون اللعين يلعب نفس اللعبة ، حتى نقع فى المصيدة . . يقول البعض انها مصيدة لذيذة ، والبعض الاخــر يقول « يا ريت اللى جرى ما كــان » . . ولا ندرى أيهما على حق فيما يفتى ويقول !

كأنما نحن معشر الرجال نجيء الى الحيـاة أول مـا نجيء من المراة لتحضننا بأمومتها وحنانها ونحن صغار ، ثـم نترعـرع ، ونصبح شبابا يتدفق قوة وحيويـة وجنسـا ، فاذا بهـا تحتوينـا فى احضانها مرة أخرى ، وبطريقة أخرى ، وكأنمـا ندخل برؤوسنا فى حلقة ضيقة نصبتها لنا الطبيعة على هيئة شباك سندسية ، وفى داخلها صيد لذيذ ، أو تكوين أنثوى بديـع ، ليجذبنا كما يجذب « الطعم » فى السنارة سمكة جائعة ، و كمـا يجذب الفخ بما حوى حيوانا ، فاذا بهذا السحر الانثوى أو « الطعـام » اللذيذ الـذى يتراقص أمام أعيننا على هيئة « وجبـة جنسيـة » يسيـل لهـا اللعاب .. اذ به جميعـا يطير من الشبـاك بالـزواج .. حقيقـة علمية نفسية معروفـة ــ فالحرمان من الاشياء هو الذى يجعلهـا مرغوبـة (١) ، فـاذا امتلكناهـا زهدنا فيهـا ــ ولولا تلك الروابط الاجتماعية المقدسة ، لتغيرت الامور ولتبدل الحال !

أن غرورنا نحن معشر الرجال بقوتنا ورجولتنـا هـو الـذى يوحى الينا بأننـا نحن الذين نصطاد ، ولكن الحقيقة غـير ذلك ، فالجوع الجنسى ، أو ذلك الهرمون السحرى العجيب هـو الـذى يحركنـا .. كما يحرك الذكور فى عـالم الحيوان ، وهـو الدافـع الاول الذى يدفعنـا دفعا الى دخول هذا العش أو تلك المصيـدة المنصوبـة ، فـاذا بنـا نصبح صيدا ، ويسخر الصياد الحقيقى ــ المـرأة ــ بما اصطـاد ، ولهذا فكثيرا ما نسمع همسـا من الصياد تلك العبارة المكررة « لقد أوقعته فى حبـالى من أول نظـرة » .. وبعدهـا تسير على تلك الحكمة « الحوائية » ــ نسبـة الى حواء ــ

---

(١) والرمز المستتر فى قصة آدم وحواء يشير أيضاً إلى أن الشجرة الوحيدة فى الجنة التى كانت لها جاذبية لا تقاوم من بين كل الأشجار ، هى الشجرة التى حرمت عليهما أن يقرباها .. وعندما كشفا عن سرها ضاعت مباهج الجنة وعاشا فى الواقع .

الشهيرة « قصقصي طيرك ، ليلوف بغيرك » .. والقصقصة تعنى هنا أشياء كثيرة تعرفها حواء ، وتحتفظ بها وكأنما هى أسرار عسكرية ، وتاكتيكات حربية لا يصح افشاؤها .. ولا حول ولا قوة الا بالله .

انا لست فى هذا ضد المرأة ، فالمرأة ولا شك تستهوينى .. انها حقا فردوس رائع (البعض يفضلها جحيم مقيم) ، لكنني لا اريد أن امتلكه أو يمتلكني ، حتى لا يزهد فى ، ولا ازهد فيه .. وليكن هذا الفردوس أمام عينى كطعم لذيذ فى سنارة ، أحيانا أقضم الطعم ، ولا أقرب السنارة .. نوع من الحرص ليس الا .. فاذا دخل الزواج من الباب ، طار الحب من الشباك .. أو اذا أردت تعبيرا أدق لقلنا : طار السحر والجنس والجمال من الشباك ، او هكذا أخبرنى من قضموا الطعم والسنارة ، « فشبكوا » فيها وكثير منهم نادمون كندم أبينا آدم .. أو هو « شر لابد منه » .. وكذلك يقولون !

لكن .. هكذا شاءت الحياة وقدرت من قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ، ليكون من وراء ذلك صفة الاستمرار فى الافراد والانواع ، وعلى جميع مستويات المخلوقات .. فحيث يذهب جيل ، يحل محله جيل جديد ، والمرأة أو الانثى عموما هى صانعة الاجيال .. وهى الاساس .. وهى الاثمن والابقى بالنسبة للحياة ، ولهذا فقد وهبتها من المكرمات والمزايا والصفات، ما يجعلها هى الجنس الاقوى ، ونحن الجنس الاضعف .. حتى ولو كره الرجال !

كيف ذلك يكون ، وقد قال الله فى كتابه العزيز « الرجال قوامون على النساء » ؟

هذا صحيح .. لكن عليك أن تكمل الآية .. تجدها تقول « بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » !

والتفضيـــل هنا متروك لتقديرك وتعمقك فى بواطن الأمور ..
لكن من وجهة نظر العلم نستطيع ان نقول ان المرأة افضـــل وائمن بيولوجيـــا من الرجـــل !

وعلينا أن نترك هذه المقدمـــة « النكـــد أو الذكـــر » لنـــوضـح وجهة نظرنا فى فصل وفصول آتيـــة ، ليتبين لنـــا أننا التعســـاء ، وهن المحظوظـــات !

دكتور عبد المحسن صالح
أستاذ الكائنات الدقيقة
كليـــة الهندسة . جامعة الاسكندريـــة

هن أطول عمراً من الرجال

لا شيء فى هذا العالم يساوي الحياة

فلو أن انسانا خير بين ماله وحياته .. لتخلى عن المال والجاه والسلطان وكل ما يملك لكى توهب له الحياة .. حتى ولو لبضع سنين تعد على أصابع اليد الواحدة !

ولقد نالت المراة خاصة ، والانثى عامة هذه المكرمة .. اذ وهبتها الحياة من المهد الى اللحد حياة أطول من حياة الذكور !

الاحصائيات البيولوجية تؤكد هذه الحقيقة ، فحيث يكون متوسط عمر الرجل فى مصر ٥١ر٦ سنة ، نجد عمر المرأة يصل الى ٥٣ر٨ عاما .. وفى فنلندا ٦٣ر٤ عاما للذكور و ٦٩ر٨ عاما للاناث .. وفى انجلترا ٦٨ عاما للذكور و ٧٣ر٣ للاناث ، وفى الولايات المتحدة ٦٧ و ٧٣ر٦ عاما للذكور والاناث على الترتيب ، والشوء نفسه فى الاتحاد السوفييتى .. للمراة من سنى الحياة ٧١ر٩ عاما ، وللرجل منها ٦٤ر٤ عاما ، وهكذا منحت المراة فى جميع دول العالم عدداً من سنى الحياة أطول من سنى الرجل .. عدا دولتين اثنتين : هما الجزائر وكمبوديا .. لنساء الجزائر من العمر فى المتوسط ٥٢ر١ عاما ، وللرجال ٥٤ر٣ عاما ، ولنساء كمبوديا ٤٣ر٣ عاما ولرجالها ٤٤ر٢ عاما .. وفى هاتين الدولتين شذوذ على القاعدة ، ولا حكم على الأمور الشاذة !

فماذا يعنى هذا بحق السماء ؟

قد يقفز هنا فصيح ويقول معللا دون الاستنـاد الى دليـل مدروس : أن عمر الرجـال أقصر ، لانهم معرضون لمسئوليـات الحياة واخطارهـا أكبر .. وهم الذين تقـع عليهم اعباء الحروب ، وتشييد الدول ، وبالاختصار فهم بناة الحياة ، وهم عمدهـا .. أمـا النسـاء فليس لهن من كل ذلك نصيب محمود ، ولهذا طالت أعمارهن اكثر من الرجـال

وذلك ـ فى الواقـع ـ استنتاج غير صحيح ، ومردود عليه باحصائيات علميـة شتى .. فالنسـاء والرجال الـذين يقومـون بالاعمال نفسها ، او حتى هؤلاء الذين لا يقومون بأعمال تذكـر من كلا الجنسين . وفى الاعمار ذاتهـا ، نجد أن الحياة تتحيـز للانثى وتمنحها عمرا أطول من عمر الرجال !

ولكى نوضح ذلك ، دعنا نقـدم دراسة واحـدة من هـذه الدراسات .. فلقد قام الاب الراهب فرانسيس ماديجان بدراسة على متوسط اعمـار الراهبات والرهبـان ، وهـؤلاء ـ بطبيعـة حياتهـم ـ متساوون فى سلوك الحياة ، ولقد تنـاولت الدراسـة حوالى ٣٠ الف راهبة ، وأكثر من عشرة آلاف راهب ، ثم تقـدم ببحثه هذا الى جامعـة نورث كارولينا وفيـه من الاحصائيات مـا يؤكـد ان متوسط عمر الانثى أكبر من متوسط عمر الذكر بحوالى ست سنـوات

تتضح الحقيقة اكثر واكثر عندما نتناول فرص الحيـاة بين الذكور والانـاث فى بدايـات حياة الانسـان ، اي وهـو لا يـزال جنيـا فى بطن امه

يذكر دكتور آشلى مونتاجو فى كتابـه « الوراثـة والبشر » اشياء مثيرة واحصاءات غريبة عن الفرق بين الرجل والمراة من المهد حتى اللحد .. فعند مجىء الذرية الى الحياة نجد أن كل مائة مولود

انثى يقابله ١٠٥ مواليد ذكور . . وهذا يعنى ان عدد الذكور الذين يفدون على هذا الكوكب أكثر من عدد الاناث الوافدات . . ومع ذلك فان الآية تنعكس عندما يصل هؤلاءوهؤلاء الى سنىالشيخوخة فمن سن الستين حتى الرابعة والستين نجد أن عدد النساء اكبر من عدد الرجال بحوالى ٢٣ ٪ .. وفى سن الخامسة والسبعين فما فوق ترتفع النسبة ويصبح عدد النساء أكبر من عدد الرجال مرتين .. اى أن كل حيتين منهما يقابلهما حى واحد منا !

لكن مأساتنا نحن معشر الذكور تتضح أكثر عندما تبدأ بدايتنا الحقيقية فى الحياة ؛ والبداية ليست من يوم الولادة ، ولكنها من يوم اخصاب بويضة بحيوان منوى ، ولهذا فان الصينيين هنا على حق عندما يضيفون اشهرا تسعة الى عمر المولود هى الفترةالتى يمكثها الجنين فى الرحم من يوم الاخصاب حتى الولادة .

المفروض أن تكون فرص مجىء الذكور والاناث الى الحياة فرصا متساوية .. بمعنى أن يكون عدد المواليد من البنات مساويا لعدد المواليد من الاولاد . . لكل منها نسبة ٥٠٪ . . فالذى يحدد نوع المولود هو الرجل لا المرأة . . ذلك أن ٥٠ ٪ من حيواناتنا المنوية « حريمى » ، و ٥٠ ٪ منها رجالى . . أى أن تكويننا الوراثى نحن معشر الرجال ليس « رجالى » صرفا .. ففى كل خلية من خلايانا الجسدية « أشرطة » ميكروسكوبية دقيقة يطلقون عليه اسم « كروموسومات » .. والكروموسوم بمثابة خريطة كيميائية وراثية ، وفيه تتراص مواقع حيوية استراتيجية نعرفها باسم المورثات أو الجينات . . والمورثات هى خطة العمل التى تترجمها الخلية الى مخلوق أيا كان شكله وحجمه ونوعه وجنسه

لكن موضوع الكروموسومات والمورثات موضوع متشعب وطويل ، وهو يفرض هنا نفسه مادمنا قد ذكرنا أن جزءاً من مكوناتنا الوراثية نحن معشر الذكور حريمى ، وجزءا آخر رجالى . . ولكى نوضح هذا الامر لغير المتخصصين ــ وهم غالبية عظمى ــ

يكفى أن نذكر باختصار أن فى كل خلية من خلايانا الجسدية نواة .. وفى النواة ٤٦ كروموسوما .. أو ٢٣ زوجا من الكروموسومات .. ٢٢ زوجا منها متشابهة ومكررة .. لكن الزوج الاخير — أى رقم ٢٣ يختلف عن الازواج الأخرى .. هذا الزوج من الكروموسومات يتكون من كروموسوم حريمى يسمونه « س » (أو اكس X) وكروموسوم رجالى يسمونه ص (أو واى Y) .. فى غددنا الجنسية (الخصى) نحن معشر الذكور تنفصل الازواج بالتساوى ، ويرحل نصفها الى قطب الخلية الجنسية ، والنصف الاخر الى القطب الاخر ، ثم يقام بينهما جدار حى رقيق ، وبعد هذا ينفصلان ليصبحا حيوانين منويين .. حيوان منوى منهما يحمل الكروموسوم س (حريمى) ، والاخر يحمل الكروموسوم ص (رجالى) !

فى عملية الاخصاب ينساب من الرجل حوالى ٢٠٠ مليون حيوان منوى — ينقص هذا العدد أو يزيد على حسب فحولة كل ذكر وعمره وتكوينه الجسمانى — لكن ليس ذلك مهما الآن بقدر ما يهمنا أن نعرف أن نصف الحيوانات المنوية فى السائل المنوى تحمل الكروموسوم س ، ونصفها الاخر يحمل الكروموسوم ص — فلو كان فى المقذوف ٢٠٠ مليون حيوان منوى ، نجد أن مائة مليون منها حريمى ، ومائة مليون رجالى !

ومن هذا يتضح أن فرصة المواليد الاناث كفرصة المواليد الذكور .. فاذا سبق الحيوان المنوى السينى ولقح البويضة ، كانت المولودة أنثى ، واذ سبق « ص » ودخل ، جاء المولود ذكرا .. وعلى حسب قوانين الاحتمالات ، وما دام نصف الحيوانات المنوية تحمل معها الصفات الوراثية الحريمى ، ونصفها الثانى يحمل الصفات الرجالى ، فانه من المتوقع أن يكون عدد حالات الاخصاب التى تؤدى الى مجىء بنات مساوية لعدد حالات الاخصاب التى تؤدى الى مجىء صبيان !

وقد يبرز هنا تساؤل : ولكن هناك حالات تلد فيها النساء ذكورا صرفا ، أو اناثا صرفا .. والجواب أن العلم لا ينظر الى الحالات الفردية ، ولو اتخذها مقياسا لكان ذلك مدعاة الى الخطأ ، ولكنه فى تحليله لأى أمر من الامور يرتكز على احصائيات تتناول قطاعات كبيرة من السكان ، أو حتى دولا بأكملها .. تماما كما يحدث فى الميزانيات والدخل والمنصرف وانتاج الثروات الزراعية والحيوانية والصناعية .. فدائما ما نذكر أن متوسط الدخل كذا جنيها ومتوسط محصول الفدان كذا أردبا أو قنطارا .. الخ

دعنا نعود الى تحليل موضوعنا الذى يهمنا لنقول : أن التقديرات الحسابية والرياضية توضح أن عمليات الاخصاب التى تتم ستؤدى الى تكوين أجنة من الذكور والاناث بالتساوى !

لكن الانثى قد لعبت بحساباتنا وتقديراتنا ، كما لعبت من قبل بعقولنا .. فالحيوان المنوى الذى يحمل الكروموسوم الرجالى أو الصادى يؤدى الى اخصاب أكثر (١) ، وسيقود ذلك حتما الى انتاج عدد من الذكور أكبر .. ولهذا تشير الاحصائيات البيولوجية الى أن عدد البويضات المخصبة التى ستؤدى الى مجىء مواليد من الذكور تقع فى حدود ١٢٠ ــ ١٥٠ بويضة ، يقابلها مائة بويضة مخصبة بالحيوان المنوى الحريمى لتأتى منها البنات

ولماذا كانت هذه التفرقة من البداية ؟

الواقع أن أحدا من العلماء لم يستطع أن يقدم تعليلا مقبولا

---

(١) يعتقد العلماء أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن الحيوان المنوى ص . أخف قليلا من الحيوان المنوى س (الأنثوى) ، لهذا كان السينى أبطأ فى الحركة نسبياً من الصادى ، ولا بد والحال كذلك أن تكون فرصة الاخصاب بالذكرى أكبر ؛ وعلى أساس ذلك ، فإن فرصة تكوين أجنة من للذكور أكبر من نسبة تكوين أجنة من الإناث بنسبة تتراوح ما بين ٢٠ — ٥٠ ٪ .

لمثــل هذه الظاهرة الغريبــة .. لكن ذلك سيتضح من مجريــات الاحداث التى تتــم بعد الاخصاب ، وسيتبين لنا أن الجنين الذكر هو الأضعف من ناحية التكوين الوراثى ، ولابد أن يعــوض هــذا الضعف بزيادة فى عدد حالات الاخصاب ، لتصبح الأجنة الذكــور أكثر من الاجنــة الاناث ، حتى اذا مــا تعــرضت الاولى لعوامــل ومصائب ليست فى الحسبان ، فان عددها الزائد عن الاناث ، سوف يتوازن عند الولادة وما بعدهــا !

ولكي نوضح ذلك بالارقام نقول : فى سجلات المواليــد يتبين ان كل مائــة موليــودة انثى يقابهــا ١٠٥ مواليــد ذكــور . . ولو قارنا هذين الرقمين مع عدد حالات الاخصاب التى ستــؤدى الى صبيان وبنات ، لوجدنــا أن عددا من الاجنة الذكور يتراوح ما بين ١٥ و ٤٥ جنينا قد اختصروا الطريق الى الحيــاة الاخــرة وهــم لا يزالون فى الارحام .. ذلك أن عدد البويضــات المخصبــة التى ستؤدى الى ذكور يترواح ما بين ١٢٠ ــ ١٥٠ حالة ، مقابــل مائة بويضة فقط تؤدى الى اناث .. فأين ذهبت البقية ؟ .. الجواب : ماتت قبل أن تخرج الى الحياة .. لكن هذا لا يعنى أن كل الاجنة البناتي تعيش ، فلا شك أن هناك نسبة منها ستختصر الطريق الى الآخرة وهى لازالت فى الارحام .. لكن الاحصائيات تشــير الى أن ما يموت من الاجنة الذكور أعلى من الاجنة البنات !

يؤكــد مونتاجو ذلك فى كتابــه فيقول « فى كــل مرحلــة من مراحل تكوين الجنين ، وفى كل مرحلة من مراحل الطفولــة ، يكون معدل الوفيات فى الذكور أكبر من الاناث .، والشيء نفسه صحيح بالنسبة لمراحل العمر المختلفة » !

ثم يسوق بعد ذلك أرقامــا ، فيذكر :

* ان ما يموت من الاجنة الذكور أعلى مما يموت من الاجنــة الانــاث بحوالى ٥٠ ٪ !

* فى الشهر الاول من عمر الطفل ترتفع معدلات الوفيات بين الذكور عنها فى الاناث بنسبة تصل الى ٤٠ ٪ !

* عندما يصل المواليد الى مرحلة من العمر تقدر بسنة واحدة ، نجد أن ما مات من الذكور أكبر بحوالى ٣٣ ٪ مما مات من الاناث !

* ما بين سن الخامسة الى التاسعة من مراحل الطفولة ترتفع نسبة الوفيات بين الذكور عنها فى الاناث ، فالذين يموتون فى هذه المرحلة من الذكور أكثر بنسبة ٤٤ ٪ من الاناث !

* ترتفع نسبة الوفيات مرة أخرى فيما بين سن العاشرة والرابعة عشرة ، ليصبح ما مات من الصبيان أكثر بحوالى ٧٠ ٪ مما مات من البنات !

* ترتفع النسبة بشكل يدعو للفزع فيما بين سن ١٥ — ١٩ عاما ، فتصبح نسبة عدد الضحايا من الذكور ١٧٠ ٪ منها فى الاناث ، ثم تنخفض النسبة قليلا الى ١٣٠ ٪ حتى سن الواحدة والعشرين !

* تنقص نسبة الوفيات تدريجيا بين الجنسين حتى يحدث التوازن بينهما عند سن ٣٠ — ٣٤ عاما ، وبعدها يقصف من أعمار الرجال أكثر مما يقصف من اعمار النساء .. وفى نهاية رحلة الحياة يزيد عدد الحيات عن عدد الأحياء بضعفين .. واحد منا لكل اثنتين منهن .. ويا قلب لا تحزن ، فهن أهم منا وأثمن !

هل يعنى هذا أن الحياة تتحيز للانثى ، وتحافظ عليها ، فى حين أنها تضحى بنسبة معينة من الذكور ؟ .. وما هو السر الكامن فى ذلك ؟ .

الاناث بلا شك اغلى وارفع منزلة من الذكور .
الحقيقة ستتضح لنا اكثر فى عالم الحيوان والنبات
نتعرض لذلك فيما بعد .

ان موت الذكور من البشر بهذه النسبة المحزنة
تدق لها الحياة طبول الخطر ، ولكن الكارثة الحقيقية
الاناث ، خصوصا عندما كانت الحياة تشق طريقها با
العصور البالغة القدم .. فلكى يترعرع النوع الانسـ
اعداده من بعد اضمحلال ، كان اعتماد الحياة على
من اعتمادها على الذكور .. فذكرواحديكفى لقبيلةمن الن
بقاء انثى واحدة يشكل أمام الحياة مشكلة خطيرة
ولو كثر الذكور ! .

ولكى نوضح ذلك لابد أن نشير الى أن غريزة ا
المسئولة عن استمرار الحياة ، ولهذا فهى أهم من غريزة
صحيح أن الغريزتين هامتان وأساسيتان لاستمرار الطو
لكن غريزة الطعام فيها استمرار لحياة الأفراد ، وغري
فيها استمرار للانواع ، والنوع بالنسبة للطبيعة أهم بيوا
الفرد .. فالفرد قد يموت ، ولابد أن يظهر غيره عن طريق
لكن أن يموت النوع ، فان ذلك يعنى انقراض كل أفراد
الكوكب .. والمسئول الأول عن انتاج « بضاعة » الحياة
الجنس التى أصبحت بمثابة العملة البيولوجية المتداو
أنواع الخلق .

أن الجنس بالنسبة للانثى بداية ــ أعظم بداية ، وبـ
نحن معشر الذكور نهاية .. أبسط نهاية .. !

يعنى أن عملية الاتصال الجنسى لا تعمر الا
تعد على أصابع اليد الواحدة ، أو اذا أردت ،
أصابع اليدين والرجلين .. ولقد كان هدف الذكو

اساسا أن تحصل على لـذة عارمة ودت انها تدوم ، لكن ليس هذا هو هدف الحياة ، بل اتخذت من اللذة وسيلة فعالة لكى يقذف الذكر بالملايين من خلاياه الجنسية ليحدث التلقيح ، وهذا ـ فى الواقع ـ هو الهدف الحقيقى الهام .. وكأنما الطبيعة قد ضحكت علينا ضحكة ازلية ، وصورت لنا الجنس الآخر كجنة نتغنى بجمالها وسحرها وحبهـا .. وما أكثر الاغانى والآهات وكلمات الغرام والهيام التى نسمعها ليل نهار ، وكأنما هذا الكـوكب قـد خلق لذلك ، وهو فعلا كذلك ، فالنتيجة الوحيدة لذلك أن يحصل المحب على من يحب أو لا يحصل ، فاذا بالحب يتحول الى عيـال ومسئوليات جسـام ، وهكذا تأتى الأجيال ، وتسـتمر الحياة بمخلوقاتها .

وعندما ينتهى الذكر من لذته بعد دقائق ثم يخمد وينام ، نرى البداية العظيمة لهذا التاكتيك الهرمونى الجنسى وهى تبدأ فى الانثى بعد أن يحدث الاخصاب ، وعندئذ تنقسم البويضـة الملقحة الى عشرات ومئات وآلاف الملايين من الخلايا التى تتشكل فى جنين لن يأتى الى الحياة الا اذا عاشت من تحمله فى بطنها على الاقـل أشهر تسعة ، ومن هنا كانت حياتها أهم من حياة الذكر .

بمعنى آخر نقول : ان دور الرجل فى انجاب الذرية لا يستغرق وقتا مذكورا ، فى حين أن الدور الرئيسى يقع على عاتق المرأة ، ولا بد أن تحافظ الحياة عليها غالبا حتى تضع مولودها ، ثم لا بد أن تقف بجوارها لترضعه وتحميه وتحتضنه لسنوات قادمـة .. وموتها فى هذه الفترة سيكون كارثة على الحياة ، لكن أن يموت الذكر بعد عمليات الاخصاب ، فلن يقدم ولن يؤخر ، وتتضـح هذه الحقيقة اكثر فى عالم الحيوان ، فمعظم ذكورها تقوم بتلقيحها ثم تذهب الى حال سبيلها ، وعلى الانثى تقع كل المسـئولية ، اذ لابد أن تسعى لاطعام نفسها واطعام ما فى بطنها من دمها ، وبعد الولادة ترعاها وترضعها وتقف بجوارها حتى يعتمد أولادها على

أنفسهم ، ويذهبون الى حال سبيلهم ، والذكر عن كل ذلك لاه عن رسالة كبرى حملتها الانثى ، وبها شقت طريقها .

ولو فرضنا أن هذا الذكر كان الوحيد فى قبيلة من النساء ، فانه يستطيع أن يقوم باخصابهن جميعا فى شهور قليلة ، ولو مات بعد هذه الشهور فلن تحدث المأساة ، ذلك أن الذرية القادمة من هؤلاء النساء ستؤدى الى جيل جديد من الاولاد والبنات ، وعندما يبلغون ، فسوف يتناكحون ويتناسلون ، وبهذا تستمر الحياة ، لكن أن تكون هناك امرأة وحيدة بين قبيلة من الرجال ، فليس لهؤلاء الذكور من فائدة ، ولاشك أن الانثى هنا بالنسبة لاستمرار الحياة ــ اغلى بكثير من كل الذكور اذ لو ماتت بعد التلقيح أو قبل الولادة ، لتوقفت الحياة فى القبيلة ، ولانقرضت من الوجود .

طبيعى أن ذلك لا يحدث الآن ، فلقد طفح الكيل من كثرة الذرية والتناسل ، لكن أهمية الانثى قد بزغت منذ بزوغ النوع الانسانى فى فجر التاريخ .. ولكى تكثر الذرية ــ اى نوع تشاء من أى مخلوق تشاء ــ كان لابد من الاعتماد على الانثى أولا ، ثم يأتى الذكر فى المرتبة الثانية .. ومن أجل هذا فقد ضحت الحياة بذكورها ، وحافظت على اناثها .. ويكفى أن نشير هنا مثلا الى تلك القصة الرمزية أو الحقيقية التى سجلها قدماء المصريين على قبورهم ، فلقد خرج جميع الشبان والرجال الى الحرب ، وغابوا لعدة سنوات عن نسائهم ، ولم يعد منهم الا عدد جد قليل ، وكانت دهشتهم بالغة عندما وجدوا أن انتاج الذرية لم يتوقف فى النساء ، رغم غياب الرجال ، فلقد كان هناك رجل لا يصلح للحرب ولهذا تركوه وراءهم ، فاذا به يخصب معظم الاناث ، فأعاد للدولة مجدها من بعد اضمحلال فى عدد الذرية ، وهكذا يتبين لنا أن من لا يصلح فى الابادة والقتل والحرب ، يصلح فى أمور أخرى تقوم عليها اعمدة الحياة .. ليكون استمرار الاجيال .

لكن ليس ذلك كل ما فى الموضوع .. فلا زالت تنقصة بقية .

فمن الحقائق المعروفة ان الفترة الخصيبة فى المرأة اقصر من الرجل ـ فحيث تبدأ فى الجنسين عند سن ١٤ ـ ١٦ عاما فى المتوسط عند البلوغ ، نراها تمتد فى المرأة الى سن الخمسين فى المتوسط .. حيث ينقطع الطمث الشهرى ، وهذا يعنى أن المبيضين قد توقفا عن افراز البويضات لاصابتهما بالشيخوخة المبكرة نسبيا ، وفى ذلك دليل على أن المرأة قد احيلت الى « المعاش» اخصابيا ، مع أنها لازالت تمارس كل حقوقها فى الحياة بما فى ذلك الجنس طبعا ، ولكن بدون ذرية ! .

والواقع أن ذلك ليس حال الذكور . . اذ قد تمتد فترة الاخصاب فينا الى أكثر من ٦٠ عاما .. وهذا يعنى أن الذكر منا قد يحال الى المعاش وظيفيا ، ولكن يبقى خصيبا بعد هذه السن جنسيا .. فهناك حالات من الرجال المسنين جدا (ربما فى الثمانين أو أكثر) قد تزوجوا من نساء صغيرات نسبيا ، واستطاعوا أن ينجبوا منهن ذرية فى هذه السن المتأخرة .. وبمعنى آخر نقول : ان الفترة الخصيبة فينا نحن معشر الذكور قد تمتد الى ٦٠ أو ٧٠ عاما ، فى حين أنها فى النساء قد لا تزيد عن ٣٥ عاما ! .

وهذا أيضا كان فى صالح الجنس البشرى عند بداية ظهوره على هذا الكوكب .. فلقد كانت النساء وقتها تلوذ بالكهوف ، ولا يتعرضن بذلك للاخطار التى يتعرض لها الرجال الذين يخرجون للقنص والصيد بطرق بدائية ، فلا تنفعهم عضلاتهم أمام الوحوش المفترسة ، وكانوا ينقرضون واحدا بعد الآخر ، ولا شك أن وجود بعض المسنين فى القبائل البدائية القديمة مع النساء الشابات كان بمثابة تعويض لما يضيع ويموت من الشباب والرجال ،والمسن ستطيع أن ينجب ذرية من امرأة أو شابة مات زوجها .. فلا زالت غدده الجنسية صالحة لافراز حيوانات منوية خصيبة ،

حتى ولو امتد به العمر .. فمن مفارقات الحياة الغريبة أن كل خلايانا الجسدية يحل بها الضعف ، وتزحف عليها الشيخوخة كلما تقدم بنا السن ، ولكننا لا نرى ذلك فى الخلايا الجنسية .. فهى دائما أبدا تمتاز بالحيوية والنشاط حتى ولو كان الذى أفرزها قد وصل الى أرذل العمر .

ويذكر بعض العلماء أن المراة فى العصور القديمة جدا كانت تختلف عن المراة فى العصور الحديثة .. فمنذ مائة الف عام تقريبا كانت الانثى تتميز بفترات اخصاب أطول ، بمعنى انها كانت تستطيع أن تنجب اطفالا وهى فوق سن الخمسين أو الستين، وفى ذلك تعويض عن عددهن القليل جدا فى بداية نشوء النوع الانسانى .. فلكى تكثر الذرية وتنتشر ، كان لابد من الاعتماد أساسا على المراة .. وعندما اشتد عضد النوع الانسانى ونشا وترعرع وبدأ ينتشر على الأرض ، بدات الفترات الخصيبة للمراة تتناقص تدريجيا بمرور عشرات الالوف من السنين .. وربما كانت هناك علاقة بين عدد سكان الارض من البشر وبين الفترات الخصيبة للنساء .. فكلما زاد تكدس السكان ، تناقص لديهن معدل الاخصاب .. لكن ذلك لا يظهر بوضوح فى الانسان ، ولا نستطيع أن نلحظه فى فترات تقدر بالوف السنين .. كما اننا لا نستطيع أن نجرى التجارب العملية على النساء والفتيات لسبب بسيط .. ذلك انهن لسن بحيوانات تجارب ، ولكن التجارب التى أجراها العلماء على اناث الحيوان تؤكد هذه الحقيقة الغريبة .. ولنذكر هنا تجربة واحدة أجريت على « حريم » الفئران ! .

عندما تتكدس اناث الفئران فى أقفاص لفترات طويلة ، تظهر عليها العصبية وتوتر الامزجة ، وهذا بدوره ينعكس على درجات اخصابها .. فأحيانا ما تصاب بعقم كاذب ، واحيانا اخرى لا ترغب فى الجنس ، وقد يحدث لديها اجهاض ، وقد تتكاسل مبايضها عن افراز البويضات .. الخ ، المهم فى الموضوع أن اناث

الفئران المزدحمة فى اقفاصها أو جحورها تحدد نسلها بطريقة طبيعية .. لكن المسئول عن ذلك مادة كيميائية خاصة اسمها « فيرومون » ، وهذه تنتشر منها كما تنتشر العطور من نسائنا ، وكلما زادت أعداد اناث الفئران ، كلما زاد تركيز الفيرومون .. وهذا بدوره يؤثر تأثيرا فعالا على اخصاب الفأرة ، ويصيبها بالعقم الموقت ، وربما يؤدى ذلك الى اختصار فترة حياتها الخصيبة ، وكأنما الفئران قد حلت مشاكلها ، وتغلبت على تحديد نسلها قبل أن يظهر البشر على هذا الكوكب بعشرات الملايين من السنين .

الى هنا يبرز سؤال هام : هل سيؤدى ازدحام البشر على هذا الكوكب الى اختصار الفترات الخصيبة لنسائنا أكثر وأكثر ؟

ربما يحدث ذلك ، وربما لا يحدث .. فعلم ذلك عند ربى ، فالامر يحتاج الى ألوف من السنين قادمة !

واذا كانت الاحصائيات البيولوجية تؤكد أن المرأة أطول عمرا من الرجل لاسباب سنوردها فى حينها ، الا أن هذه الحقيقة تتأكد أكثر اذا نظرنا الى طوفان الحياة ككل ، بداية من الميكروب الى النبات الى الحشرة الى الضفدعة الى الطير الى كل ما يدب على هذا الكوكب من مخلوقات شتى .. بما فى ذلك الانسان .

ونحن لا نستطيع أن نتعرض هنا لكل الوسائل والاساليب التى سارت عليها الحياة لتضع فيها مخلوقاتها تحت اختبارات قاسية لتنتقى الصالح الصامد ، وتقضى على الطالح المتواكل .. الا أن قسوة الحياة قد انصبت أساسا على ذكورها .. وكأنما هى تقدم الذكر قربانا للانثى بوسائل شتى ، ومن أجل هذا نقصت أعداد الذكور ، وزادت الاناث .. أو لو وضعنا ذلك فى احصائية علمية ، لتبين لنا أن الانثى فى عالم النبات والحيوان أطول عمرا من الذكر .. ربما بأضعاف مضاعفة .

الى فصل قادم اذن ، لنعرض مأساتنا نحن معشر الذكور .

الأنثى أولا .. من فضلك !

الحياة لا تهتم كثيرا بالذكر قدر اهتمامها بالانثى !

حقيقة يعرفها العلماء جيدا من خلال دراساتهم الطويلة من بداية الخلق حتى نهايته . . نعنى من الميكروب والأميبا ، الى الشمبانزى والانسان .

وكثيرا ما أسقطت الطبيعة الذكر من حسابها ، وأحيانا ما قدمته لنا بصورة ممسوخة تدعو الى الازدراء والاحتقار . . وكأنما هى تؤكد أن الانثى هى الاساس ، وانها هى التى نشأت أولا ، ومنها اشتق الذكر بعد ذلك وظهر !

ولو تعمقنا فى جوهر الحياة ، واسس البيولوجيا لوجدنا أن المخلوقات جميعا ليست الا بمثابة مواعين حية لتحتفظ بسر خلود النوع وانتشاره فى الزمان والمكان . . والماعون أو الكائن الحى يأتى الى الحياة ضعيفا ، ثم يقوى ويشتد عوده ، ولابد أن يستهلك بعد ذلك ويبلى ويموت . . يستثنى من ذلك الخلايا الجنسية . . فهى دائما تترك مواعينها الفانيةلتتقابل فى عمليات النكاح أو التزاوج أو التلقيح ، وبعدها تندمج ليأتى من ورائها مواعين او مخلوقات جديدة . . وهكذا تظهر اجيال ، وتروح اخرى !

لكن الماعون الاساسى للحياة يتركز فى الأنثى . . فهى التى تستقبل الخلايا الجنسية الذكرية ، وهى المسئولة عن تنشئة الأجنة وحملها وولادتها ورضاعتها ورعايتها ، ولهذا كانت اهم بيولوجيا من الذكر !

وقد يبدو لنا الذكر احيانا وكأنما هو ليس الا أداة حية من أدوات التلقيح ، وبعد أن يؤدى رسالته نحو الحياة ، فلا فائدة من وجوده بعد ذلك ، وقد يتحلل ويموت ، فى حين أن الانثى تبدأ حياتها الحقيقية بعد موت الذكر .

ولقد قدمت لنا الطبيعة أمثلة كثيرة ، وكأنما هى تضع النقط فوق الحروف ، وكأنما لسان حالها يقول : فلنشطب الذكر من سجلات الحياة ، ولنبرز الاناث ، ولنهىء لها السبيل فى انتاج ذرية من وراء ذرية دون أن يشارك فيها الذكر بخلية من خلاياه الجنسية ، وكيف يشارك وهو ليس موجودا أساسا فى هذا العالم الغريب الذى ينطوى على مجتمعات كلها حريم فى حريم ؟!

نعم .. أن الانثى تستطيع أن تحمل وترزق بذرية دون أن يمسها ذكر .. أى انها تتوالد عذريا .. بمعنى انها تنجب وهى عذراء ! . ومن هنا أطلق العلماء على مثل هذه الحالات اسم « التوالد العذرى » .. Parthenogenesis (وهذه الكلمة من شقين يونانيين « بارثينوس » بمعنى عذراء وجينيسيس بمعنى توالد .. وهناك معبد البارثينون أى معبد العذارى فى أثينا القديمة .. وقد انشىء فى القرن الخامس قبل الميلاد) !

والتوالد العذرى واسع الانتشار فى رتب كثيرة من مملكة الحيوان ، وخصوصا فى الحيوانات الدنيا مثل براغيث الماء (الدافنيا والسيكلوبس Daphnia & Cyclops) ، وبعض أنواع من الديدان والحشرات مثل المن والتربس والنمل والنحل والدبابير .. الخ ، لكن هذا موضوع متشعب وطويل ، ولا يهمنا منه الا أن نعرف أن للذكر دورا ثانويا مع الانثى ، أو قد لا يكون له دور على الاطلاق !

فمنذ أكثر من قرنين وربع قرن من الزمان ، وبالتحديد فى عام ١٧٤٠ ، اكتشف هذه الظاهرة المثيرة شاب سويسرى — لم

يتجاوز العشرين من عمره ـ يدعى تشارلز بونيه .. فلقد أخذ انثى من اناث المن الحديثة الولادة وعزلها عن كل ما حولها من أبنـاء أو بنات جنسها ، وبعد عشرة أيام اكتشف ـ لدهشتـه ـ أن الانثى قد ولدت « طفلا » .. وفى غضون الواحـد والعشرين يومـا التى تبعت ذلك وضعت الانثى نفسها أكثـر من ٩٥ من ذريتهـا وكتب يصف مولدها « وكلها جاءت حية ، وظهرت الى الوجـود أمـام عينى التى فى رأسى » !

ولقد أثار هذا الاكتشاف نوعا من النقاش والامتعاض وعـدم التصديق .. فالأجيال لا تأتى ـ كما هو دائمـا معروف ـ الا اذا اجتمع ذكر بأنثى .. دودة كـان ذلك أو حشرة أو سمكـة أو فأرا وارنبا وكلبا وخنزيرا وثعبانـا وانسانا .. الخ ، لكن بونيه استمر فى بحوثه ، واستطاع ان يتوصل الى انتاج عشرة أجيـال متتابعـة دون أن تحدث بينها عملية تلقيح واحدة ، وهنا يقول بونيه « من الصعب حقا أن نبلع هذه الحقيقة .. حقيقة أن هذا الخلف قـد تـم تلقيحه من أجداد أجداد سلفه » ! .. وهـو يعنى بـذلك أن الذكر لـم يكن موجودا أساسا فى الذرية ومن بدايتها !

والواقع أن الاناث قد تتعطف وتنتج بعض الذكور بطريقـة التوالد العذرى ، لكن ذلك يحدث بتوقيت معلوم .. ففى فصلى الربيع والصيف تتوالد الاناث عذريا ، لتعطى أجيـالا كلها انـاث فى اناث .. ودون أن يظهر بينها مخلوق ذكرى واحد .. واخـيرا ـ وبحلول فصل الخريف ـ تنتج ذرية من الاناث والذكور ، ويحدث التزاوج بين هذه وتلك ، وبعدها تضع الاناث بويضاتها على أغصان النبات وبراعمها وتبقى البويضات نائمة حتى حلول الربيع لتفقس وتنتج اناثا تعرف باسم ـ المؤسسة ـ اى التى تؤسس المستعمرات الجديدة بمزيد من الاجيال ، وبعدها تعود الامور سيرتها الاولى .. أى انهـا تلد أجيالا متتابعة من ذرية كلها اناث فى اناث !

وهذا يعنى أن الاناث لا تضع ذكورها الا اذا حلت بها الازمات، وقست عليها الظروف الطبيعية والجوية .. ففى أواخر الخريف ومع مقدم الشتاء ، تجف النباتات وتتساقط الاوراق ، وتحل البرودة ، وتنهمر الامطار ، ولن تتخطى الاناث هذه الازمة الا بانتاج الذكور ، لتتزاوج معها ، وتضع بويضاتها ، وفيها تكمن الاجنة وتنام فى « لفتها » الطبيعية لتصحو مع مقدم الربيع على هيئة اناث تلد أجنة ولا تضع بيضا .. فالبيض لا يأتى الا بالذكور .

وقد تستغنى الاناث كلية عن الذكور لأجيال طويلة متعاقبة اذا ما هيأنا لها الظروف المناسبة ، أو قد نجعلها تسرع بانتاج الذكور اذا ما عرضناها لظروف قاسية .. مثل البرودة أو الجفاف أو الظلام أو بعض مواد كيميائية خاصة « تقرفها » ، ومن هذا « القرف » الصناعى تنتج الذكور .. صفعة جديدة لنا نحن معشر الذكور !

وتعنى هذه الامور أكثر أن الذكر فى تلك المخلوقات هو ابن أمه ، لا ابن أبيه .. فليس له أب بالمعنى المتوارث فى العقول .. وهذا يؤكد أن الانثى هى الاصل ، وهى الاساس ، وأن الذكر مشتق منها تحت ظروف سيئة ، وأحوال غير مواتية !

تتضح هذه الحقيقة أكثر فى ممالك النمل والنحل .. فالملكة الخصيبة تضع بويضات ملقحة وغير ملقحة .. الملقحة منها تنتج ملكات وشغالة (يتوقف ذلك على نوع الغذاء) .. وغير الملقحة تنتج ذكورا .. أى أن الذكر هنا ابن أمه بالتأكيد ، اما الانثى (الملكة والشغالة) فهى « بنت » أبيها وأمها على السواء (بويضة من الانثى تخصب بحيوان منوى من الذكر) .. أضف الى ذلك دليلا قويا نحصل عليه من حالة ملكة عذراء لم يمسها ذكر ، وعندئذ تضع بويضات لا تنتج الا ذكوراً .. كما أن الملكة فى أخريات أيامها لا تنتج الا ذرية من الذكور ، والتعليل الوحيد لذ

هذه الظاهرة أن الملكة قد استنفدت كل ما لديها من أرصدة الحيوانات المنوية التى حصلت عليها من الذكور .. وعندئذ تضع بويضات غير مخصبة ، لتعطى ذكورا ..

ومع ذلك فهناك أنواع قليلة من الحشرات لا تعرف عن انتاج الذكور شيئا مذكورا .. من ذلك مثلا الحشرة المعروفة باسم العصا أو الغصن الجاف Stick Insect .. فعندما تقف الانثى على نبات جاف ، يصعب تمييزها بالنظرة العابرة ولقد قام العلماء بتربية نوع من الانواع فى معاملهم . وحصلوا منها على مئات الالوف من الاناث التى جاءت فى أجيال متتابعة ، ونادرا ما كانوا يحصلون على ذكر ، وحتى فى هذه الحالات القليلة التى ظهر فيها شبح الذكر ، لم يكن له من فائدة تذكر ، فلا هو يستطيع أن يقوم بعمليات التلقيح ، ولا هو أساسا يمتلك أعضاء جنسية خصيبة .. والظن السائد أن « أشباه » الذكور هذه ليست الاناثا « مسخوطة » على هيئة ذكرية .. ولا فائدة فيها ولا مأرب ! .. وهذا يعنى أن النوع يستطيع أن يشق طريقه فى الحياة لملايين السنين دون ما حاجة الى ذكر !

لكن دعنا من كل ذلك ، لنطرح سؤالا هاما : هل من الممكن أن تظهر حالات التوالد العذرى فى الحيوانات العليا ومنها الانسان ؟

الواقع أن الاجابة على هذا السؤال قد يطول شرحها ، وليس هذا مجالها ، ولكن يكفى أن نذكر باختصار بضع حالات غريبة ذكرتها المراجع العلمية .. ولنبدأ بحالة انثى الديك الرومى (أو الرومية اذا أردت) ، فهذه تستطيع أن تنتج بعض الكتاكيت الرومى دون أن يتدخل الذكر او الديك فى ذلك !

لقد أوضح لنا العالمان اولسين ومارسدين أن نسبة صغيرة من البيض غير المخصب للفراخ الرومى بامكانها أن تفقس وتنتج

كتاكيت تواصل الحيـاة ، ثـم تبعا ذلك بعدة تجارب عزلا فيهـا عددا من الاناث الصغار عن الذكور ، وبوقت كاف قبل سن البلوغ، وعندما بلغت الاناث التى لم يمسسها ذكر ، وضعت بيضها غـير المخصب ، وتبين بالفحص انـه يحتوى على آثـار أجنة دقيقـة ، وأن ٢٧ من ٢٧٨ بيضة موضوعـة فى حضانـة بدأت بالفعـل فى تكوين أجنة عاديـة أو شبه عاديـة ، ولكنها لـم تستطع أن تكمل المشوار وتفقس ، ومع ذلك فقد تخطى جنينان من آلاف الاجنـة كل العقبات ، وظهرا الى الوجود على هيئة كتكوتين ، ثـم واصـلا نموهما الى أن صارا ديكين يافعين يتمتعان بالحياة كما تتمتع بهـا الديوك الاخرى المنسبة الى آبـاء ، مع فـرق واحـد ، ذلك أن الديكين اللذين ظهرا الى الوجود بدون أب كانـا أصغر قليـلا من الديـوك المنسبة الى آبائهـا !

وجذبت هذه الظاهرة الغريبة انتبـاه العلمـاء المهتمين بمثـل هذه الامور ، وبـدأوا فى اجـراء سلسلـة هائلـة من التجـارب الهادفـة ، وتوصلوا الى حقائق مثيرة .. من ذلك مثلا أن نسبـة التوالـد العذرى فى البيض الذى وضعتـه فراخ رومية معزولـة عن ديوكهـا جنسيـا تزيـد لوانهـا سمعت كركـرة ذكرهـا ، ويبدو أن صوت الذكر يثير فيها اليـه حنينـا وقد يؤثـر ذلك على مراكزهـا العصبيـة ، وقد تتأثـر الغدد تبعا لذلك ، فتجـرى فى دمائهـا هرمونات شتى ، قد تحدث تغييرا فى كيمياء البيض ، وبهذا تزيد فيه نسبة التوالد العذرى !

وفى السنة الماضية فقط أعلن كل من دكتور ادوارد باس ، م . أولسين من جامعـة بنسلفانيـا بالولايات المتحـدة الامريكيـة أن هناك عاملا خارجيـا قد بـدأ فى التدخل فى اخصاب بيض الفـراخ الرومى اخصابـا كاذبـا ، ومع ذلك فـان الاخصاب الكـاذب أو التوالـد العذرى يـؤدى الى انتـاج أجنـة وكتاكيت تنمـو نمـوا عاديا حتى سن البلوغ .. لكن ما هـو ذلك العامل الخارجى ؟

ليس بالتأكيد حيوانا منويا ، بل قد يكون فيروسا .. ولقد عرفنا الفيروس فى أمراض كثيرة تصيب النبات والحيوان والانسان .. فمن شلل أطفال الى التهاب فى المخ الى حصبة الى تيفوس الى انفلونزا الى ربما سرطان .. الخ ، وفى حالة الخلايا السرطانية يحدث شيء غريب ، فالخلية العاقلة لا تنقسم الا بحساب، ولا تتكاثر الا بمقدار ، لكن أحيانا قد يحل بها الجنون ، فتنقسم دون ما داع الى هذا الانقسام ، وتخرج بذلك على المجتمع الخلوى الذى فيه تعيش ، ولا تزال تنقسم وتنقسم حتى تنتج ملايين وبلايين الخلايا التى تظهر فى النهاية على هيئة ورم سرطانى مدمر .. ولقد اختلفت الآراء حول الاسباب الكامنة من وراء هذا الانقسام الغريب .. فمن قائل انها عوامل وراثية ، ومن قائل انها مواد كيميائية ، ومن قائل انها جرعات اشعاعية ، ومن قائل انها فيروسات .. الخ

والبويضة فى الطيور أو فى الحيوانات الثديية لا تنقسم الا اذا اندمج معها حيوان منوى وخصبها ، لكن أن تنقسم هكذا دون أن يأتيها نصفها الآخر ، فان ذلك يجعلنا ننظر اليها كما ننظر الى خلية سرطانية حل بها الجنون بعامل من العوامل التى ذكرناها أو التى لم نذكرها .. لكن جنونها — على أية حال — لن يكون خطرا ، وسوف يؤدى الى تكوين جنين طبيعى أو ممسوخ

لكن يبدو أن اصابة البويضة بفيروس أو غيره قد يغنيها عن وجود الذكر أو وجود الحيوانات المنوية التى تفرزها الذكور لتخصبها ، ويقوم العالمان المذكوران بالبحث عن سر هذه الظاهرة — ظاهرة التوالد العذرى بين الطيور ، وعلى الاخص بين الفراخ الرومى ، فاذا ثبت أن انقسام البويضة من ورائه فيروس ، واذا ثبت أيضا أن هذا الانقسام يؤدى الى تكوين جنين كامل فكتكوت .. اذا ثبت هذا بالفعل ، فان ذلك سيكون بمثابة صفعة هائلة على قفا الذكور — نقصد الديوك الرومى .. وربما

صفعات اخرى تتقبلها الـذكور التى تنتمى الى انـواع أرقى فى التطور من الديوك الرومى !

والواقع أن ظاهرة التوالد العذرى تختفى تدريجيا كلما اكتسب المخلوق أو النوع اجهزة اعقـد ، ومخا اكبـر ، ووظائف فسيولوجية أكثر تباينا من المخلوقات الدنيا .. فهى فى براغيث الماء والحشرات عاديـة ، وفى الاسمـاك محتملـة ، وفى البرمائيـات (كالضفادع) أقـل ، وفى الطيـور أقل وأقل ، وفى الحيوانـات الثديية نادرة ، وفى القرود والانسـان أكثـر من نـادرة أو قـد لا توجد على الاطـلاق !

هل هناك اذن سخرية أكثر من استغناء البويضة عن حيوانها المنوى ، واستغناء الانثى عن ذكرها ، ليحدث الاخصـاب بعامـل خارجى قد يكون فيروسـا لا نستطيـع أن نـراه ـ لضآلتـه ـ الا بالميكروسكوب الاليكترونى ؟ .. وهـل يمكن أن يـكون مقـام الذكـر « العظيـم » من مقام فيروس حقير ضئيل ليس من ورائـه الا المرض والموت والخراب ؟ .. وكيف يصل الهوان بالذكـر الى هذا الحـد ؟ .. لسنا فى الواقع ندرى ، ولا نستطيـع أن نجيب الا كما يجيب رجل الدين الذى يقف على المنبر ويردد بوعى أو بدون وعى قوله المشهور « اللهم هذا حالنا لا يخفى عليك ، وهذا ضعفنا ظاهر بين يديك ، فعاملنا بالاحسـان .. اذ الفضـل منك واليك » .. وهـو لا يدرى أن دعاءه هذا قد يذهب فى الهواء لاننا لو احسنا الى أنفسنا ، لأحسن الله الينـا .. فالله يحب الاقويـاء .

وايا كانت الامور ، فبالامكان حث البويضات فى الانواع المختلفة على التكاثر والانقسام وتكوين الانسجة والأعضاء ثم الجنين المتكامل دون أن يكون للذكر أو خلاياه الجنسية دخل فى ذلك .. وطـرق الحث كثيرة ومتنوعـة .. فقد تكون طبيعية مثـل رفـع درجـة الحرارة (صدمة حراريـة توقظها من سباتها) أو انتزاع نسبـة من محتواهـا المـائى (تجفيف نسبى) ، أو بتعريضها لعمليـات

احتكاك حساسة ، أو معاملتها بجرعات اشعاعية مناسبة .. الخ .. وقد تكون كيميائية كوضعها فى أملاح خاصة ، أو أحماض معينة ، أو قلويات محددة التركيز .. الخ ، وقد تكون طرق الحث بعوامل بيولوجية عن طريق فيروسات أو مواد وراثية أو بروتينية .. الخ

لكن دعنا نختار نوعا من الحيوانات الثديية التى أجريت على بويضاتها غير الملقحة بعض هذه التجارب .. ولتكن بويضات أرنب أو خنزير ، ولنذكر تلك التجربة التى أجراها العالم بنكاس على عدد من بويضات أرنب حصل عليها من مبايضها مباشرة بواسطة عملية جراحية ، ثم وضعها فى محلول ملحى أو تعريضها لدرجة حرارة ٤٥ درجة مئوية ليحثها على النشاط والاستجابة ، واعادها الى رحم أرنب مهيأ لاستقبال هذه البويضات وحضنها وتغذيتها .. ولقد استخدم بنكاس فى هذه التجارب ٦١٥ بويضة غير ملقحة ، واستطاعت ثلاث بويضات فقط بطريق التوالد العذرى أن تنتج ثلاثة أجنة كاملة النمو ، ولقد وضعتها الانثى كمواليد عادية فى الوقت المحدد !

صحيح أن نسبة التوالد العذرى نسبة ضئيلة ، ولكنها بلا شك تفتح طريقا رحبا وعميقا فى ساحة البحث العلمى ، ثم أن مغزى هذه التجربة قد غير المفاهيم التى سيطرت على العقول ردحا طويلا من الزمان .. فلا ولادة بدون ذكر ـ أو على الاقل بدون خلايا جنسية ، خصوصا فى الحيوانات الثديية .. ولا تنس أننا نحن معشر البشر من الحيوانات الثديية .. أى أن هناك حملا فى الرحم ، ورضاعة لبن من الاثداء .. لا يختلف هذا فى الكلب عن الارنب عن الخنزير عن القرد والحصان والانسان .. فالاساس واحد ، وأن اختلفت الاشكال والانواع .

والتجارب فى هذا المجال كثيرة ومتنوعة ، لكن ليس لذكرها هنا مجال ، وعلينا أن نترك الارانب والفئران والكلاب ،

ولنقفز تجاه الانسـان ، ولنتسـاءل : هـل يمكن أن يسرى على الانسان ما يسرى على الحيوان من امور التوالد العذرى ؟

مع حساسية الاجابة بصراحـة على هذا التسـاؤل ، كـان لابـد أن نعرض وجهة نظر العلم مجردة .. صحيح أن العلم لم يصل الى منتهاه فى هذا المجـال ، لكن ألنتائج الاولية المبنيـة على أسس بيولوجية تشـير الى أن بويضـة أنثى الانسـان قد لا تشـذ على القاعدة .. بمعنى انها لو تعرضت للعوامل التى تتعرض لها بويضات الحيوانات الثدييـة الاخرى ، فانها قد تستجيب لها ، وتتأثر بهـا دون مشاكسة أو عناد أو مقاومة .. لكن الولوج فى هذه التجـارب واجراءها على البشر لـم يطرق بجديـة الا فى خارج الرحـم .. نعنى فى أنابيب الاختبار ، فالانسان ليس حيوان تجـارب ، لكنـه ليس مفصولا عنها فى الاسس الكيميائية والحيوية والفسيولوجية . ولهذا فان ما ينفـع فى الحيوان قـد ينفع مع الانسان !

الا أن هنـاك ثمـة ظاهـرة غريبـة لا يعرفهـا الا العلمـاء المتخصصون ، وفيها قد تحدث الولادة العذرية عندما تلقح البويضة بحيوان منوى تلقيحا جزئيا أو ناقصا أو كاذبـا (gynogenesis) .. وفى هذه الحالة يدخل الحيوان المنوى الى البويضة ، لكنه يمـوت دون أن يشارك مشاركـة فعليـة ـ بتكوينـه الوراثى ـ فى التلقيح والاخصاب ، لكن مجرد ولوجـه الى البويضة ثـم موتـه وتخليـه عن بعض مكوناتـه التى تتوزع فى المادة الحية ، يؤدى الى شحـذ همة بويضته وحثها على الانقسـام والتكاثر .. ولقد تعرض العالم البيولوجى ايفزد يليج لهذا الموضوع الحسـاس فى عـام ١٩١٣ فى بحثه الذى تساءل فيه : « هل يمكن أن يحدث التوالـد العـذرى فى النوع الانسانى » ؟ .. ولقد بنى هذا التساؤل على عدة تجـارب بين فيها انـه بالامكـان تدمير الحيوانات المنويـة جزئيـا بمـواد كيميائية مثل الكحول أو المورفين أو الكوكايين أو ربمـا بميكروب

الزهرى .. فاذا دخلت الى البويضة لم تستطيع اخصابها ، لكنها تؤدى الى انقسامها وتكاثرها عذريا !

ولقد جذب هذا البحث انتباه العامة والخاصة واثار ثائرتهم ، خصوصا عندما كتب ديليج معلقا « ولما كان احتمال التوالد العذرى فى انثى الانسان ليس مستحيلا ، فان بعض الناس الذين قد يمرون امامنا فى الشارع دون أن نرتاب لحظة فى انهم قد جاءوا من ذكر وانثى ، وانما قد يكون احتمال مجيئهم عن طريق التوالد العذرى قائما دون أن تظهر عليهم أية سمات شاذة .. والطريق الوحيد لاكتشاف ذلك هو وضع تلك الحالات تحت الفحص العلمى فربما ينكشف السر ونصل الى نتيجة لحسم هذا الامر .. أن هذا الامر قد يكون ذات جاذبية خاصة وهو من الوجهة البيولوجية على قدر كبير من الاهمية والاثارة » !

ويضيف ديليج الى ذلك تلك الحالات النادرة للغاية التى يحدث فيها الاتصال الجنسى بين الانسان والحيوان .. والغريب أيضا أن هذه الظاهرة الاخيرة قد تعرض لها فيما بعد العالم البيولوجى ل . بونور وأشار فيها الى تلك الحالة الغريبة التى ولدت فيها فتاة من الغجر تبلغ من العمر ١٦ عاما طفلا مشوها وبدون رأس وغير مكتمل التكوين فى مستشفى فيشى للولادة بفرنسا .. ولقد كانت الفتاة تعيش فى خيمة واحدة مع والدها وبصحبة قرد من نوع الماكاك .. ومما يذكر أن الفتاة لم تتصل بأى انسان غريب ، ولقد انطلقت اشاعة بين العامة الذين يقطنون فى المنطقة التى عاشت فيها الفتاة بأن هناك علاقة آثمة بين البنت وأبيها ، ويستبعد بونور حدوث مثل هذه العلاقة التى قامت على اشاعة ليس لها أساس من الصحة ، وهو يميل الى احتمال حدوث علاقة بين الفتاة والقرد ، وعندما « تلوثت » بويضتها بمادة غريبة من الحيوانات المنوية للقرد (اخصاب كاذب) ، بدات البويضة

تنقسم وتتكاثر عذريا ، وانتهت بمسخة ميتة .. لا هى بشر ، ولا هى قرد !

لكن .. ماذا يعنى كل ذلك ؟ .. وما هى الخلاصة ؟

يعنى انه مادامت الانثى هى الاساس ، فان بويضاتها أو خليتها الجنسية هى أيضا الاساس .. بمعنى انها تستطيع أن تؤسس أجيالا ، دون الاعتماد على خلايا جنسية ذكرية ، فى حين أن الذكر لا يستطيع ذلك على الاطلاق .. ونضيف الى ذلك تعليق جين روستاند وأندريه تيترى فى كتابهما « علم الحياة » وفيه يذكران « انه لا يوجد مانع ـ نظريا على الاقل ـ فى عدم امكان اخصاب المرأة وحملها دون تدخل من الرجل ، وبهذا تستطيع أن تصبح أما فى يوم من الايام ، فى حين أن الرجل لا يمكن ان يكون أبا الا اذا اعتمد على المرأة .. ان مبدأ عدم المساواة من الناحية البيولوجية (بين الذكر والانثى) ينبع أساسا من عدم المساواة بين حجم الخلية الجنسية الانثوية (البويضة) وحجم الخلية الذكرية (الحيوان المنوى) .. لكن مهما تقدم العلم فى هذا المجال ، فسوف تستمر الذكور فى انتاج خلايا جنسية أصغر ، وعندئذ لا تستطيع الاعتماد على نفسها كما تفعل البويضة فى حياتها .. وهما بذلك يعنيان أن للبويضات امكانات بيولوجية شتى ، ولديها مخزون من الغذاء ، وتمتلك ميكانيكية حيوية وبها تستطيع أن تدوس على الزناد فى الوقت المناسب ، لتنطلق فيها قذيفة الانقسام والتكاثر بهدف أو بغير هدف (أى تعطى أجنة سوية أو ممسوخة) لكن الخلية الجنسية الذكرية عاجزة عن مجاراتها فى هذا المضمار ، ومن هنا كان لابد أن يعقد لو السيادة البيولوجية للأنثى وبويضاتها ، وليأت الذكر وحيواناته المنوية بعد ذلك فى المرتبة الثانية !

أضف الى ذلك أن بعض العلماء يذهبون فى تصوراتهم الى

أبعد من هذا ، فهم يتوقعون مزيدا من الكشوفات فى المستقبل ، وهذه قد تميط اللثام عن مزيد من الاسرار ، وعندما يتقن الانسان علومه ، ويصقل معلوماته وادواته وأجهزته ، فانه قد يتوصل فى المستقبل القريب أو البعيد الى معاملة بويضة أنثى الانسان بالطرق التى تعامل بها بويضات الحيوانات الاخرى لحثها على الانقسام ، وبعدها تزرع فى رحم المرأة ، وتسحب غذاءها ، وتتكاثر وتنمو وتتشكل على هيئة جنين قد يشبه الانثى تماما أو قد لا يشبهها ، لسنا فى الواقع ندرى ، لكن الذى ندريه أن قوانين الوراثة قد تقف عائقا ضد هذه الذرية التى لم تأت عن الطريق الشرعى أو التقليدى .. وقد يتغلب العلماء على العوائق بأفكار اخرى أكثر تطورا من أفكارنا الحالية .. وما أكثر ما فى جعبة العلماء من أفكار أو « سهام » علمية تنطلق فى كل آن وحين ، بعضها قد يصيب ، وبعضها قد يخيب ، كل ذلك مرهون بسعيهم الجاد فى هذه السبيل !

فاليوم لا شك أرنب ، وغدا انسان .. بمعنى أن التجارب التى تجريها الان على الارانب والخنازير والفئران وتؤدى الى نسبة من النجاح (كأرنب بنكاس الذى سبق أن قدمناه واستطاع أن يحصل على ثلاثة أجنة بطريق التوالد العذرى) ، قد يمكن اجراؤها فى المستقبل على أنثى انسان ، ودون أن يتدخل الذكر فى ذلك على الاطلاق !

وفى زماننا هذا تستطيع المرأة (أو ربما الفتاة) أن تحمل وتلد دون أن يمسها ذكر .. لكن حملها لن يكون بالتأكيد عن طريق جن أو عفاريت أو « بساط الريح » أو غير ذلك من الخرافات التى تخرج بها علينا الصحف لتحدث نكسة فى الفكر ، وردة فى العلم ، بل يأتى حملها عن طريق التلقيح الصناعى ، اذ يكفى — لو ارادته المرأة — أن تستقبل جرعة من الحيوانات المنوية فى الوقت المناسب ليتم التلقيح والحمل .. صحيح انها لم تتصل بذكر من

الذكور ، الا أن هـذا ليس هامـا .. ذلك أن عمليـة النكـاح أو الاتصال الجنسى ــ المباشر وغير المباشر ــ وسيلة لا غاية .. فالغاية أو المراد أن تتقابـل الخلايـا الجنسية وتتحد ، سواء كان ذلك فى انبوبة اختبار أو فى رحـم انثى ، ولهذا فهو يختلف عن بيولوجيـة التوالد العذرى اختلافـا جوهريـا ــ فالتوالـد العذرى ــ كمـا سبق أن قدمنـا ــ يتم عن طريق بويضة لـم تتلقح ولـم تتقابـل بخليـة جنسية ذكريـة !

لكن التلقيح الصناعى ــ للاسف ــ قد ركن الذكر على الرف ، فمن الممكن « حلب » خلايـاه الجنسية وحفظهـا فى كبسـولات خاصة لتوزيعها على من يشئن من الاناث .. وقد تكون هذه الخلايا الجنسية لثور عظيـم فى أسوان ، أو حصان متين فى الشرقيـة ، أو كبش ذى صفات وراثية محمودة فى « زريبة » بأسيوط .. الخ ، ولكى نلقح بقرة فى لندن ، أو فرسة بباريس ، أو نعجة فى موسكو ، فان ذلك لا يستوجب شحن الذكور الى جميع أنحاء العالم بالطائرات أو الصواريخ أو غير ذلك من سبل المواصلات .. بل يكفى أن نأخـذ عدة قطرات من الحيوانات المنويـة للذكور ، ونحتفظ بهـا تحت ظروف خاصة ، ونصدرها لمن يشاء ، ونبعث بها لمن يريد .. أو قد يحدث ذلك أيضا مع الانسان ، فقد ترفض الزوجـة السفـر الى زوجهـا فى بلاد « واق الواق » على سبيل المثـال ، لانهـا لا تحب أن تعيش معه فى هذه البلاد ، وهى تريد أن تـكون أمـا ، عندئـذ قد يرسل لها طردا صغيرا به بعض خلايـاه الجنسية ، وبه يتـ المراد ، وتأتى الذريـة ، لكن ليس من الممكن أن يحدث العكس بمعنى أن ترسل الانثى بويضتها الى ذكرهـا ليحملهـا ويرعاهـ ويلقحها ، لان الرجال لا يمكن أن يصـيروا حبـالى بالاجنة ، لكن أحيانا ما تراهـم كالحبالى ، وما هم بحبالى ، ولكن اذلال الانثى لشديـد !

من أنثى الى ذكـر .. وبالعكس !

على أن أغرب الصور التى اكتشفها العلمـاء حديثـا توضح لنـا جزءا هامـا من سلوك الحيـاة مع اناثهـا ، وتحيزهـا لهـا تحيزا مكشوفـا ، بحيث يصبح المخلوق الذكر بين يديهـا لعبـة « كلعبة الستات » فى عالمنـا .. أو ربما أكثر اثارة وشذوذا .. فالانثى التى سنقدمهـا هنا قد تتحول الى ذكر تارة ، ثـم قد تعود سيرتها الاولى وتتحول الى أنثى تارة أخرى .. كل هـذا يعتمـد على الظروف « النفسية » التى تتعرض لها فى حياتها .. صحيـح انـه لا يوجد فى عالمهـا طبيب نفسانى ، أو جـراح ليجـرى لهـا عمليـة جراحية ، وبها يتحول جنسهـا من أنثى الى ذكر ، الا أن الصحيح يبدو لنا فى تلك الميكانيكيـة الحيويـة التى زودتهـا بهـا الحياة ، فتدوس على « الزرار » ، ويكون لها ما تريـد ، والى هنا تتضح لنا الحقيقة دون لف أو غلبة أو دوران .. فالانثى هى الاساس ، والذكر يأتى بعد ذلك ، ومنها يخرج ، وليؤكد لنا أن تحت جلد كل ذكر أنثى كامنة .. وربمـا ظهر هذا الكمون الانثوى بعد ملايـين السنين تحت جلد بعض فتيان هذا الزمان ، فتراهـم وقـد فضلوا التحلى ببعض صفات الانثى .. لكن دعنا من هذا الآن ، وسنعود اليه فيما بعـد لنوفيه حقه ، وان كان موضوعنا الذى سنقدمـه هنـا يلقى الضـوء على بعض ما يجرى عند فتياننـا ، ولكن بطريقـة معكوسـة !

يذكر دكتور روس روبرتسون من جامعة كوينزلاند بأستراليا ، حقائق غريبة عن بعض أنواع الاسماك التى تعيش فى مجموعـات صغيرة ، فلقد خرج منها بنتائج مثيرة بعد أن ظل يرقب ويـدرس ويتأمل سلوكهـا الذى يـؤدى أحيانـا الى تحويـل الانثى الى ذكـر !

ولناخذ منها النوع المعروف باسم سمك الراس The wrasse أو اللبروس .. وأحيانا ما يطلق عليها اسم سمكة النظافة أو المنظفة ، لانها تنظف جلود الاسماك الاخرى الكبيرة ، وتدخل الى أفواهها ، وتتجول بين خياشيمها ، وتلتقط منها الحيوانات الطفيلية الصغيرة أو بقايا الطعام ، أو بعض الانسجة الميتة ، وتتغذى عليها ، ومن هنا نشأت بين سمكة النظافة الصغيرة وبين بعض الاسماك الكبيرة علاقة منفعة متبادلة ، فالصغيرة اذا دخلت فم الكبيرة ، فان الكبيرة تحافظ عليها ، أو قد تحميها من مطاردة عدو أكبر منها وأقوى ، مقابل أن تقوم الصغيرة بدور « الماشطة » أو الممرضة أو المنظفة !

وسمكة النظافة رقيقة الحجم جميلة الالوان ، ولا يزيد طولها عن عشرة سنتيمترات ، وتعيش فى مجموعات يتراوح عددها ما بين ٨ ــ ١٠ أسماك ، ويصحبها دائما ذكر وحيد مشاكس ، وقد تؤدى مشاكسته الى قصف عمره . . فحياة البحار خطرة ، ولا بد لكل مخلوق أن يأخذ حذره ، فالكبير هناك يأكل الصغير . . وصاحبنا الذكر يريد أن يحمى « حريمه » الثمانى أو التسع أو العشر ، وعليه أن يقوم بالدفاع عنها ، ولهذا تراه يدور حولها ليثبت لها انه نعم الذكر حامى الحمى ، وقد تقوم المعارك بينه وبين الذكور الاخرى ، أو بينه وبين أكبر أنثى . . وهذه تتصرف كما تتصرف « المعلمة » من النساء التى تتشبه بخصال الرجال ، وسوف يتضح لنا ذلك فيما بعد !

لكن الظاهرة الغريبة حقا فى هذه المجموعات الصغيرة تتركز فى « المركز الاجتماعى » الذى تحتله كل أنثى . . فهناك تدرج فى الحجم والعمر بين الاناث . . فالحجم الصغير دليل على حداثة السن ، والمتوسط على وسطه ، والكبير على الكبر . . ولكل سن احترامها ، وقد تضحكون أو تمتعضون من هذا التعبير ، أو قد تتساءلون : هل يمكن أن يحدث ذلك فى مجتمعات سمكية لا تدرك ولا تعقل ، فيحترم صغيرها كبيرها ؟

وتلك هى عقدتنا نحن معشر البشر .. فلقد نظمت الامور بين مخلوقات هذا الكوكب أعظم تنظيم ، حتى قبل أن نظهر نحن بعشرات الملايين من السنين ، والواقع أن الانثى الكبيرة فى المجموعة ـ أى أكبرها حجما وسنا ـ هى سيدة الموقف ، لكنها قد توحى بطريقة غامضة للذكر بانه مخلوق مهم وشجاع « وراجل » فى المواقف التى تستحق التضحية ، وعلى هذا الذكر تقع مسئولية حماية الحريم ، فاذا تعرضت حياته للخطر أو مات ، فالى الجحيم .. فمن ورائه ذكر فى أنثى ، أو أنثى فى ذكر .. لسنا فى الواقع ندرى ، لكن الذى ندريه أن أكبر الاناث سنا وحجما تصبح الحاكمة والمسيطرة والحامية لمجموعة الاناث .. ولكى تعقد لها السيادة الحقيقية ، فلابد أن تتحول الى ذكر .. وللذكر مهام جديدة تختلف عن مهام الانثى .. أى عليه أن يدافع ويحمى ويصول ويجول ويظهر عضلاته أمام الذكور الاخرى التى قد تسول لها نفسها أن تعتدى على حريمه ، وهو ـ أى الذكر ـ يفضل الموت أو التحول الى أنثى على أن يحنى راسه لذكر آخر يعيش معه فى أرضه ومع اناثه .. كرامة نادرة لذكر سمك لا يدرك ولا يعقل ، وما أكثر ما تمتهن كرامات البشر !

لكن .. من الذى سيقوم بتلقيح الاناث فى غياب الذكر ؟

لا تحمل لذلك هما .. فالأنثى التى تحولت الى ذكر ستتكفل بالعملية .. ربما أفضل من الذكر الذى جاءته مصيبة فانتقل الى رحمة مولاه !

كيف ذلك يكون ؟

أن الذكر هنا يشبه فى الشكل والحجم واللون أكبر الاناث وأضخمها حجما ، بحيث يصعب عليك أن تميز الذكر من الانثى ، اللهم الا اذا لاحظت سلوك هذا أو تلك ، وعندئذ سترى الذكر

وقد خلع على نفسه مظهر الشقاوة ، وسمات الاقدام والجسارة، وحبه للسيادة .. اما بين حريمه ، واما على الذكور الاخرى التى قد تدخل فى مجاله .. أى انه يظهر عضلاته كما يظهرها ذكور الحيوان والبشر !

لكن هذا الذكر ؛ الذى كان من قبل أنثى وتحول الى ذكر ، قد يأتيه من هو أقوى منه وأشد ، فيخلعه من كرسى الرياسة ، وينتزع منه السيادة ، وعندئذ لابد أن يتخلى عن ثوب « الرجولة » الكاذب ، ويدخل من جديد فى عالم الحريم ، ويعود الى أنوثته ، فيحمل البيض ، وبضع الذرية .. وكما بدأ عاد !

والواقع أن سلوك هذه المجتمعات معقدة أشد التعقيد ، ولقد وضعت العلماء المهتمين فى حيص بيص ، فما هو الهدف الحقيقى من هذا التغيير والتبديل ؟ .. وكيف يتم بمثل هذه البساطة دون جراحة وتخدير ومستشفيات ودواء وأتعاب ؟

الاجابة على السؤال الاخير قد اتضحت من تشريح الاعضاء الجنسية لهذه الاسماك ، اذ تبين أن الاناث تحمل فى تكوينها غددا جنسية ذكرية ضامرة ، أى انها أسماك خنثى ، لكن أنوثتها هى السائدة بدليل انها تحمل مبايض كاملة التكوين ، ولها جهاز لوضع البيض وتلقيحه ؛ كما انها تدخل مع الذكر فى عمليات اخصاب جنسية .. وكلما تقدمت الانثى فى العمر ، كلما ظهرت عليها علامات الذكورة ظاهرا .. لا باطنا ، بمعنى انها تسلك سلوك الذكر فى حركاته وشقاوته وحبه للسيادة ، وقد تنافسه فى الرياسة ، ويحاول « السيد » أن يصد « السيدة » عن تطلعاتها « البرجوازية » ، فتظهر العناد ، وتدخل معه فى عمليات نزال .. وقد تخسر الانثى المحنكة المعركة ، فتبقى على حالها ، وقد تكسبها ، ويخسرها الذكر .. وعندئذ يتحول من خسر الى أنثى ، ومن كسب الى ذكر ، أى انه فى الوقت نفسه تتحول الانثى

الى ذكر ، والذكر الى انثى .. وسرعان ما تتولى الانثى التى أصبحت ذكرا أمور الحريم والدفاع عن حرمات البيت من الفضوليين فى غضون ساعات قليلة .. والواقع انها مارست تلك السيادة ، وعركتها عندما كانت تدخل فى صراع مع الذكر الذى كان يحكم ، ولهذا لن تجد صعوبة فى ادارة دفة مجتمعها الصغير ، ولها من قوتها خير سند ومعين ، وليوفقها الله فى ادارة عالم الحريم .. فكل من فيه يتطلع الى منصب الذكورة والسيادة .. « ولا أحد خير من أحد » .

فاذا تركنا عالم السيادة ، ودخلنا الى عالم الجنس ، لوجدنا أن الغدد الجنسية الذكرية الضامرة التى كانت فى الانثى قد بدأت تنمو ، فى حين أن الغدد الجنسية الانثوية التى كانت ذات يوم خصيبة قد أخذت تضمر بالتدريج .. وبعد حوالى اسبوعين أو ثلاثة تبدأ فى افراز حيواناتها المنوية ، وتكون بهذا ذكرا كامل التكوين ، قادرا على الاخصاب !

وقد يموت هذا الذكر الذى كان أنثى ، أو قد تأكله سمكة أخرى ، وعندئذ يخلو الميدان لأكبر الاناث وأقواها ، وتتولى بهذه أمور الزعامة ، فتضمر غددها الانثوية ، وتزدهر الذكرية وتصبح ذكرا قادرا على التلقيح والاخصاب ، وقد يأتيه ذكر متشرد من خارج أرضه ، فيستولى على حريمه ، وعندئذ يعود الذكر الذى كان أنثى .. الى انثى ، فهذا خير وأبقى !

أرأيت اذن مجتمعات أغرب من هذه المجتمعات ؟!

لكن الشىء المثير هنا أن تعريفنا للذكر هنا تعريف نسبى .. اذ لو تعمقت فى النظرة الى مثل هذه الامور لوجدت أن الانثى هى الاساس ، وأن الذكر يأتى فى مرحلة متأخرة ، أو كما يعبر عنها روبرتسون فيقول « يبدو أن كل الذكور مشتقة من الاناث » .. أو بمعنى أوضح نقول : أن الذرية الناتجة كانت كلها — فى البداية

اناثـا فى اناث ، ولابـد أن تمـارس أنوثتها أولا ، وتضيف الى هذه المجتمعـات مزيـدا من الذريـة (أى ذرية الاناث) ، وعندما ترتفع درجاتها فى المجموعة ، وتحس بقوتها وسلطانها ، فلا مانـع من السماح لها بالدخول الى عالـم الذكور .. وقد يـكون فى ذلك حتفها ، فتأتيهـا مصيبة تقصف عمرهـا أثناء الدفاع عن أرضهـا وحريمهـا !

ويبدو أن هذا الصراع الطبقى الجنسى ليس الا مظهـرا من مظاهر الاختيارالطبيعى .. فالقوى هو الذى يسود ، ولابد أن يتحول الى ذكر ، ليورث قوتـه وعناده الى الاجيال القادمـة ، فتقـوى شوكتها ، ويشبتد عود نوعها .. « ولكن أكثر الناس لا يفقهون »

ومع أن أسمـاك الـرأس أو النظافـة قـد حلت مشاكلهـا الجنسية ، الا أن المشكلة الحقيقية ــ أو ربما لا تكون مشكلة على الاطلاق ــ هى التى تجابـه نوعين من الاسماك يعيشـان بالقـرب من سواحل المكسيك ، ولقد ظـل جاك شلتز من جامعة كونيكتيكات يرقب سلوك هذه الاسماك ، ويدرس تحركاتهـا ، ويعيش سنوات طويلة مع مجتمعاتها ، حتى توصل الى سر غـريب نشره فى العـام الماضى فقط ، وفيه يذكر أن النوعين (وهما المولى وبيسيليوبسيس) لا يعرفان شيئا عن عالم الذكور ، ولا ينجبـان فى ذرياتهمـا ذكـرا واحدا ، واذا أراداالخصابـا ، فانهما يسطوان على ذكور جماعـات أخرى من الاسماك قريبة الشبه بنوعهما ، ويخطفان ذكرا أو أكثر ، ويحتجزانـه ، ليلقح بويضاتهـا ، ثـم يخليان سبيله بعد أن ينـالا مـا يحقق رغبتهمـا فى ذريـة تأتى كلها اناثـا فى اناث !

صحيح أن اتصال الذكر بالانثى يؤدى غالبا الى ذرية من ذكـو واناث ، لكن هذين النوعين قد ضربـا بقوانين الوراثة التى نعرفهـ عرض الحائط .. الا أننـا لو عرفنا السبب ، لبطـل العجب .. أو ربما زاد عجبنا ونحن نكتشف كل عـام اسرارا ما كانت لتخطر لنا على بال ، ثم انها قد تنير لنا الطريق لبحوث أكثر عمقـا !

لماذا اذن حلت لعنة هذين النوعين من الاناث بالذكر ؟ .. هل هما عدوان للذكور كارهان لهـا ، فشطبا خلفتها من ذرياتهما ؟ .. ثـم اذا كانا فى حاجة الى ذكر لاخصاب بويضاتهما ، فلماذا لا ينتجانه بدلا من السطـو على ذكور الأنواع الاخرى وخطفهـا ؟

الواقع أن السر أعمق من ذلك بكثير . . فالاخصاب هنا اخصاب كاذب .. بمعنى أن الخلايـا الجنسية لهـذه الذكـور لا تشـارك مشاركة فعالة فى عمليات التلقيح ، اذ لو شاركت ، لأنتجت ذريـة من الذكـور والاناث !

كأنما السر يزداد غموضـا ، وما هو ــ فى الواقع ــ كـذلك ، فلقد سبق أن ذكرنـا أن التوالد العذرى قـد ينشأ فى البويضات غير الملقحـة عندمـا تتعرض لعوامل طبيعية وكيميائيـة وبيولوجية لتحثها على التكاثر ، وعندئذ تبـدأ فى الانقسام والتكاثـر دون تدخل الذكور فى ذلك ، والشيء نفسه يحدث مع بويضات هذين النوعين من الأسماك ، فالحيوان المنوى للذكر المخطوف لا يقـوم بالتلقيح التقليدى ، ولكنه يدخل البويضة كعامـل بيـولوجى ليطلق فيهـا القذيفة الحيوية ويستحثها على التكاثر ، وفعلا تبدأ فى الانقسـام والتكاثر لتتكون منها الاجنة والمواليـد التى تحمل صفات الانثى ، ولا تحمل شيئا من صفات الذكـر .. أى انهـا بالتأكيد بنـات أمهاتهـا ، وليس للذكر فى ذلك نصيب ، ومن هنا كان لابد أن تـأتى الذريـة كلهـا اناثـا فى اناث !

وهكذا يتبين لنا أن ما كان يقـوم بـه العلمـاء فى معاملهـم لحث البويضات على التوالد العذرى ، قد أصبح لـه فى الطبيعة قرين ، ولقد أعطتنا الاسماك هذا الدليـل العظيـم ، ولا جـديد تحت الشمس ــ كما يقولون

الانثى أولا من فضلك ، وليأت الذكر بعد ذلك أو فليذهب الى الجحيـم !

مأساة الذكور

فليسقط الذكر .. ولتحيا الانثى !

شعار جديد من الشعارات التى رفعت الحياة لواءها ، لتقدم لنا صورا غريبة من المآسى التى تتعرض لها الذكور ، ولتجعلها سخرية أمام اناث العالمين !

ولكى نوضح معنى ذلك ، دعنا نبدأ أولا بأنفسنا .. ليس على مستوى الفتى والفتاة ، أو المرأة والرجل ، أو الذكر والانثى عموما .. لكن على مستوى خلايانا الجنسية !

فاذا كان عالم الذكور « بريالة » .. فان عالمها الصغير بذيول !

فما أن تظهر مفاتن الانثى أمامنا ، حتى يسيل لها لعابنا ، فتشتغل الغدد ، ويشتعل الجنس ، وغالبا ما نضعف ونستجيب ، « الا من رحم ربى » .. وهنا تبدو لنا المرأة كمخلوق جميل وبديع وجذاب ، أو كأنما هى جنة الحب ، وفردوس السعادة ، فاذا ما دخلناها ، زهدنا فيها ، ولكن بعد أن تنساب منا خلايانا الجنسية ، فيتحول كل شىء فى لحظات .. الرغبة القوية الى جمود ، والحب الى خمود ، والايجابية الى سلبية ، وقد نلعن أنفسنا على « هبالتنا » ، وقد نرثى لحالنا ، ونتعجب كيف سالت « ريالتنا » ، وجرى لعابنا .. لكن هكذا شاءت الحياة وقدرت ومن وراء ذلك هرمون عجيب يقلب كياننا ، ويجعل الانثى حلوة أعيننا ، ولهدف عظيم يتركز فى لقاء بين خلايانا وخلاياها الجنسية. وليكون فى ذلك استمرار النوع وازدهاره عن طريق انجاب مزيد من الذرية !

لكن يبدو أن فى الامر « خيارا وفقوسـا » حتى لو كـان ذلك على مستوى الخلايـا الجنسية .. فالخيار هو بويضة الانثى ، والفقوس هى خلايانـا الجنسية الذكريـة ، أو حيواناتنـا المنوية التى نطلقهـا بمئات الملايين ، فتموت دون حس أو خبر ، فى حين أن بويضة الانثى اذا ماتت دون تلقيح ، أقيـم لموتهـا مهرجان دموى حزين ، قد يستمر لأيام أربعة أو خمسة ، أو مـا فوق ذلك أو دون ذلك ، وهذا ما نعرفـه بالطمث أو الدورة الشهريـة عند الانثى .

كأنمـا خلايانـا الجنسية رخيصة ، وخلايا الاناث ثمينة .. نحن نسرف ، وهن المقتصدات (ربما كان هـذا هو الشيء الوحيـد الذى تقتصد فيه الانثى وتقتر) .. ذلك أن الانثى تفرز ــ فى أغلب الاحيان ــ بويضة واحدة فى الشهر الواحد يقابلهـا عشرات البلايين من الخلايا الذكريـة شهريـا .. ذلك أن الذكر منا يقذف فى المرة الواحدة حوالى ٢٥٠ مليون خلية جنسية .. قدرها بعـد ذلك فى شهر كامـل ، تخرج بأرقـام هائلة تزيـد كلما زادت فحولة الذكر ، وهـذا يعنى أن الاسراف قـد كتب علينـا ، وكـان التقتـير من نصيبهن .

لكن الاحداث التى تجرى فى عالمنـا الكبير ــ عالـم الافراد ، هى نفس الاحداث التى تجرى بين بويضة وحيوان منوى فى عالمهـا الصغير .. وان اختلفت بعض التفاصيل !

فالذكر منـا هو الذى يسعى غالبا الى الانثى ، وهـو الـذى يبحث عنهـا بوسائله الخاصة ، وهو الذى يتودد اليهـا ، ويسيل لعابـه عليها .. وكذلك يفعل الذكر الصغير ــ اى الحيوان المنـوى الذى جاء الى الحياة برأس وذيـل .. وغريب أن تكون بداياتنـا نحن معشر الذكـور بذيـول .. فالحيـوان المنوى هـو ممثلنـا الشخصى ، وهـو الـذى يحمـل صفاتنـا الوراثيـة فى رأسه ، أمـا الذنب أو الذيـل فهو الذى يحركه ، ليبحث بدوره عن أنثـاه

الصغيرة .. عن بويضته الكامنة فى خدرهـا او عشهـا الصغير ..
وهى لا تخرج من بيتهـا (أى من المبيض) هكذا اعتباطـا كما هـو
الحال فى خلايانا الجنسية نحن معشر الذكور ، بل نراهـا وكأنمـا
هى تخرج على استحياء ، ثـم تحاط بعـد ذلك بصويحباتها التى
تتمثل لنا فى خلايـا أخرى صغيرة يطلق عليهـا اسم خلايا التـاج
أو التتويج ، ويعنى هذا انهـا قد جاءت الى الحياة معززة مكرمة ،
تمامـا كما تخرج العروس من بيت أهلهـا أيضا معززة مكرمة ،
ثـم نراهـا ترفل بين صويحباتها فى ثياب زفافهـا !

وتبدأ رحلـة عروسنا الصغيرة من مبيضها بطيئة للغايـة ..
فهى لا تجرى ولا تتهافت على عريسها أو عرسانهـا ـ كما يفعـل
ملايين المهابيـل من ذوى الذيـول .. فعلى هـؤلاء أن يضربـوا
بذيولهـم ، وأن يجروا فى سباق مريـر ، وكل حيوان منوى يمنى
نفسه بلقـاء الحبيبة ، ولينطلق فى رحلته ليكون أول الواصلين ،
وكأنما هو الاخر « بريالة » كأى فرد فى عالم الذكـور الكبار !

ويبدو أن الحياة قـد وضعت قانونـا أزليـا للتنافس بـين
المخلوقات ، حتى ولو كـان ذلك على مستوى الخلايـا الجنسية ،
وكأنما قصة ملكة النحل تتكرر مرة أخرى ؛ فلقـد قدمت لها الحياة
مئات الذكور ، ولن يصيبهـا منهـم الا واحد ، أمـا البقية فالى
الموت والجحيم .. وكذلك تكون بويضة أنثى الانسان والحيوان ،
فمن أجل خاطرهـا انسابت مئات الملايين من خلايانا الجنسية ،
وهى تنتظر منها حيوانـا منويـا واحدا ، فاذا وصل وسمحت لـه
بالدخول ، أسرعت بغلق الابواب فى وجه الملايين ، وليذهبوا أيضـا
الى الجحيـم ، فلا شك أن الذى وصل أولا هو اقواها واشدها ،
وهو الذى عرف الطريق الى قلبهـا ، ولهـذا فهى حلال عليه ،
وحرام على الآخرين وجميل جدا الا تقبل بويضاتنا الا ذكرا واحـدا
ففيه الكفايـة ، والا كانت الفوضى ، وما أكثر الفوضى التى يعيش
فيهـا اصحاب العقـول !

لكن .. لماذا هذا الاسراف فى خلايانا نحن معشر الذكور ؟

لأن هناك متاهات كثيرة فى الداخل .. فحجم رحم الانثى بالنسبة لحجم الحيوان المنوى كحجم انسان بالنسبة لمدينة كبيرة .. وقد تكون فى هذه المدينة أنثى وحيدة مختبئة فى مكان أمين ، وهى لا تريد أن تظهر على الرجال ، وكلما كثر عددهم ، وانتشروا فى المدينة طولا وعرضا ، كلما كانت الفرصة متاحة فى العثور عليها فى وقت قصير .. وكذلك تكون البويضة فى داخل الانثى .. فعمرها لا يتجاوز ٤٨ ساعة ، ولابد أن تنطلق الملايين من خلايانا الجنسية لتبحث عنها فى تلك المتاهات ، حتى تهتدى اليها قبل أن تموت .. وكلما كثر العدد ، كان الاخصاب أكثر احتمالا .. ومن هنا كانت الحكمة فى افراز أعداد هائلة من خلايانا .. اذ لو اطلعت عليها وهى تسبح بذيولها ، لوجدت مهرجانا راقصا يندفع هنا وهناك ، وكأنما الدنيا قد دانت لهم ، أو كأنما قد خرجوا من ضيق الى فرج ، وانطلقوا نحو هدف محدد .. فاما موت ، واما حياة !

وحول البويضة تطوف حيواناتنا المنوية ، والكل يتنافس ليقبل « أعتابها » ، علها تسمح له بالدخول ، ولكنها لا ترق ولا تحن ، وكأنما هى وضعت على جدارها اعلانا غير مكتوب يقول « ممنوع الدخول » .. فلقد قبلت أول الواصلين ، وغلقت دون غيره الابواب !

لكن دخول عريسنا الصغير بعروسه البويضة ليس بالسهولة و السذاجة التى يدخل بها البشر على عرائسهم .. فهناك سلسلة ن الاحداث البيولوجية الهامة التى يجب أن تتم بين البويضة الحيوان المنوى .. أهمها ــ بطبيعة الحال ــ أن يبرز حيواننا لمنوى « بطاقته الشخصية » التى يحملها على عمامته أو قلنسوته أو « لبدته » أو طاقيته .. تعددت الاسماء ، والشىء واحد !

لكن .. أية عمامة او طاقية تلك التى يلبسها حيواننا المنوى ؟ .. ومن أين يحصل على بطاقته التى يثبت بها شخصيته لعروسه حتى تتكرم وتسمح له بالدخول ؟

الواقع أننا لسنا وحدنا على هذا الكوكب .. فالذين يدرسون ويتعمقون فى أصول الخلق ، تتجلى لهم العظمة الحقيقية فيما خلق الله فأبدع ، وفيما سوى فأتقن ، ليجىء كل شىء الى الحياة على حسب خطط موضوعة ، وأسس موزونة ، فلا نرى فيها خللا ولا فروجا .. وهكذا يتبين لنا ولكم « انا كل شىء خلقناه بقدر »

فالبطاقات الشخصية التى تمتلكها الخلايا الجنسية ليست مكتوبة بحبر ، ولا مخطوطة على ورق ، ولكنها معلومات مسجلة بمركبات كيميائية خاصة لتتداخل مع بعضها بطريقة فذة ، فتؤدى الى نسيج كيميائى بديع ودقيق تتفاوت طبيعته، ويختلف تنظيمه على حسب نوع المخلوق الذى يفرز من خلاياه الجنسية ما يشاء ، ليطلقها فى الهواء أو الماء أو الطين أو فى رحم أنثى ، كما هو الحال فى الحيوانات الثديية التى ننتمى اليها !

صحيح أننا نحن معشر البشر نعرف تماما كيف نفرق بين الذكر والأنثى فى عالمنا ، فمجرد همسة تلتقطها الاذن من بعيد توضح لنا ان كان صاحبها ذكرا أو أنثى .. كذلك يعرف القرد قردته ، والحمار حمارته ، والكبش نعجته ، والحصان فرسته والخنزير خنزيرته .. الخ ، لكن هناك عالما آخر لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم ثم هو أيضا يطلق خلاياه الجنسية فى الماء أو الطين ، لتهيم على وجهها ، باحثة عن بويضاتها .. لكن البويضة قد تستقبل حيوانا منويا شاردا لا ينتمى لنوعها (كما يحدث مثلا فى الكائنات البحرية والمائية التى تطلق خلاياها الجنسية فى الماء) فتصده وتمنعه من الدخول ، فى حين أنها

تتعرف على « عريسها » من خلال بصماتــه الكيميائية المنسوجــة على جداره ، والتى تتوافق تماما مع بصماتها ، وهنا يحدث التفاهم والانسجام والدخول دون ضجة أو غلبة أو ضوضاء .. وهكذا نظم الخالق الأمور العظيمة لكل المخلوقات ــ صغيرها وكبيرهــا ، وجعل بينها لغــة كيميائية تتفاهــم بهــا ، وكأنما هى شفــرات سريــة لا نعرف من مضمونهــا الا أقل القليــل .. فالظاهــر غير الباطن ، « ولكن أكثر الناس لا يعلمــون » !

فلو أن الحيوان المنوى لانسان ، قد تقابل فى أنبوبــة اختبار مع بويضة أنثى قرد أو حمــار ، لما سمحت له بالولوج وكأنما لسان حالهــا يقول « لست أنت من نوعى ، ولا أنا من نوعك ، وخــير لك أن تنطلق لتبحث لك عن بويضة من نفس ملتك .. قضى الامــر ، وأوصدت الابواب فى وجهك » هذا يحدث بالرغــم أن ذلك العالــم الصغير من الخلايــا الجنسية (الممثلة للذكور والانــاث فى عالمهــا الكبير) لا تعــرف شيئــا عن معنى « نظــرة .. فابتسامــة .. فسلام .. فكلام .. فحب .. فمأذون * . فزواج .. فانسجام أو خصام » .. الخ ، ومع ذلك فهى المسئولــة اولا وأخيرا عن انتاج « سبيكة » جديدة من الذرية ، بعملية خلط بين صفات وراثيــة مسجلة فى داخلهــا بشفرات كيميائية !

وعندما يحدث اللقــاء بين الخلية الذكرية والانثوية فى عالم الانســان والحيوان ، تبــدأ سلسلة من الأحداث الهامة .. فلقــد جاءت العروس الصغير أو البويضة العذراء الى الحياة وهى تدثر نفسها برداء من فوق رداء من فوق رداء .. اردية ثلاثة تحافظ بها

(*) المأذون هنا ليس عنصراً بيولوجيا هاماً .. فن الميسور جداً أن يتحد الحيوان المنوى بالبويضة فى الرحم أو فى أنبوبة الاختبار دون أن يستأذنا المأذون أو القس أو الحبر فى ذلك .. فمهمة المأذون هنا أن يشهر النكاح على الملأ على حسب الشريعة .. وكل جماعة وشريعتها فى ذلك .

على مكوناتهــا الداخليــة .. وكــل رداء مطرز بجزيئات كيميائية مختلفة ، وكأنمــا بويضتنا كحواء الكبيرة ، تهوى الملبس ، وتحب الاقتناء ، الا أن الأردية الثلاثــة لبويضتنا تبدو للعقل البشرى بمثابة ظلمات ثلاث .. لأن حياكتها وتطريزهــا بجزيئات كيميائية تتخــذ أنماطا لا تستطيع عيوننا أو عيون ميكروسكوباتنــا أن تراهــا على حقيقتهــا .. صحيح أننا نعرف أنواع الجزيئات بطرق التحليــل الكيميائى ، لكننا لا ندرك كيف بنيت وانتظمت فنظامهــا يقع فيما وراء حدود الميكروسكوبات الاليكترونية .. لكن الذى يهمنــا هنــا أن بويضة كل نوع من أنواع المخلوقات قد قامت بتطريــز جدرهــا أو أرديتهــا الرقيقة جدا على هواهــا ، لتكون بمثابــة علامــات مميزة لتهتدى اليها الحيوانات المنوية ومن خلالها تتفاهم !

ولقد جاءت الخلايــا الذكرية هى الاخرى وهى تلبس طواقى على رؤوسها ، لكن الطواقى تختلف باختلاف أنواع المخلوقات .. هى فى الحيوان المنوى للانسان مثل « لبدة » الصعيدى (طاقيــة مستطيلة قليلا وبيضاوية من أعلى) وفى الفئــران كالمنجــل ، وفى الديوك كالقرطاس أو الطرطور ، وفى قنافــد البحــر « الرتســا » كالــــرمح ، وفى الصراصــير كالمخــــروط .. الــخ ، وهكـــذا صممت الحياة لكــل عريس طاقيته ، لا ليتعاجب بها ، أو لتتغنى بهــا عروسه كما نسمع ذلك فى أغانينا الساذجــة التى لا طعــم لها ولا معنى ، ولكن لتؤدى مهمتهــا فى التعــارف ، ولتــكون بمثابــة البصمات الكيميائيــة التى تشتغــل كلغــة سريــة لهــا معناهــا ومغزاهــا !

وعندما تقترب الحيوانات المنوية من بويضاتها ، نراها وقد استبدت بها موجة من النشاط والحيوية ، وكأنما هناك شىء قد لعب برؤوسها فأثارها ، واشعل فيها ثورة عارمة ، كالتى تحــدث لنــا نحن معشر الذكور الكبار عندما نجتمع باناثنا ، ويعتقــد العلمــاء أن المسئول عن ذلك هى بويضتنا الصغــيرة ، لانهــا عندمــا تحس

بمقدم عرسانها ، تطلق مادة أو عـدة مواد كيميائيـة بتركيـزات ضئيلة للغايـة ، وكأنما هذه المواد بمثابة العطر الحريمى الـذى يسيل له لعاب الرجـال ـ مع فارق واحـد ـ ذلك اننا نحن معشر الذكور ندفع ثمن العطور .. لكن عطر البويضة طبيعى ، وبه تشعل الثورة فى حيواناتنـا المنويـة ، لترقص حولهـا كالمهبولـة (نفس هذا المنظر قد يحدث فى صالات الرقص والدافع له انثى لعوب) .. وهكذا يكون حال عالـم الذكور على مستواه الصغـير والكبـير ، ولتسعد الانثى بما خططت ، ولتلعب بعقولنـا تـارة ، كمـا تلعب بويضتهـا بحيواناتنـا المنوية تارة أخـرى .. ومسكـين عالـم الـذكور !

ولكى يدخل العريس ذو الطاقية بعروسه أو بويضته ، كـان لابـد أن يخلع لباس رأسه أو « عمامته » .. ليس ذلك ـ بطبيعة الحـال ـ نوعـا من الذوق أو « الايتيكيت » كالذى نراه مثـلا فى عالمنـا الكبير ، ولكن الحقيقة أن العروس الصغير هى التى تقـوم بتمزيق الطاقية وهلهلتهـا واذابتهـا لكى يدخـل صاحبنـا الى دنياه حاسر الرأس .. وهو لا يستطيع أن يدخل برأسه فى عروسه الا اذا تحطمت الطاقية لتتحرر من تحتهـا « المفاتيح » الكيميائية (أو الانزيمات أو الخمائر) التى تبـدأ فى فتح أو تمزيق أرديـة العروس فى الموضع المهيـأ للدخول ، وهنـا تستجيب البويضـة لحيواننـا المنوى ببروز صغير يطلقـون عليه اسـم « مخـروط التلقيح » ، ويستجيب هو لها أيضا ببروز ، وكأنمـا البـروزان بمثابة الشفاه التى تمتد وتتقابل فى قبلة طويلة ، والى هنا تظهر على مكونات بويضتنا رعشة نشوانة تستمر حوالى ٢٠ ثانية ، وكأنما اللقاء قـد زلزل زلزالهـا !

وحيث يتقابل البروزان ويلتحمـان ، يتمزق الغشـاءان ، ليصبح لكـل غشاء طرفان متحرران ، ثـم نلحظ بعد فترة لا تتعدى دقيقة واحدة ترابط أطراف الاغشية الممزقـة .. الطرفان الممزقان

لغشاء البويضة يلتحمان بالطرفين المزقين لغشاء الحيوان المنوى ، وكأنما الرداءان قد حيكا فى رداء واحد ، فيصبح هذا لباسا لتلك ، وهنا تكون البداية فى التحام الكيانين فى كيان واحد ، واندماج الجسدين الصغيرين فى جسد واحد ، مصداقا لقوله تعالى « هن لباس لكم ، وانتم لباس لهن » ، وكأنما ما يجرى فى عالم البشر له جذور أعمق وأروع فى عالم الخلايا الجنسية، لتكون بمثابة أزواج توفق بينها خطة عمل ما أعظم أسرارها ، وما أعمق الغازها !

والذكر منا نحن معشر البشر يعتبر حرا طليقا ، الى أن تحتوته الزوجة فى بيتها ، فيستقر ويستكين ، ويحمد الله على ما آتاه ، ولابد للزوجة أن تسير على حكمة مدهشة ومثيرة للمخ والاعصاب حتى لا يفلت منها طيرها (أى زوجها) .. وذلك مصداقا لقولهن « قصقصى طيرك ، ليلوف * بغيرك » .. بمعنى آخر «تنحل وبره » أن كان له وبر .. فبئست الافكار .. افكار البشر !

لكن .. ما الذى دعانا الى ذلك ونحن نتحدث عن مصير خلايا جنسية ؟

لان بويضتنا ــ أو حواءنا الميكروسكوبية ــ تسير على المنوال نفسه .. فهى تقوم بقطع رقبة عريسها ، وتفصل ذيله عن رأسه ، أى انها « تقصقصه » بطريقتها الخاصة ، ثم تسحب رأسه ، وتحتويه فى داخلها .. أضف الى ذلك انها جاءت الى الحياة بحجم يفوق حيواننا المنوى بمئات المرات ، وهى لا يهمها منه الا الرأس ، وفى الراس تتكدس خطة العمل ، وفيها كل الخير .. لانها بمثابة مخزن كيميائى يحتوى على الشفرات الوراثية التى

(*) أى يتآلف بغيرها فيهجرها .. وهذه أمثال عامية أو بلدية .. وعليك أن تهملها أو تستطعمها .. انت حر طبعا !

تضمنت بلايين المعلومات ، وهذه تندمج مع معلوماتهــا ، وعندئــذ يحدث الاخصاب ، وتترجم الشفرات الى مخلوق أيا كــان نوعــه وصنفه وحجمه .. ثــم يأتى الى الحيــاة ليلعب نفس اللعبــة من جديــد !

لقــد امتلكت البويضــة حيواننــا المنــوى ، واحتوتــه فى عشهــا ، تماما كما تمتلك الاناث ذكورهــا فى عش الزوجية .. ولقد ذاب صاحبنا فى كيانهــا ، وما عــاد له من أثر يذكــر ، وبقيت هى لتواصل الحياة بعد أن حصلت على نصفهــا الآخر ، وليكــون من وراء ذلك بعث لحيــاة جديدة قادمــة !

وهكذا يسعى ذكرنا الصغير الى نهايته ، لتبدأ بهــا بدايــة العروس فى الحيــاة ، فاذا لم يصلهــا العريس فى غضون يومين ، ماتت كخلية بكر لــم يمسسهــا ذكــر ، وعندئــذ تصبح أرديتهــا الثلاثــة بمثابة كفنهــا ، وتقــام المراسم الدمويــة لعدة أيــام ، ثــم تخرج مع دمــاء الحيض ، فى حين أن مئات الملايين من حيواناتنا المنوية تتبعثر هنا وهناك كشيء رخيص لا ثمن ولا تسعيرة !

واذا كان ذلك يحدث فى الانسان الــذى يعتبــر نفسه قمــة التطور والخلق على هذا الكوكب ، فان مأساة أخرى قد حلت بذكور الميكروبات التى ظهرت على الارض قبل أن نظهر نحن عليهــا بمئات الملايــين من السنــين .

ففى بعض انواع الميكروبات (البكتيريــا) تتواجــد خلايــا ىيدة .. الخلية بمثابة كائن حى مستقل ، فهى تتغــذى وتتنفس مو وتنقسم وتخلفهــا ذريــة من خلايــا .. صحيح انهــا ضئيلة ـة الضآلــة ، ولا يمكن رؤيتهــا الا بواسطة الميكروسكوبات ، انــه يجب علينــا الا ننسى أن بدايتنا الحقيقيــة كانت أيضــا من ا ميكروسكوبية تتمثل لنا فى حيوانات منوية وبويضات تسبح نحرك كالميكروبات ، وعندمــا تنقسم البويضة بعد التلقيح ، فان

الخلايـا الناتجـة من انقسامهـا لا تنفصل كما هو الحال فى الخلايا الميكروبية ، بل تتجمع فى كتلة صغيرة ، ثم تكبر الكتلـة بمزيـد من الانقسام ، وتتميز الى خلايـا مختلفـة ، لتؤدى الى تكوين انسجة فأعضاء فمخلوقات متكاملة .. منها الذكر ، ومنها الانثى .. وكذلك يكون الحال فى بعض الميكروبات ، فمنها الميكروب الذكـر ، ومنهـا الميكروب الانثى ، الا أننـا لا نستطيع أن نميز الخليـة الميكروبيـة الذكريـة عن الخليـة الانثويـة الا اذا حـدث بينهمـا الاتصـال والتزاوج .. فعندما ننظـر تحت عدسـات الميكروسكـوب نلحظ خليتين متصلتين .. أحداهمـا فارغـة ، والاخـرى مشحونـة ، فأمـا الفارغـة فلابـد أن تكون ذكرا (فالذكر هو الذى يعطى ويقدم دائمـا ، وهو الذى يجب أن يفـرغ من حياته ويموت أولا) ، وأمـا التى امتلأت واكتنزت فهى الانثى طبعـا .. فلقد أعطاهـا الميكروب الذكر كل شىء فى جسيده الدقيق ، وأصبح خالى الوفاض ، محروما من الحياة .. اذ كيف يحيـا بعد أن منحهـا كـل مـا يملك من مادة حياتـه ؟

والى هنا يتجلى لنا تحيز الحياة للانثى بأعظم معانيه .. فلقد شطبت حياة الذكر ، لتكون كلمة فى حيـاة الانثى .. وبهـذا اختفى هـو ، وبقيت هى !

فاذا تركنـا عالم الميكروبات ، وصعدنـا فى سلم المخلوقـات ، لقابلتنـا مجموعـة أخرى من الكائنـات تعـرف باسـم الطحالب الخضراء ، وهى تعيش أساسا فى الماء ، وقد تتكاثـر مجموعـات دقيقة منهـا تكاثرا سريعـا ، بحيث تكسب المـاء لونـا أخضر ، وقد نلحظ منها بالعين المجردة نوعـا خيطيا محددا يعـرف باسـم طحلب « سبيروجيرا » Spirogyra .. وهـذا الطحلب يظهـر فى المـاء كخيوط خضراء تتماوج معه كما تتماوج شعور الشقـراوات عندما تداعبهـا النسمـات .. المهـم أن طحلبنـا الخيطى الأخضر هذا بسيط التركيب ، فهو يتكون من خلايـا متراصة كما تتراص

« كعوب » القصب أو عقله فى أعوادهـا .. ورغـم أن هذه الخيوط الطحلبية فيها ايضا الذكر ، وفيها الانثى ، الا أننـا لا نستطيع أن نميز بينهمـا الا اذا حدث التزاوج

فأحيانـا ما نرقب تحت عدسات الميكروسكوب خيطين وقـد امتـد أحدهما بجوار الآخر ، واستكان بجانبـه ، وتبـدأ الخلايـا المتراصة فى تكوين بروزات صغيرة كالحلمـة ، ثم تمتد البـروزات الى الخارج وتبرز حتى تتقابـل مع البروزات التى كونتهـا خلايـا الخيط الآخـر ، وبعد أن يذوب الحد الفاصل بين هـذا البـروز وذاك يحدث شيء غريب ، ومنه ستعـرف من هو الذكـر ومن هى الانثى

فاذا فحصت ورأيت خيطا شفافا ليس به من مكونات الحيـاة شيئـا مذكـورا ، فاعلـم انـه ذكـر ، واذا رأيت الآخـر حيـا ومكدسـا بمـادة الحيـاة ، فاعلـم أنـه أنثى .. فلقـد انتقـل السيتوبلازم بما حوى من الذكر ليصب فى الانثى ، كما ينتقـل مثلا كـد الرجل وخيره ليصب فى بيتـه .. بيت الانثى ، مـع الاختلاف طبعا بين سلوك طحلب وانسـان !

كأنما جسم الذكر قد تحول كله الى خلايـا جنسية لتنتقـل الى جسم الانثى ، ويبقى هو على هيئة خاويـة كجلد ثعبان فارغ بعد انسلاخه ، وقد يعتـرض البعض على ذلك ويقـول ، ولمـاذا لا نفترض العكس ؟ .. بمعنى أن مكونـات الخيط الانثوى هى التى تنتقل الى الخيط الذكرى ، فيحيا هو ، وتنتهى هى ؟ .. والجواب لا يحتاج الى فراسة ، ففى الطبيعة ــ كما نراهـا وندرسهـا على مستواهـا الصغير والكبير ــ نلحظ دائمـا أن الذكـور هى التى تعطى ، والاناث هى التى تأخـذ ، ولـم يحدث أن انتقلت الخلايـا الجنسية من الانثى الى الذكر ، والا لكانت الكارثة ، ولأصبحنـا نحن معشر الذكور حبالى !

ثـم نـرتفع فى سلم المخلوقـات درجة فدرجـة ، فتقابلنـا

كائنات اعقد فأعقـد ، وفى حياتهـا أمور يجب أن نحـزن لها نحن معشر الذكور .. فعندمـا يبلغ الذكـر ويصبح يافعـا ، يبـدأ فى تكوين أكياس صغيرة مكدسة بخلاياه الجنسية ، وهـذا يعنى أن اجله قد دنـا ، فبمجرد أن تنطلق خلايـاه المنويـة فى الماء بالملايين والبلايين ، نراه يضعف ويتهـاوى ويمـوت ، وتسبح الملايين التى خرجت هنا وهناك ، حيث تبحث عن أنثى من نفس نوعها لتلقحها ، وطبيعى أن يتوه من الخلايا الذكرية الكثير ويضل الطـريق ، ومن ضـل ، فعليـه اللعنة .. وما أكثر الضالين ! تماما كما يحـدث ذلك ايضا مع خلايانـا الجنسية الذكرية .. لا فرق هنا بين ذكـر وأنثى يسكنان بركة من مـاء وطين ، أو غيرهمـا ممن ينـام على فراش وثير .. المهم أن تعيش الانثى بعد موت الذكـر ، لتحتضن الأجنة وترعاهـا ، ما لـم تأتهـا كارثة تأخذهـا بما حملت !

وعلينا بعد هذا أن ندرس حالة وردة أو زهرة فى عالم النبات ، فالزهرة بمثابة عش الزوجية الذى يجتمع فيه الذكر بالانثى ــ تعنى الاعضاءالذكرية والانثوية .. فلو فحصنا زهرة فحصا دقيقالوجدناها تتركب من تخت وفوق التخت يتواجد الكأس ، ومن داخـل الكأس وريقات زاهية الالوان ، بديعة التنسيق والجمال اسمها البتلات ، وهذه تحيط بالذكر والانثى وكأنهما فى « كوشـة » كالتى يصنعهـا البشر .. صحيـح أن « الكوشة » فى حيـاة البشر لـن تقـدم ولن تؤخـر ، ولكنهـا فى حياة الزهرة قد تلعب دورا هاما .. ثـم نرى من داخل البتلات أو « الكوشة » محاور صغـيرة كالخيوط ، وفى نهايتهـا العليـا تتواجـد أكياس ، وفى داخل الاكياس ملايـين من حبوب اللقاح ، وعندمـا تنضج الاكيـاس تتفتح ، وتنطلق منها الخلايـا الذكرية (حبـوب اللقـاح) .. فتذروهـا الريـاح ، تلتصق بالحشرات التى تزور الزهور ، لتنقلها من زهرة الى زهرة ليكون التلقيح المختلط الـذى تباركـه الطبيعـة (وهـذا يعنى ان أعضاء الزهرة الواحدة لا تلقح نفسهـا) ، ولقـد صممت الامـور بمواقيت معلومـة حتى لا يحدث التلقيح الذاتى .. لكن كل هـذا

لا يهمنا بقدر ما يهمنا أن نعرف أن زواج الاقارب غير مستحب .. وسلوك الزهور خير شاهد على ما نقول !

لكن .. أين توجد الاعضاء الانثوية ؟

انها لا تكاد تظهر أو تبين ، فهى هناك فى مكان أمين .. فى قاع الزهرة ، حيث تختبىء بعيدا عن الانظار ، وحولها تتوزع أعضاء الذكور ، وتحيط بها كاحاطة السوار بالمعصم ــ تكريم جديد وغريب لمبيض زهرة فهى لا شك فى الحياة غالية ، كما انها لا تترك مكانها ، بل تبقى فيه مصونة ، وعلى حبوب اللقاح أن تتوزع وتنتشر وتطير بالملايين والبلايين .. رخيصة جدا .. كثيرها يخيب ، وقليلها يصيب ، فاذا أصابت ، كان للمبيض ما يهوى ، دون أن يكلف نفسه مشقة أو نصبا ، وبعدها يكون الاخصاب ، وتلقح البويضات بحبوب اللقاح ، ويتحول المبيض الى ثمرة ، والبويضات الى بذور .. البذور أجنة نائمة كأهل الكهف ، وحولها مخزون من الغذاء الذى تعتمد عليه اذا ما انطلقت البذور من ثمارها لتنبت ، فتعيد الكرة من جديد .

بقى ان نعرف أن الذى يرث عش الزوجية هى الانثى دائما .. نعنى مبيض الزهرة بما حمل ، اما ذكورنا فقد راحت فى خبر كان منذ فترة طويلة ، فلقد أدت مهمتها ، وانتهت رسالتها ، وضاع منها ما ضاع ، وعلى الانثى أن تواصل الحياة لتعطى البذور .

وتلك حقيقة تفرح لها الاناث ، ويحزن لها الذكور .. فمن المعروف أيضا فى اناث البشر ــ كما سبق أن ذكرنا ــ أنهن اطول من الرجال عمرا ، كما أن وارثات الرجال (الأرامل) اكثر عددا من وارثى النساء (أن كان من ورائهن ارث) كما أن الشريعة قد أوضحت ان اثاث بيت الزوجية من حق الزوجة لا الذكر .. تماما كما كانت شريعة الحياة مع زهرة !

تسخر الحياة بذكورها اكثر ، عندما تقدم لنا أمثلة أخرى تجعلنا نتوارى منها خزيا ، وكأنما هى بأمثلتها هذه تضع لنا النقط فوق الحروف ، لتشير الينا من طرف خفى بأن الذكر فى حياة أنثاه بمثابة تابع أو طفيلى أو « دلدول » !

ففى مجموعة من الكائنات التى تعيش فى اعماق البحار والمحيطات حيث البرودة شديدة . والهدوء قاتل ، والظلام حالك ، والمسافات التىتفصل كائنات الأعماق كبيرة وواسعة، نجد أن البحث عن الجنس يشكل امامها مسألة خطيرة وعويصة . . ومن هذه المخلوقات أنواع من الاسماك شكلها قبيح وغريب ، ولهذا أطلقوا عليها اسماك الشيطان . . وهو اسم فى الواقع على مسمى .

طبيعى أن الذكر فى هذه الانواع لا ينتظر حتى يبلغ مبلغ الرجال ، ثم يبحث عن أنثاه ؛ بل عليه أن يطلبها بمجرد أن يفقس من بويضته ، ويعرف كيف يسبح ويعوم ، فربما يأخذ وقتا طويلا حتى يهتدى الى فتاة أحلامه ، أو لا يهتدى على الاطلاق ، خصوصا فى مثل هذه المتاهات الواسعة . . المهم أن الحظ يلعب هنا دورا كبيرا ، فذكورنا دائما تحت رحمة الاقدار ، وهى التى قدر عليها أن تشقى وتبحث وتكد حتى تلتقى بالانثى ، أو يكتب عليها التيه والتشرد حتى الموت !

وقد يصادف ذكر من هذه الذكور انثاه ؛ عندئذ ينطلق اليها كالسهم المارق ، وحيث يلتقى فمه الصغير بجسدها نر يعضها عضة واحدة . . العضة الاولى والاخيرة فى حياته وبعدها يصبح عبدها واسيرها الى أن يؤدى مهمته ، وينتقل الى رحمة الله غير مأسوف على شبابه !

والى هنا يبرز امامنا تساؤل هام : لماذا يعض الذكر أنثاه بدلا من أن يطبع قبلة على جسدها العظيم ؟ . . هل يفعل ذلك

بدافع من الانتقـام بعد طول كده وتعبه ونصبـه ؟ .. أم لانهـا قبيحـة ومنفـرة ؟

ليس هناك فى الواقع قبح أو جمـال يمكن أن تـراه العـين لشدة الظلام ، كما ان هذه المخلوقـات لا تعرف معنى الجمال أو القبح او الانتقـام .. لكننـا بلا شك نقف أمام مشهد مثير وحقير، لنقـدم أعجب قصة بين ذكـر وانثـاه .. فالانثى ـ كما ترى ـ أكبـر مـن الذكـر بمئـات المـرات ، وهـى تستطيـع أن نبتلع منـه فى جوفهـا العشرات او ارادت ، ولكن العضة الذكريـة دليـل ملموس على أن « مقصوف الرقبة » قد وصـل ، ولا جناح عليـه أن يعضهـا ، ويغرز أنيابه الصغيرة فى لحمها !

وبعد هذه العضـة الغريبـة تلتحـم شفتا الـذكر بجسـم الانثى ، ويتصل نسيجه الحى بنسيجها ، وطبيعى انـه لا يستطيع أن يأكـل بعد هذه العمليـة ، بـل نـراه يعتمـد على أنثـاه فى طعامـه وشرابـه وتنفسه ، وكأنمـا هـو طفيلى من الطفيليـات الحقيرة .. ذلك أن دورتـه الدمويـة تتصل بدورتها ، وعن طريق هذا الاتصال ينساب دمهـا اليـه ليجرى فى عروقـه . فيتغـذى ويتنفس ، ثـم يلقى بنفايـات عملياتـه الكيميائيـة الحيويـة الى دمائهـا .. وبهـذا يضحى الذكر بشخصيته وكيانه ، وتضمحـل فكوكـه واسنانـه وخياشيمه وزعانفـه وامعاؤه .. الخ ، وكأنمـا هـو قد أصبح بمثابـة نسيج حى أو مجرد جهـاز تلقيح ترعـاه لانثى وتغذيـه حتى ينتج لها الحيوانات المنوية فى الوقت المناسب ، م يقذفهـا فى الماء عندمـا تطلق هى فيـه بويضاتهـا ليحـدث قيح .. لكن الغريب أن ذكرنـا ليس له فى الامر ارادة ، بمعنى لا يستطيع أن يتحكم فى افراز حيواناتـه المنوية على هواه .. على هواهـا هى .. ذلك انهـا وليـة نعمته ، ودماؤهـا هى ، تتحكـم فى غدده الجنسية .. فلا تنضج الا بأمرهـا ، ولا تفرز واناتهـا المنويـة الا برغبتهـا .. ويا قلب لا تحزن على مصـير ـر من الـذكور !

لكن ذكرنـا هـذا الطفيلى أحسن حظـا من ذكـور أخـرى قدمتهـا الطبيعـة قربانا على مسرح الجنس ، لتؤكـد لنـا مرة ثانية أن الحيـاة للانثى ، والموت للذكـر ، وأن التضحية به واجبة الأداء * ، ويكفى أن نـذكر هنـا حالة واحدة من حالات كثيرة ، ليتبـين لنـا القسـوة ، وعظم المأسـاة !

عندما تطير ملكـة نحـل شابة عـذراء الى طبقـات الجـو العليـا فى رحلة « شهر العسـل » ، تنطلق وراءهـا مئات الذكور فى سباق مريـر ، وكل ذكـر يمنى نفسه بشرف جمـاع الملكـة ، ولهـذا يبذل قصـارى جهـده فى اللحاق بهـا قبل غيره ، وهو لا يـدرى أن الموت سيكون له بالمرصـاد !

والواقع أن الحياة قد وضعت ذكورها تحت اختبار عويص ، وكأنمـا فكرة الطيران وراء الملكـة لا تخـرج عن كونهـا مسابقـة تشريفة بين هذا المهرجان الطائر من العرسـان .. اذ ممـا لا شك فيـه أن الذى يلحق بالملكـة وينالهـا فى عليائهـا لابـد أن يـكون هـو أقوى الفتيان ، وبهـذه الطريقة تقدم الطبيعـة للانثى أكفـأ واحسن ما أنتجت من العرسان لتورث الاجيـال القادمـة قوتـه وصحتـه وخلوه من العاهـات والامراض .. وهذا أمـر لا غبـار عليه ، بل هـو مستحسـن وفعـال فى أمور الاختيار الطبيعى الذى تسعى اليـه الحيـاة بين مخلوقاتهـا !

ويلحق أقـوى الذكور بملكته ويحتضنها بعد كد وتعب ، لكن عريسنا الفائـز لا يسعـد بالوصال الا للحظـات قصار ، فبمجرد أن يحدث الاتصال الجنسى ، تنتزع الملكـة أعضاء العريس التناسلية

(*) انظر فى هذا الصدد كتابنا « زوجات مفترسات » .. كتاب الهلال — الناشر دار الهلال القاهرة .

وتستولى عليهـا ، وتدخلهـا الى تجويفهـا .. هذا ولقـد كـان الظن السائـد الى وقت قريب أن الملكـة لا تتقبل الا فتى واحدا ، ولكن بعض علمـاء البيولوجيـا السـوفييت قـد أوضحـوا أن الملكـة تستقبل عدة عرسان أقويـاء ، وتفعـل بهم مثلمـا فعلت بأولهـم .. المهم أن الملكـة بعد هذه الرحلة تعود وقـد أصبحت أنثى فى الظاهـر ، وفى الباطن تحمـل أعضاء الذكر وأعضاء الانثى ، لتبقى خصيبة طيلـة حياتهـا ، فلا تحتـاج الى ذكـر آخـر بعـد ذلك أبـدا !

وتنتهى مراسـم الـزواج ، وتستقبـل الرعيـة ملكتهـا استقبالا لائقـا ، وقـد تعود الذكـور التى فشلت فى مهمتهـا ، فلا تجد من الرعية الا الاهمـال والاحتقـار ، كما انها لا تطعمها ، فلا فائـدة الان منهـا ، وبهـذا يموت الذكـور جوعـا وكمدا ، وتحيـا الانـاث !

لكن المأسـاة الحقيقيـة قـد حلت بعريسنـا الـذى حـاز شرف جماع الملكـة ، فمع خروج أعضائـه التناسلية التى نزعتهـا الملكـة فى داخلهـا نزعـا ، خرجت أيضـا احشـاؤه من شـدة النزعـة ، لتظهـر معلقـة فى رحلة العودة كراية صغيرة ترفـرف وراءهـا ، رمـزا للتضحيـة بالذكـر ، وعلامـة على انتصـار الانثى .. أطـال الله فى عمرهـا !

وعندما يحس العريس الشاب أن اكياسه الجنسية واحشاءه خليـة قد سلبت منه سلبـا ، يحس أيضا أن « روحـه » قد جت ، فتتهـاوى قبضتـه على أنثـاه ، ويتبـدل كـل شىء فى ات .. القـوة الى ضعف ، والحب الى مـوت ، والمـوت الى ـاة .. حياة أجيال أخـرى قادمة كان الذكر فيها هو الضحية ، ـذا يسقط البطـل من عليائه بعد أن وهب حياته لغيره !

مات الذكـر .. تحيـا الانثى !

وهن أرق منا وراثيا

المراة اضعف من الرجل ظاهرا .. لكنها ارقى منــه واقــوى باطنــا !

والظاهر عادة فيــه خداع ، حتى ولو اعجبتنــا مفاتنــه .. لكن الباطن هو الجوهــر ، وهو الاهــم والاعمق من الظاهــر .. وباطن المراة يختلف عن ظاهرهــا ، اذا لو اطلعنــا على بواطن الامور فيهــا ، لسلمنا لها بالسيادة ، وعقدنا لها لــواء الامارة .. أيضا باطنــا لا ظاهــرا !

وقد يبدو هذا لنــا ــ نحن معشر الذكور ــ افكــا وبهتانــا مبينا ، اذ كيف نتجرأ وننادي بالسيادة والامارة للمراة ، ونخــرج بذلك على التقاليــد المتوارثــة من قديــم الــزمن ، والتى وضعت الرجــل فى مركــز أقــوى من مركز المراة ؟

والواقــع أن الحقيقــة قد تكون أحيانــا قاسية ومريرة .. فلقــد فضحت البحوث العلمية الامور ، وكشفت المحظور ووضعت لنــا النقط فوق الحروف لتقول لنــا اننــا جميعــا ابناء آبائنــا وامهاتنــا .. لكننا نحن معشر الذكور منتسبون الى أمهاتنا أكثــر مما نحن منتسبون لآبائنــا .. بمعنى آخــر نقــول : نحن أبنــاء أمهاتنــا فى المقــام الاول ، ثــم يأتى الآباء فى المرتبة الثانية !

كلام ــ لا شك ــ غريب ، ولابــد له من برهان ودليــل !

فالرجـل ـ فى الظاهر ـ أقوى .. حقيقة قديمة ومعروفة ، فهـو يتميز عن المرأة بقوة جسـدية ، وعضلات قويـة ، وخشونة واضحة ، ولهذا يتغلب عادة على المرأة لو دخـل معها فى معركـة بالايـدى أو فى جولة داخل حلبة المصارعـة (وقد يحدث العكس فى البيت أحيانا ، لكن هذه حالات ـ والحمد لله ـ شاذة ونادرة ، ولا حكـم على الشواذ) ومن أجل هذه القوة الظاهرة فى الرجل ، كان لابـد أن تـكون الأرقام القياسية فى الالعـاب الرياضيـة من نصيبـه دون الانثى ، لكن ذلك ليس مفخـرة يباهى بها الرجـل ويعتز ، لان عضلات الحصـان والفيـل أقوى من عضلات الرجـل .. ولهـذا فان زينة الرجـال العقل وليست العضلات !

لـكن ليس معنى ذلك أن الانثى تحب فى الرجـل عقلـه دون عضلاتـه ، بل تسعى لاختيـار الحسنيين .. عقل يسود به على غـيره ، وعضلات تنفعهـا ، ليكون بها حامى حماهـا ، والمدافـع عنهـا ، وقد يدخـل فى معارك طاحنة من أجل خاطرها .. صحيح أن ذلك لا يحدث الان فى أغلب الاحيـان ، ولكن قوة العضلات كـان لهـا شأن عظيـم فى الايـام الغابرة .. أيـام أن كان الانسان الاول يعيش فى الكهوف أو يهيـم على وجهه فى البرارى والقفار والغابات، ولـم تكن هناك عادات ولا تقاليد أو قانون .. الا قانون العضلات ، وبتلك العضلات قضى الذكور الاقوياء على الذكور الضعفاء ، لتكون لهـم السيادة على مجتمع الحريـم ، وباسم هذه النعرة الكاذبة ـ نعرة السيـادة ـ قتـل الذكور اخوتهـم أو أبناءهم أو آباءهم ، وعاشت الانـاث !

لكن .. لكـل شيء ثمنا ـ فنحن أقوى ظاهريا ، والقوة تحتاج الى طاقة تغذيها ، ولهذا فنحن « نحرق » أنفسنا أكثر من الاناث ، ونستهلك من طاقاتنـا ما يفوق طاقتهن .. اذ أننـا فى حياتنـا كالأفران المشتعلة ، لكن اشتعالهـا بطيء ، وحرقهـا لوقودهـا (السكر) يسير على خطوات متتابعـة ، ليسرى كل شيء فى داخلنا

بحساب ، وتنطلق الطاقــات بمقدار ، لتؤجــج فى داخلنــا جذوة الحيــاة .. ومن الغــريب أن الشعلة الحيــوية فى الرجال أكثــر توهجــا منها فى النساء ، ولهذا تنطفىء فينــا بمعدلات أكثــر من انطفائهــا عنــدهن .. يعنى أننـــا نسرف فى طاقاتنــا ، وهــن المقتصدات ، ويعنى أننــا « نحتــرق » أسرع منهن ، ويعنى أننــا أقصر منهن عمــرا !

لكن عدة أرقــام قليلة سوف توضح لنا هذه الحقيقــة .. فبمقارنــة الطاقــة التى يبذلهــا الرجــل والمرأة (المتساويــان فى الســن والــوزن) فى بعض الانشطة اليومية المختلفــة يتبــين لنــا مقــدار ما يبذلــه كلاهمــا مقدرا بالسعر الحرارى فى الدقيقــة الواحــدة ــ هذا والسعر أو الكالورى وحدة حرارة تنطلق من أى شىء يشع موجــات حرارية ــ بما فى ذلك أجسام البشر والحيــوان نتيجــة للعمليات الحيــوية الناشئــة من التفاعلات الكيميائية التى تغذيهــا عمليات الاحتراق فى أجسامنا !

نوع النشاط	المــرأة	الرجــل
١ ــ وهما مستلقيان فى راحة تامة	٩٨ر٠	١٩ر١
٢ ــ عند الوقوف	١١ر١	٢٥ر١
٣ ــ مزاولة الاعمال المكتبية	٣١ر١	٦٠ر١
٤ ــ تقشير البطاطس (أو البصل اذا أردت)	٢٩ر١	٧٠ر٢
٥ ــ غسيل الأطباق	٥٣ر١	٣٠ر٣
٦ ــ وهما يغتسلان ويلبسان	٣٠ر٣	٥٦ر٣
٧ ــ أثناء السير جنبا الى جنب	٩٠ر٢	١٠ر٥
٨ ــ ترتيب السرير	٤٠ر٥	٠٠ر٧

تلك هى بعض الانشطــة العادية التى تؤكــد لنا اختــلاف الطاقــات المبذولــة بين الجنسين ، وتــوضح أننــا نحتــرق فى حياتنــا أسرع من السيدات ، حتى ولو تساوى العمــر والــوزن

والمجهود .. ثم أن الرجال هم الذين حملوا فوق رؤوسهم كل الأعباء والمجهودات الهائلة التى تحتاج بدورها الى طاقات أعظم مما يبذله الاناث .. أضف الى ذلك أن للطاقات والاحتراق نفايات ، والنفايات تؤدى ـ على المدى الطويل ـ الى تقييد جزيئات الحياة وشلها عن أداء رسالتها .. فكلما زادت النفايات الحيوية كلما زادت « كلبشات » الجزيئات الحية ، وهذا ـ بلا شك ـ يؤدى الى اخماد جذوة الحياة ، فتنطفىء فى الرجال أسرع مما تنطفىء فى النساء .. والارقام التى قدمناها فى الفصل السابق خير شاهد على ما نقول .. فأين المساواة وها نحن نرى كيف تتحيز الحياة لاناثها دون ذكورها ؟

لكن الذين ينادون بالمساواة بين الرجل والمرأة لا شك مخطئون أو مخطئات .. فطبيعة الحياة فى التكوين الجسدى والوراثى والفكرى يؤكد أن الذكر ذكر ، وأن الانثى انثى ، ومن سلك سبيل الآخر « فليس منا » .. فزوال الحواجز بين الذكر والانثى ليس فى صالح الجنس والنوع ، « ولعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال » .. ولقد اختلط الحابل بالنابل ، فلا نكاد نميز الذكر عن الانثى الا بما وهبتهما الحياة من مميزات ظاهرة وباطنة ، لتقول لنا : هذا ذكر ، وتلك انثى !

نعود لنؤكد أن الذكر ـ بطبيعة تكوينه العريض ـ يختلف عن الانثى فى أمور كثيرة .. نعومة البشرة لهذه وخشونة لذاك .. صوت حنون لها ، ولنا صوت أجش ، صدور ضامرة فينا ، ولهن الصدور البارزة .. كما أن الاعضاء التناسلية فى هذا تختلف عنها فى تلك .. لكن هناك اختلافات اخرى تشريحية وفسيولوجية وكيميائية تؤكد عدم المساواة .. من ذلك مثلا .. وكما جاء فى كتاب « جسم الانسان » الذى نشرته مكتبة

« لايف » العلميـة ، وتحت عنـوان « بعض الاختلافـات بـين الجنسين » **نذكـر الحقائق التاليـة :**

* وزن مخ الرجل فى المتوسط اكبر من وزن مخ المراة .. فحيث يصل وزن المخ الصغير والمتوسط والكبير فى المراة الى ٣٧ر٠٤ ، ٤٤ر٩٨ ، ٥٤ر٦٨ أوقيـة على التـرتيب ، نرى هـذه الاوزان نفسها فى الرجال تصل الى ٣٨ر٨٠ ، ٤٩ر٣٨ ، ٦٠ر٠٥ أوقيـة .. لكن ليس معنى ذلك أن تفكير الرجـل اكفأ من تفكير المراة .. بـل يعنى ان جمجمة الرجـل اكبـر من جمجمتها ، اذ ليس بحجـم المخ يقاس الـذكاء !

* قلب الرجـل اكبـر من قلب المـراة .. ليس فى الحب أو العاطفـة ، ولكن ذلك يرجـع ــ فى المقام الاول ــ الى حاجة الرجل الى طاقة أكبر من طاقة المـرأة ، وعليه فلابد أن تكون « مضخة » الدم فيـه أكبر ، ليحرق أسرع .. هذا ويبلغ وزن قلب المـراة ثمـان أوقيات ، فى حـين يبلـغ وزن قلب الرجل عشر أوقيات فى المتوسط .. اى بزيادة قدرها ٢٠ ٪ !

* دماء الرجـال أغزر من دماء النساء .. اذ يحتـوى جسـم الرجـل فى المتوسط ١ر٥ جالـون من الـدم ، فى حين ان جسـم المرأة فى المتوسط لا يحتوى الا على ٠ر٨٧٥ جالـون ، اى بزيـادة تصـل الى حوالى ٧٠ ٪ !

* يبلغ متوسط المساحة الكلية لبشرة الرجل ٢ر٢١ ياردة مربعه فى مقابـل ١ر٩٣ ياردة مربعة للمـراة !

* كمية المـاء فى أجسامنـا غـير كميتهـا فى أجسامهن .. اذ يحتوى جسم الرجل على ٦٠ ٪ من وزنه ماء فى حين أن جسم المراة يحتوى على ٥٤ ٪ من وزنه ماء !

* من المعروف طبعا أن عضلات الرجل أقوى من عضلات المرأة .. لنا من العضلات حوالى ٤٢ ٪ من وزن أجسامنا ، ولهن منها ٣٦ ٪ من وزن أجسامهن !

* نسبة الدهون فى المرأة تصل الى ٢٨ ٪ من وزن جسمها ، وفى الرجل حوالى ١٨ ٪ .. لكن لجلد المرأة وبشرتها نصيب محمود من تلك الدهون ، ولهذا كانت بشرتهن بضة ملساء .. كما أن اختزان الدهون فى النساء يجعلهن كالجمال .. فدهون سنام الجمل تتحول عند العطش الى ماء ، ولهذا سمى سفينة الصحراء .. لكن الدهون فى الانثى مخزونة لتتحول وقت الحاجة الى طاقة ولبن ، ثم انها قد تكون عازلا ضد تقلبات الجو اذا كانت تحت البشرة !

* المساواة الوحيدة بيننا وبينهن تتركز فى العظم .. ويالها من مفارقة غير سعيدة ، فلنا ولهن من العظام ١٨ ٪ من وزن اجسامنا وأجسامهن .. ولهذا ليس صحيحا أن الرجل ينقص ضلعا عن المرأة !

* ولنا نحن معشر الرجال عمود فقرى اطول فى المتوسط عن النساء ، اذ يصل طول هذا العمود الى ٢٨ بوصة ، ويصل فيهن الى ٢٤ بوصة !

* واتساع رئتى الرجل تختلف اختلافا واضحا عن رئتى المرأة (عند سن ٢٥ سنة) .. ففى الشابة الصغيرة الحجم يصل اتساع رئتيها الى ٨٢ر٠ جالونا ، يقابلها فى الرجل الصغير ١٣ر١ جالونا !

* وفى الشابة المتوسطة الحجم ١١ر١ جالونا يقابلها ٦٩ر١ جالونا فى الشاب من الحجم نفسه !

* وفى الاحجام « المحترمـة » أو الكبـيرة من النســاء ٤٧ر١ جالونا ، وفى الرجال الضخام ٣٨ر٢ جالونا !

* لهذا تتنفس المراة اسرع من الرجل .. ففى فترات الاسترخاء، والراحـة تتنفس المـراة بمعدل ٢٠ ـ ٢٢ مـرة فى الدقيقـة ، فى حين أن الرجـل يتنفس بمعدل ١٤ ــ ١٨ مرة فى الوقت نفسه !

* لكن حجـم الهواء الـذى يستنشقـه الرجـل فى عمليـة الشـهيق أكبر بمرتين من حجم الهـواء الذى تستنشقـه المرأة ، فعند الراحـة يستنشق الرجـل حوالى ٨٠٠ سنتيمترا مكعبـا يقابلهـا ٣٦٠ سنتيمترا مكعبا عند المرأة !

وفى المجهودات البسيطة يستنشق الرجـل حـوالى ١٧٧٠ سنتيمترا مكعبـا يقابلهـا ٩١٠ سنتتيمترات مكعبة عند المرأة !

وفى المجهودات العنيفـة يستنشق الرجـل حـوالى ٢١٠٠ سنتيمترا مكعبـا يقابلهـا ٩٣٠ سنتيمترا مكعبا عند المـرأة !

وأعمق شهيق يستنشقه الرجـل يصل الى خمسة لتـرات فى حين ان المراة لا تستطيع أن تستنشق أكثر من ثلاث لترات !

* دم الرجل بلا شك ـ اثقل من دم المرأة ، لكن ليس معنى ذلك انـه ثقيـل الظـل أو « سـم على دمـه » ! كمـا يحـلو لبعض فتياتنـا وسيداتنـا أن تطلـق علينـا مثـل هـذا التعبير فى حـالات عـدم الرضـا ـ لكن المقصـود بالدم الثقيل انـه اكثـر كثافـة فى كرات الدم .. ففى كل ملليمتر مكعب من دمائنا نحن معشر الرجال ما بين ٦ر٤ ــ ٢ر٦ مليون كرة دم حمراء ، يقابلهـا ٢ر٤ ــ ٤ر٥ مليونا عند النساء !

لكـل هذه الاسباب وغيرهـا جاء الحكم البيولـوجى بعـدم المساواة بين الرجـل والمرأة .. فلقـد تزود الرجـل بكفـاءات

جسدية تؤهلـه لخـوض غمـار الحيـاة ومجهوداتهـا العنيفـة ، ليحتـرق أولا ، ويمـوت أولا ــ فى أغلب الاحيـان .. لكنهـا ــ أى الحيـاة ــ لـم تشأ أن تعرض المرأة لما لا تحب وترضى ، وكأنما قـد وضعت لها الحدود ، لتحافظ عليهـا وتصونهـا ، ولكنهـا ــ أى المرأة ــ قـد تمـردت على طبيعتها ، وتعـرضت لمـا لا تحب وترضى ، عندما خرجت الى معترك الحياة وويلاتهـا ، فبدأت بعض الأمراض ــ التى نتعرض نحن لها ــ نتيجة للاجهاد والتوتر ــ تزحف عليهــا !

وبالرغـم من ان أجسام الرجـال أقوى من اجسام النساء ، الا أن جسـم المرأة أعقد تكوينـا من جسـم الرجـل ، كمـا أن العمليات الفسيولوجية والكيميائية فى المرأة أرقى وأكفأ من الرجل ، فهناك سلسلة طويلة من الاحـداث الكيميائيـة والهرمونيـة التى تجـرى فى جسم الانثى ، ولا يعرف جسـم الذكـر عنها شيئا .

فبروز النهدين صفة هامـة جدا عند الفتـاة أو المـرأة ، فهى من العلامات الاساسية الدالة على أنوثتهـا ، اذ لا نستطيع أحيانا أن نفـرق بين فتيان عصرنا هذا وفتياتهـم ، خصوصـا عندمـا تهدلت الشعور على القفـا ، وضاقت « البنطلونات » على الارداف ــ أرداف الفتيان « المخنثين » (ظاهرا لا باطنـا) ، وتقاربت الى حـد كبير ملابس هؤلاء بهـؤلاء ، كمـا تقاربت الامزجـة والميـول .. عندئـذ لـم يبق الا أن تدور دورة كاملة حـول الفتى أو الفتـاة لتنظـر الى الصدر وما حمـل ، فاذا رأيت عليـه تضخما واضحا، فاعلـم انهـا فتاة ، وان كـان غـير ذلك ، فعليـه اللعنـة !

لكن كل هذا قـد لا يهمنـا بقدر ما يهمنا أن نعـرف ان من وراء بروز النهدين سلسلة من الاحـداث الكيميائيـة والهرمونيـة التى تسيطـر على نموهما وتشكيلهمـا ، ليقومـا ــ فيما بعـد بـأداء وظيفتهمـا التى خلقـا من أجلهـا ، لكن بعض النسـاء ــ

خصوصا « المودرن » منهن ــ قد ضربن بهذا المبدأ عرض الحائط ، فالمحافظة على النهدين اغلى واثمن من استخدامهما فى ادرار اللبن للرضع من الاطفال ، وكأنهما قد جاءا من أجل ادرار لعاب الرجال (وما أبرىء نفسى) ! .. وتلك نكسة فى تفكير النساء والرجال .. ذلك أن معظم الرجال ــ أن لم يكن جميعهم ــ يهوون الثدى النافر ، ويفرون من الثدى المتدلى أو الضامر ، وكأنما لازالت ميول الاطفال الرضع تملك عليهم مشاعرهم واحاسيسهم ، وهذا ما يسعد النساء حقا ، ولذلك فقد يقولون عن الرجل ــ فى بعض المواقف ــ انه طفل كبير ! .. كما أن الثدى الشامخ يعتبر احدى المعالم البارزة فى الانثى ، ومن اجل هذا اعتبروه فى مسابقات الجمال احد الاسس القوية للفوز باللقب ، رغم انه قد جاء ليؤدى وظيفة فسيولوجية هامة .. ولكن الهرمون الجنسى يزين لنا الامر ، فتسخر النساء منا أو به تتباهى !

كذلك تعتبر الانثى أكثر تعقيدا فى الخلق من الذكر ، خصوصا عندما نأخذ فى الاعتبار عملية أدرار اللبن عند الرضاعة ، وهى عملية معقدة تخضع لسلسلة من الأحداث الكيميائية والهرمونية التى تسيطر عليها الغدد .. اضف الى ذلك ان وظائف الغدد الصماء عند المرأة أعقد من غدد الرجل .. فهى التى تسيطر على تجهيز البويضة ، وهى التى تقوم باعداد المهد أو العش الذى يستقبل البويضة عند تلقيحها ، ثم استقرارها فى الرحم ، فاذا لم يجدث الاخصاب ، بدأت عمليات هرمونية وكيميائية جديدة لتنظيف الرحم « وكنسه » ، ثم تجهيزه من جديد فى الشهر التالى لبويضة اخرى قادمة ، فاذا تلقحت وبدأت فى تكوين الجنين ، ظهرت جيوش من الهرمونات التى تتجول ليل نهار فى دماء الحامل والجنين لتؤثر فيه وتشكله ، كما تؤثر على جسم الحامل وتجعله أكثر انوثة .. ذلك أن جسمها يقيم استعدادات

« ومهرجانات » حيوية ، وكأنما الغدد تعزف بهرموناتها سيمفونية كيميائية فيها نغمة الحياة الرائعة ، وكأنما هى أيضا ترحب بقدوم حدث سعيد ، وضيف جديد ، ولهذا يدب النشاط فى الأنسجة والأعضاء ، وتصير البشرة غضة بضة ملساء ناعمة لامعة ، وتتكور النهود وتصبح أكثر شموخا، وبالاختصار تصبح المرأة فى أشهر الحمل الاولى بمثابة وردة متفتحة ، وكأنما هى تتورد بالنشاط والحيوية ، ولهذا قد يقابلك من الذكور من يقول : ما أمتع جماع الحامل ، وهو قول له سند من الصحة والواقع !

كل هذه الاحداث الرائعة التى تعرضنا لها باختصار شديد ، لا تعرف أجسامنا عنها شيئا نحن معشر الذكور .. كل ما نعرفه هو ذلك الاحساس اللذيذ الذى لا يستمر الا وقتا قصيرا ، ومن وراء ذلك أنثى تثيرنا ، وهرمون يفرز فينا ، فيجعل كل شىء حلوا فى اعيننا ، ثم نقذف خلايانا الخصيبة ، ونهبط ونخمد وننام ، وبهذا ينتهى الامر عندنا بأسرع مما بدأ ، ليبدأ عندها بسلسلة معقدة من الاحداث الفسيولوجية والهرمونية والكيميائية التى تستمر شهورا طويلة ، وليس دقائق معدودة تنتهى بانتهاء مفعول الهرمون فينا ، فمن أشهر تسعة للحمل الى سنة او تزيد للرضاعة .. وكأنما لنا نحن معشر الذكور لذة الجنس ، ولها بعد ذلك النصب والتعب ، ولكن ذلك يهون عندها لأنبل غرض ، وأروع مقصد .. ولهذا كرمنا أمومة الام فى عيد يقام كل عام ، ولم نفكر فى اقامة عيد للاب ، لأن الأم بيولوجيا وعاطفيا اغلى من الأب !

لكن سيادة المرأة بيولوجيا على الذكر تتضح اذا ما تعمقنا فى بواطن الامور ، وتعرضنا لاساسيات الخلق ، وعندئذ سيتبين لنا أننا نحن معشر الرجال ننتسب الى أمهاتنا أكثر مما ننتسب الى آبائنا .. بمعنى أوضح : أننا أبناء أمهاتنا ،

ومن هنـا فان عامـة الناس على حق عندمـا يقولـون « الولـد لخـاله » ، وهو تعبير مهـذب وبديـل عن قولهم « الولد لأمه » !

لقد دلت البحوث العلميـة على أن مكونات الانثى الوراثيـة اكفـأ وارقى وانقى من مكونـات الذكـر ، واكثـر منها فاعلية ، ولكى نوضح هذه الحقيقة المرة على قلوبنـا نحن معشر الذكـور ، كـان لابد أن نتعرض قليلا للباطن الذى لا تراه عيوننـا .. ففيه الاساس ، والاساس بالنسبة للانثى عريض ، وللذكر هزيل !

لقـد سبق ان ذكرنا ان الذى يحدد صفات أى مخلوق على هـذا الكوكب مكونات وراثية دقيقـة غاية الدقة ، ولهذا لا يمكن أن نراها الا بمجهـر ، وحتى لو رأيناها ، فانهـا لا تثـير فينـا فكرا ولا عجبـا ، ومع ذلك ففيهـا أعظم فكرة ، وأدق تخطيط ، وأروع سر من أسرار الـكون والحيـاة على الاطلاق .. المهـم أن هـذه الخيوط الدقيقـة التى تبدو كعلق أو « مقصات » صغـيرة للغايـة تحتـوى على شفـرة الحيـاة التى تحدد لكـل كائن حى صفاتـه الوراثيـة التى سيأتى بهـا الى الوجود .. حمـارا كـان هذا الكائن او خنزيـرا أو حشرة أو نباتـا أو انسانا ، فالانسـان يبـدأ حياته بخلية ملقحـة ، نصف مكوناتهـا جـاء من الانثى فى بويضة ، والنصف الآخر جاء من الذكر فى حيوان منوى ، وعندما تختلط المكونات ، تنتج لنا سبيكـة وراثيـة جديـدة ، تؤدى الى تكوين جنين جديد ، وقـد يأتى الى الحيـاة أو لا يأتى !

البويضة الملقحة ــ اذن هى البداية ، وهى السجل الوراثى المكتوب بآلاف الملايين من الشفرات أو المركبات الكيميائيـة التى لـو ترجمناهـا على هيئة كتب ، وكتبناها بحروفنـا وكلماتنا ، لملأت المجلدات الضخمة . هذا بالرغـم من أن وزن هذه المعلومات

الوراثية لا يزيد عن ستة أجزاء من مليون مليون جزء من الجرام !..
لكن لا يجب أن تخدعك هذه الضآلة وزنا وحجما ـ كل ما فى الامر انها أكوان فيما وراء حدود الحس والبصر « ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) » .. وكل ما يهم الناس فى ذلك نشوة الحب وحلاوة العاطفة ولذة الجنس .. الخ

البويضة الملقحة بمثابة النسخة المخطوطة التى ستطبع منها ملايين وبلايين النسخ أو الخلايا التى تشكل الجنين الى انسجة واعضاء .. يعنى هذا أن كل خلية جسدية فى اجسامنا تحتوى فى نواتها على ٢٣ زوجا من المخطوطات او الكروموسومات التى قدمناها فيما سبق .. كل واحدة منها نسخة طبق الاصل من صاحبه ، عدا الزوج الاخير رقم ٢٣ ، فهو فى الانثى غير الذكر ، وهو الذى سيحدد ـ بمعلوماته الوراثية ـ ان كان المولود سيأتى الى الحياة ذكرا أو أنثى ، وسوف تترجم هذه المعلومات الوراثية فى مرحلة من مراحل نمونا الى خطة عمل .. الخطة تتحول الى صفات ذكرية أو انثوية لنراها بعيوننا ، ونميز بها كلا الجنسين .. لكن الاساس موجود فى الكروموسومات المحددة لجنس المولود ، فان كان أنثى ظهر فيه الزوج الثالث والعشرون على هيئة كروموسومين متشابهين تماما ، نطلق عليهما س س (أو XX) ، وان كان ذكرا ، ظهر هذا الزوج على هيئة س ص (أو XY) .. والى هنا تتضح لنا حقيقة مرة وساخرة ، ذلك أننا نحن معشر الذكور مخلطون ، كما أننا أيضا نتسلخ من الانثى ، ثم ننتسب اليها من خلال الكروموسوم س الحريمى الموجودة فى مكوناتنا الوراثية التى تحتويها كل خلايا اجسادنا ، ولهذا يبدو انها ظهرت أولا ، ثم جاءت الذكور بعد ذلك ، ومما يؤيد هذه الحقيقة أن المخلوقات الاخرى

---

(١) التفاصيل الكاملة لهذا الموضوع فى سلسلة المؤلف بعنوان « سائح فى ملكوت الله » فى الجزء الثالث.. « نحن كتب مكتوبة » .. تحت الطبع .

الاقــل منا شأنــا ، والتى أشرنــا اليها فيما مضى من صفحــات تسود فيها الاناث ، وتتوالــد عذريا دون حاجة الى الذكر .. فاذا تكرمت الحيــاة وأرادت انتاج بعض الذكور ، فانهــا تنشــأ من الانثى !

والاناث أنقى منــا وراثيا .. لأن خلاياهــا تحتوى على الزوج س س ، فى حــين أن خلايانــا « مخلطــة » .. لاحتوائهــا على س ص ..كروموسوم « س » الانثوى جــاء من الانثى ، والآخــر « ص » الذكرى جاء من الذكر !

كمــا أن الانــاث تســود علينــا كــذلك وراثيــا من خــلال الكروموسوم « س » الحــريمى ، اذ لــو اطلعت على حجم هــذا وذاك تحت الميكروسكوب ، لتبين لك أن الكروموســوم المحــدد للجنس فى الانثى أضخــم وأكبر من الكروموسوم المحدد للجنس فى الذكــر .. يعنى أن الحريمى « سوبر » كروموســوم (تمامــا كالسجائــر السوبر) ، أمــا الذكرى فأقل شأنا ، ولو وضع الاثنان فى كفتى الميزان الوراثى ، لرجحت كفــة الانثى على كفة الذكــر ، وكأنما نفس قصة انثى سمكة الشيطــان الضخمــة مــع ذكرهــا « الوضيع » قد عادت لتتكرر هنا بصورة أخرى .. فكما يعتمــد هذا الذكر على أنثاه فى حياتــه ، كذلك نعتمد نحن معشر الرجــال على الكروموسوم الحــريمى « س » فى بعض مكوناتنــا الوراثيــة الهامة ، وهذا يعنى ــ بلا جدال ــ أن الكروموسوم المحــدد للانوثة قد عقدت له السيادة ، ورفعت له رايــة الوصاية على كروموسومنا المحــدد لصفات الذكورة !

ويحيا س ، ويسقط ص .. وهكذا ربما هتفت الحيــاة ، قديــم الزمن !

لكن ضخامة الكروموسوم « س » ليس من قبيــل تحصيــل الحاصل ، ولا هو اختزن فى طيــاته دهــونا أو طعــاما لتجعله

سمينـا كبعض أصنـاف من البشر ، بـل أن مجيئـه فى الخليـة بهذا السمو والإستعلاء يعنى الكثير ، ففيه معلومات وراثية أخرى بجوار المعلومات التى تحـدد جنس الانثى ، ولو لـم تنتقـل الينا هذه المعلومات من الانثى ، لكانت مصيبتنـا ثقيلة وفادحـة ، ذلك أننـا لا نستطيـع أن نعتمـد على كروموسومنـا ص لكى يورثنـا مـا قـد يغيب عنا من الصفات الوراثية التى تنتقـل الى تكويننا من الانثى ، فهو لا يحمـل فقط الا الخطـة الوراثيـة التى تترجـم فيمـا بعد وتجعلنـا ذكورا ، لكن العلمـاء قـد اكتشفـوا عليـه أيضـا خطة عمل وراثيـة لتورثنـا الشعر الذى ينبت على آذاننا نحن معشر الذكور ـ كلما تقـدم بنـا العمر .. فبئست الخـطة ـ خطـة الكروموسوم « الذكـر » ! .. فماذا يفيدنـا نحن ان نبت الشعـر على الاذن أو لـم ينبت ؟

لكن .. ماذا يعنى كـل هذا بالنسبة للذكـر والانثى ؟

يعنى ـ فى الواقع ـ الكثير جـدا ، فلقـد اكتشف العلمـاء ـثـر من ثلاثين مرضـا وراثيـا لها ارتبـاط مباشر وغـير مباشر ـروموسوم الجنس .. بعضهـا خطير ، والبعض الآخر قد لا يكون ـطيرا ، لكن الغريب هنـا أن الخطورة تتركـز وتنصب على الذكر ـون الانثى !

فمن الامراض الوراثيـة التى قد تؤدى الى المـوت مـرض ـعروف باسم النزف الدموى (هيموفيليا (Haemophilia ـندمـا يحدث جرح ـ ولو طفيفا ـ فى الحامـل لهـذا المـرض ـراثى ، فانـه ينزف حتى يمـوت ، دون أن يلتئـم الجـرح ـدا .. فالمسئول عن التئـام الجروح فى الاشخاص العاديـين ـواد بروتينيـة خاصـة تنطلق من معاقلهـا فى المنطقة المجروحة ، ـؤدى الى تجلط الدم عليهـا ، لتكون بمثابة سـدود تقف ضـد ـزف الـدم .. وواضح طبعـا أن المصاب بمرض نـزف الدم لوراثى ليست لجسمه القدرة على تـكوين بروتـين التجلط ..

والسبب راجع الى خطأ وراثى على الكروموسوم المحدد لصفات الجنس .. فعلى هذا الكروموسوم مواقع استراتيجية حساسة نعرفها باسم الجينات أو المورثات ، وكل جينة أو مورثة مسئولة عن خطة عمل محددة ، لانها تحمل فى طياتها شفرات وراثية تترجمها الى عمليات حيوية ، أى انها بمثابة « دوسيه » وراثى فى « أرشيف » الحياة — فى الكروموسوم الكبير .. والواقع أن الثلاثة والعشرين زوجا من الكروموسومات التى نمتلكها فى كل خلية من خلايا أجسامنا تحتوى على ملايين من هذه الدوسيهات أو الجينات أو المورثات ، ولهذا فان أى خطأ فى أى دوسيه ، يؤدى الى خطة عمل خاطئة ، وغياب بروتين التجلط فى الدم ناشىء من خطأ فى المورثة المسئولة عن تكوينه ، وقد يتكون هذا البروتين ، ولكنه لا يستطيع أن يؤدى وظيفته فى الحياة ، لانه حمل فى تكوينه الخطأ الوراثى ، فليس كل مفتاح صالح لان يفتح بابا ، وكذلك تكون عمليات الحياة المعقدة المتشابكة ، فهى لا تحتمل الاخطاء ، خصوصا اذا جاءت من أصل وراثى ، واغلب الظن انها قد تقضى على من حملها بالموت ، حتى لا يورثها لغيره ، فهى — أى الحياة — فى مشوارها الطويل تنتقى الصالح وتحافظ عليه ، وتقضى على الفاسد ، وتسقطه من حسابها ، ويقال أيضا أن سقوط حكم القياصرة فى روسيا كان من ضمن أسبابه هذا المرض — مرض النزف الدموى !

وقد يبدو هذا الكلام غريبا .. فما دخل بروتين التجلط أو النزف الدموى بالاطاحة بالنظام القيصرى فى روسيا أو بالنظم الدولية على وجه العموم ؟

الواقع أن للقصة جذورا قديمة ، ولها عوامل عديدة . فرغم أن مرض النزف الدموى نادر الحدوث بين البشر ، الا أن ذكره مثلا قد ورد فى التلمود ، فلقد نشأت عادة الختان عند

اليهـود من قديم الـزمن ، وكان يحدث أن ينزف الطفـل عنـد ختانـه حتى الموت ، ومن أجـل هذا وضعت فى التلمـود أحكام تشير الى أن الام التى تفقـد ولدين فى عمليـة الختـان من خلال النزف الدموى مسموح لهـا بعـدم ختان الاولاد الذين ستلدهـم بعد ذلك ، حتى ولو تزوجت من رجـل آخـر ، ثم أنجبت أطفـالا ذكـورا .. فى حين ان الرجـل الذى يفقد طفلين بالنزف الدموى من زوجتـه الاولى ثـم تـزوج بأخـرى وانجب منهـا أولادا ، فلابـد من ختانهـم .. وهذا يعنى بوضـوح أن المـرأة هى التى تورث هـذا المرض لأولادهـا .. حقيقـة عرفها اليهود من قـديم الزمن ، ولـم يعرفوا مسبباتهـا ، ومن أجـل هذا وضعوا لهـا الاحـكام فى تلمودهـم !

الغريب فى الموضوع هنـا أن المـرأة قد تحمـل فى مكوناتها الوراثيـة بذور مرض النزف الدموى ، لكنهـا لا تصـاب بـه اذا ـا تعرضت فى حياتهـا للجروح ، فاذا تزوجت وانجبت صبيانـا وبناتـا ، فان المرض يورث للاولاد دون البنـات .. والواقـع أن البنت بدورهـا تحمـل من امهـا هـذا المرض ، لكنـه لا يظهـر فيهـا !

وقـد تتساءلون بدهشـة أصدقائى الذكور وتقولـون : لماذا هذا التحيـز الغريب من الحيـاة لاناثهـا دون ذكورها ؟

لان الانثى أقـوى وراثيـا من الذكـر .. بمعنى آخر نقول : ن الحيـاة قد منحتهـا فى تكوينهـا الوراثى « اكسسوار » ـ أى قطعـة غيـار أو بديـل ، ولم تمنحهـا للذكر ! ..

فماذا يعنى هذا بحق السماء ؟ !

يعنى أن الجينـة أو المورثـة الموجـودة على الكروموسـوم السينى المحـدد للجنس اذا أصابهـا الخلل أو الخطأ أو الضمور ،

فلن تحدث الكارثــة بالنسبة للانثى .. فهنــاك كروموسوم سينى آخــر يحمل نفس الجينة المسئولة عن انتاج بروتين تجلط الدم .. وهــكذا ــ وببسـاطـة ــ اذا توقفت هــذه ، اشتغلت تلك بــدلا منهــا ، وليس محتمــلا أن تفسـد المورثتان فى وقت واحــد ، ولهــذا فمن النادر جــدا أن يظهر النزف الدموى فى النســاء ، ويقــال انــه لــم تسجل غير حالة واحــدة فى التاريخ ، وهــذه لا يعتــد بهــا على أيــة حال !

يختلف الوضــع بالنسبة للذكر ، لانــه يحمــل فى تكوينــه س ص .. الكروموسوم السينى بالتأكيــد حمله من أمه فى تكوينه ، والكروموسوم الصــادى بالتأكيــد من أبيــه .. لكن س الانثــوى لــه السيادة على ص الــذكرى وبكــل مــا حمــل فى تكوينــه من جينــات أو مورثات أخــرى بجــوار المورثــات المحــددة للجنس طبعــا .. وقد تــكون المورثات الخاصــة ببــروتين التجلط ــ على الكروموسوم س ــ ضامرة أو بهــا عطب ، وبالتأكيــد لن تشتغل ، ولا يستطيع الكروموسوم الصــادى الذى ورثــه عن أبيه فى عملية التلقيح والاخصاب أن يفعــل شيئا فى مثــل هــذه الازمة الوراثية الخطــيرة ، فليس عليــه المورثــات الخاصة بتكوين بروتين تجلط الــدم .. وهنــا يظهر النزف الدموى على الذكــور دون الاناث فللانثى اثنــان محترمان .. أى كروموسومين كبيرين ، وللذكــر منهمــا واحد ، والآخــر بــه ضمــور ، .. ويالضيعــة البخت عنــد عالــم الذكــور !

لكن ليس من المحتــم أن تنجب الام الحاملــة لهذا المــرض الخطــير كــل أولادهــا مصابين بهــذا الــداء ، بــل تأتى منهــ نسبة سليمة ، ونسبــة أخــرى تحتضن الخطــأ فى تكوينهــا ذلك أن البويضــة التى تفرزهــا الانثى قــد تحمــل فى تكوينهــا الكروموســوم السينى الخاطىء أو السليــم ــ لأن لديهــا كمــا ذكــرنا ــ س س (واحد السينين يظهر بالتأكيــد فى البويضة) فان

كانت المورثـات الخاصـة بالتجلط على الكروموسوم السينى فيها عيب ، ظهر العيب فى الولـد ، وأن كـان سليما ، جـاء الولـد سليمـا !

لكن النزف الدمـوى لا يظهر فقط عنـد حامليـه بواسطـة الجروح التى قـد يتعرضون لهـا ، بل قد تسببه كدمة أو ضربـة قـوية تؤدى الى تهتك فى الشعيرات الدمويـة ، فيـؤدى ذلك الى نـزيف داخلـى .. كـذلك يحدث النـزيف أيضـا فى المفاصـل والعضلات والاغشية المبطنـة للفم والامعـاء والاعضاء التناسلية ، أو قـد يأتى من اصابـة ميكروبيـة .. لكن حمـدا لله أن العـلم قـد توصـل الى تصحيح أخطـاء الطبيعة مؤقتـا ، وذلك بنقـل فصيلة من دم انسان سليـم الى المصاب بالنزف الدموى ، فتقوم ·روتينات تجلط الـدم المنقـول بعمل الترميم اللازم فيمـا تهتك ن خلايـا وانسجـة ، هـذا ومما يذكر أن العلماء قـد توصلوا لى تحضير مسحـوق أبيض مجهز من دم الخنازيـر ، ويحتـوى على البروتينات التى تساعد على التجلط ، وهـو هنـا أقـوى فى مفعوله من مفعـول نقـل الدم بحوالى عشرين مرة ، لكن المسحوق لا ينفـع الا مـرة واحدة ، وقد يتوصل العلم الى استنباط دواء ينفع فى كـل الازمات !

ومن أمثلة مرض نزف الدم الوراثى الواضحـة فى التاريخ حالـة الملكـة فيكتوريـا (١٨١٩ ـ ١٩٠١) ملكـة انجلتـرا ، فلقـد كانت تحمله فى تكوينهـا ، وطبعـا لـم يشكـل خطرا على حياتهـا ، وانجبت خمس بنـات ، واربعـة صبيان .. بنتـين منهن ـ آليس وبياتريس ـ حملتـا هذا العيب الـوراثى دون أن تحمـلا له همـا ، وحمله أحد الاولاد المدعـو ليوبولد ، وتـزوج ، ولكنـه مات وعمـره لـم يتجاوز ٣٣ عاما ، وتـرك بنتا تحمـل بذور المـرض ، وولدا سليمـا ، ثـم تـزوجت البنت واسمهـا الاميرة آليس من ايرل أوف آثلـون ، وانجبا ثلاثة : بنتا سليمة ،

وولدين أحدهما مات بالنزف الدموى بعد الولادة ، والثانى مات وعمره ٢١ عاما !

اما الاميرتان آليس وبياتريس فقد تزوجتا ، ونقلتا بذور المرض الى بعض أحفادهما عن طريق البنات الى العائلتين المالكتين فى كل من روسيا وأسبانيا .. والغريب أن وريثى العرش فى الدولتين كانا يحملان أعراض النزف الدموى عن طريق أمهما فيكتوريا يوجينى واليكساندرا .. ويقول آشلى مونتاجو فى كتابه « الوراثة البشرية » أن هذا المرض كان من الأسباب التى أطاحت بالعروش فى روسيا واسبانيا .. ذلك أن اليكساندرا ـ قيصرة روسيا وزوجة القيصر نيقولاس الثانى قيصر روسيا كانت تحمل أعراض المرض من أمها الاميرة آليس ، ونقلته الى ابنها الوحيد وريث العرش اليكس ، رغم انها قد انجبت أربع بنات لم تحمل واحدة منهن مورثات المرض ، وعندما علمت القيصرة، بأنوريث العرش ، وفلذة كبدها مصاب بهذا الداء، أصيبت بصدمة نفسية عنيفة ، ولجأت الى طلب المعونة من العرافين والمتنبئين والمشعوذين والدجالين ، حتى وقعت فى حبائل راسبوتين ، الذى ادعى انه سيصنع المعجزات لانقاذ وريث انعرش ، ثم أصبح لهذا الدجال الحظوة والمكان المرموق عند القيصرة ، فأثار القيل والقال شعور الملايين من أفراد الشعب ، وأحسوا بضعف القيصر وتبذل القيصرة ، وعفونة البلاط القيصرى ، وما يجرى فيه من فسق وفجور ـ خصوصا على يدى راسبوتين الذى سيطر على الجميع بحيله البارعة من أجل شفاء وريث العرش من مرضه الخطير ، وكان هذا من ضمن الاسباب القوية التى أطاحت بحكم القياصرة الى الابد بعد أن قامت الثورة الروسية بقيادة لينين !

ومن المؤكد والحال كذلك أن الولد ابن أمه ، أو « الولد لخاله » كما يقولون ، لانه يحمل من صفات أمه أكثر مما

يحمل من صفات أبيه ـ صحة كان ذلك أو مرضا .. ويكفى ما قدمناه من معلومات عن مرض النزف الدموى الذى قد تحمله البنات والاولاد من أم مصابة به ، فلا يظهر فيها ولا فى بناتها ، لكنه قد يظهر فى الذكور ، وبه قد يموتون .. ذلك أن البنت أقوى وراثيا من الولد !

ومن الامراض الخطيرة أيضا ـ والتى لها علاقة بكروموسوم الجنس « س » الانثوى نذكر مرض ضمور العضلات الذى يؤدى الى الشلل ـ وهو غير شلل الاطفال الناتج من فيروس ، والذى يصيب الاولاد والبنات على السواء ـ لكن هذا المرض الوراثى لا يصيب الا الذكور ، فعندما ما يبدأون المشى فى سنى الحياة الاولى يظهر ضمور عضلات الساقين بالتدريج ، حتى اذا بلغ الصبى العاشرة من عمره ، يصبح كسيحا ، ولا يقوى على الوقوف ، ولهذا يقضى المرحلة الأولى من عمره وهو يزحف أو ينتقل على كرسى متحرك ، ثم يسرى ضمور العضلات فى البقية الباقية من جسمه الى أن يموت بعد سنوات قليلة ، ويعنى هذا انه لا يعمر حتى يبلغ مبلغ الرجال أو يتزوج ليخلف ذرية !

ولماذا لم يختف المرض ـ اذن ـ مادام فيه القضاء على الذكور المصابين به قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال ؟

ذلك أن المرض ينتقل خلال الاناث ، ولا يظهر فيهن على الاطلاق ، فاذا تزوجن وجاءت لهن ذرية من صبيان وبنات ، ظهرت فى نسبة من الاولاد ، وقضت عليهم بالموت ، فى حين أن البنت قد تحمله ، وتعيش به ، ثم تورثه للاجيال القادمة عن طريق كروموسومها السينى الذى قد يحمل فى طياته الخير ، وقد يحمل الخراب والدمار للذكور !

ويأتى بعد ذلك مرض آخر من أمراض الحساسية ، ليصيب الاولاد « بالقرف » دون البنات . . يعنى أن لديهم حساسية

خاصة لانواع من الغذاء والدواء .. من ذلك مثلا المرض المعروف باسم « الفولية » ، ويظهر أساسا بين سكان حوض البحر الابيض المتوسط الذين يعيشون على وجبات من الفول .. ففى الفول بروتين خاص يسبب حساسية رهيبة للذين يحملون هذا الداء الوراثى الناتج عن مورثة « متنحية » أو ضامرة أو غير ذات مفعول على الكروموسوم السينى الخاص بتحديد الجنس عند الاناث ، فاذا انتقل هذا الكروموسوم بما حمل الى المولود الذكر ، ظهر فيه المرض ، واذا انتقل الى المولودة الانثى كان لها ما يعوضها على الكروموسوم السينى الآخر فلها كما ذكرنا منهما اثنان ــ س س .. فيحمل هذا ما غاب عن ذاك !

والواقع أن مرض الحساسية هذا neonatal juandice يظهر على الاطفال بعد الولادة ، ثم يستمر معهم فى مراحل العمر المختلفة ، وهو نتيجة حتمية لغياب أو ضمور مورثة تقوم بالتخطيط الوراثى لتكوين خميرة أو انزيم نطلق عليه اسم « ج ٦ ف د » ــ اختصار لاسم علمى طويل ــ جلوكوز ــ ٦ ــ فوسفات دى هيدروجينيز ، وهو انزيم هام فى العمليات الحيوية التى تتم فى أجسامنا ــ المهم أن ينتقل من الام الى نسبة من أولادها .. لكنه لا يظهر فى الاناث ، رغم أنهن له حاملات ــ دليل آخر يؤكد تفوقهن الوراثى علينا نحن معشر الذكور !

حتى عمى الالوان له جذور وراثية على كروموسوم الجنس السينى أو الحريمى ، وله أنواع كثيرة ومتباينة ، فهناك حالات نادرة من عمى الالوان لا يستطيع المصابون بها أن يميزوا الالوان على الاطلاق ، الا أن الغالبية العظمى من حاملى هذا الخطأ لا يستطيعون التمييز بين اللون الاخضر والاحمر ــ والغريب أن هذين اللونين بالذات يوجدان فى اشارات المرور ، وقد تحدث

الكوارث أو الحوادث اذا كـان السائق مصابـا بهـذا النوع من العمى اللونى !

لكن كـل هذا لا يهمنا بقدر ما يهمنـا أن نعرف أن نصـيب الذكـور من هـذا النقص أضعـاف نصيب الانـاث ، فبين كـل الف من الـذكور يظهر عمى الالوان فى ثمانين فـردا ، فى حـين أن النسبـة فى الاناث لا تتجاوز ثلاثا أو أربعا بين كـل الف منهن !

والواقـع أن عمى الالـوان لا يظهـر فى البنت الا اذا كـان والداهـا مصابين بهـذا الداء .. وهـذا أمر نادر الحـدوث .. لكن لابـد ان نعـرف ان أباها قـد ورث عمى الألـوان من أمـه ، لانـه ينتسب اليها فى هذا الامـر اكثـر مما ينتسب الى أبيـه ، فلقد انتقـل اليه الكروموسوم السينى بالتأكيـد من أمه وعليه ــ أى على س ــ تقع مسئوليـة هذا الخطـأ ، امـا الام فلابـد أن تكون حاملة لكروموسومين عليهمـا الخطـأ الـوراثى نفسـه .. وهنـا يظهـر عندهـا العمى اللونى ، وهذا أيضـا أمـر نادر ــ لكن يكفى أن تـكون الام حاملة لبذور هذا المرض (دون أن تظهـر عليهـا أعراضـه) ، وفى تلك الحالة ينتقل الى نسبة من أولادها ، ولا تورثـه لبناتهـا ، لان البنت هنـا تنتسب فى هذا المجـال الى أبيهـا ، ومـا دام الاب سليما ، فان ذلك يعنى أن أمـه سليمة ، ذلك انهـا اعطتـه الكروموسوم السينى السليـم ثم نقـل الاب هـذا الكروموسوم بعد ذلك الى ابنتـه !

لكن مما لا شك فيـه أن موضوع الوراثة مثـير ومتشعب عويص ، وهو ــ يحتاج من القارىء العادى الى المـام بالمبـادىء علمية والوراثية ، لكن فيما قدمنا الكفاية ، لنضع النقط فـوق حروف ونقول : أن الانثى تسود على الذكـر وراثيا !

وحقيقة خامسـة اكتشفت حديثـا تؤكـد لنـا أن الاصول الوراثيـة فى الانثى اكفـأ منها فى الذكـر .. فهنـاك فصيلـة من

الـدم يطلقـون عليهـا س ج (أو Xg) ، ويعنى هـذا أن تلك الفصيلة لهـا مورثـات على الكروموسـوم س الأنثـوى ، لكنهـا ليست موجودة على الكروموسوم ص الذكرى .. وبهذه الفصيلة تسـود الانـاث علينـا ، ذلك انهـا تنتقـل من الام الى أولادهـا وبناتهـا على السواء ، بغض النظـر عن الفصيلة الدموية للاب ــ يعنى أننـا منتسبون الى أمهاتنـا بتلك الفصيلة ، ولا فضل للاب فيهـا ، حتى ولو كـان حاملا لهـا ، فاذا حملها ، فانهـا لا تنتقل منـه الى الاولاد على الاطلاق بل يعطيهـا لبناتـه ، بعد أن يـكون قـد أخـذها من أمـه !

ويبدو أن الحيـاة قد اتخذتنا نحن معشر الذكور « قنطرة » أو « بردعـة » وراثية لتعبر عليها الطريق ، وتحمل معها من خلال تكويننا الجسـدى بعض صفـات الانثى الوراثيـة الكامنـة على كروموسوميها المحددين للجنس عندهـا .. انهـا تعطينـا منهمـا واحـدا ، لتسترده بعـد ذلك فى بناتهـا أو اناثهـا .. ففى كـل خليـة من خلايـا أجسام الذكور يوجـد الكروموسوم السينى ، ولقـد جـاء بالتـأكيد من الام خاصـة ، والانثى عامـة ، فـاذا انتقـل منـا الى بويضتهـا عن طريق الحيوان المنوى ، ظهـرت الانثى من جديد ، وهذا يعنى بالتأكيد أن احـد مكوناتنـا الهامـة قـد جـاء أساسا من الانثى ، ولا بـد أن تستردهـا مرة أخـرى فى بنات جنسهـا .. وكأنمـا الانثى هى الاصـل ، ونحن ــ معشر الذكـور ــ بمثابة الفـرع ، أو كأنما هى التى ظهرت أولا ، وجئنا نحن بعـد ذلك ، وهذا ــ بلا شك ــ يتنافى مع فكرتنا عن نشـأة الخلـق !

وأيـا كانت الامور ، فعلينـا أن نعترف أن الانثى أقـوى باطنـا ، وأضعف ظاهرا ، لكن الباطن أكثـر واقعية من الظاهر ، فقد تورثنـا الانثى بعض صفاتهـا الوراثيـة المحمودة ، وقد تورثنا عكس ذلك .. فنحن تحت رحمتهـا .. فان كـانت خـيرا جـاء الخير ، وان كانت شرا أصابنا الشر ، لكن هـذا الشر لا ينتقـل فى

البنـات الا نادرا ، ومن هنـا تتبـين لنـا الحكمـة العظيمـة فى قـول الرسول الكريـم « تخيروا لنطفكم ، فان العرق دساس » .. وهذا مبدأ وراثى حكيم تتضح لنا أحكامه فيما سبق أن قدمناه !

يضاف الى ذلك وجود بعض أمراض وراثيـة ليست مرتبطة بكروموسوم الجنس ، بـل تأتى من الكروموسومات الاخرى التى تحدد صفاتنا الوراثية .. من ذلك مثلا داء الملـوك أو النقـرس ، الذى يؤدى الى احـداث التهابات رهيبـة فى المفاصـل نتيجـة لترسب بلورات حامض اليوريك (uric acid) بينهـا ، لكن النقرس يظهر عادة بين الذكور ، ولا تجد له عند الاناث مثيلا !

ومن النادر جدا أن تجـد أنثى قد أصابهـا الصلع الوراثى ، واذا حـدث ــ لاقـدر الله ــ فـان تساقط شعرهـا أو صلعهـا الخفيف يتأتى من عوامـل أخرى غير وراثيـة .. لكن الصلع كـان من نصيبنـا نحن معشر الذكـور ، وهو ينتقـل الينـا عن طريق الام أو الاب أو كليهمـا .. فـاذا حملنـاه نحن ، أصابنـا الصلع ، واذا حملته الانثى ، لا يظهر عليهـا ، ويقـال أن صلـع الذكور ــ كما تشير دلائـل كثيرة ــ يتأتى من تأثير الهرمون الجنسى الذكـرى (التستستـيرون) على بويصلات الشعـر فيصيبهـا بالبوار ، وكلمـا زاد تركيز الهرمون ، زاد الصلـع ، وهـذا يعنى بطريقة أخرى أن الاصلع مخلوق يمتاز بقوة أو رغبة جنسية يحسد عليها ، أو لا يحسد ــ لسنا ندرى !

ويبدو أن الامراض التى تصيب الذكور أكثـر من الامراض التى تصيب الاناث ، فمن احصائية بيولوجيـة ــ ضمن تقاريـر خاصـة تنشرهـا تباعـا هيئـة الصحـة والتعليـم بالولايـات المتحـدة ، وتشير فيها الى معـدل الامراض المختلفـة التى تصيب الجنسين ــ يتبين ــ بما لا يدع مجالا للشك ــ أن نصيبنـا منهـا أعلى من نصيبهن .. فمن بين ٣٨ مرضـا مذكورا فى أحـد هذه

التقاريـر يتضح أن لنـا من هذه الامراض نصيب الاسد ، ولهن منها نصيب النعجـة .. اى أن الرجـال والاناث قـد يصابـون بالمرض نفسه ، الا أن معدل الوفيات من هذا المرض بين الرجال يفوق معدله بين النساء .. بمعنى آخـر تذكر الاحصائية أن من بين الثمانية والثلاثين مرضـا ، يموت الرّجال بمعدلات أكبر فى ٣٣ ـ ٣٤ مرضـا ، فى حين أن النساء يمتن بمعـدلات أكبـر فى ٤ ـ ٥ أمـراض !

كذلك يذكـر تقريـر آخر نشره مونتاجو فى كتابه « مقدمة الى علـم الانثروبولوجيا الطبيعية » (وهـو علم يبحث فى أصـل الانسان). وفيـه يذكر سيادتنا على النسـاء فى نـواح ليست فى صالحنا نحن معشر الذكور .. المهـم انهـا سيادة والسلام ، لعل ذلك يـرفع من معنوياتنـا بعـد أن رأينـا كيف تسـود علينـا الانـاث وراثيا .. نحن نسـود على النساء مثلا فى الذبحة الصدرية بخمسة أضعاف ، فبين كل خمسة من الرجال يصابون بالذبحة ، نجد انثى واحدة تصاب بها ، ومن بين كل ثمانية ذكور يصابون بقروح فى الجهاز الهضمى ، تصاب واحدة ، وكذلك النسبة نفسها فى سرطان الجهـاز التنفسى (نتيجة للتدخين) ، وبين كـل ١٦ يصابـون بالدوزنطاريا الاميبية نجـد انثى واحـدة تصـاب بهـا ، ونحن نسود عليهن فى قصور الدورة التاجية للقلب وتليف الكبـد ومرض الاسقربوط وتصلب الشرايين ونـزيف المخ والشلـل الـرعاش والتخنث الكاذب ، والتهاب البنكرياس الحاد وداء الملوك وضمـو العضلات والنزف الدموى وعمى الالوان .. نسـود فى هذا كله عليهن باضعـاف مضاعفـة قـد تصـل الى عشرة أو عشريـن أو خمسين أو حتى مائـة ضعف ، هذا بالاضافـة الى ثلاثين مرضـا أخرى نسود فيها عليهن بحوالى مـرتين أو ثلاث ـ فى حين أنهن يسدن علينا فى ٢٥ مرضـا .. من أهمها فقر الدم الـذى يصيب الفتيـات المراهقـات (نوع من الانيميـا chlorosis) والصداع

النصفى للراس والخرب (مرض جلدى ناشىء عن قصور الغـدة الدرقيـة) ويتميز بجفـاف الجلـد وبفقـدان النشـاط العقلى والجسدى والسمنـة ولين العظـام (نتيجـة للحمـل) والحمى الروماتيزميـة ـ أما البقية الباقيـة من امراضهن فالفـرق بيننا وبينهن قد لا يعتمـد عليـه ، أو لا يزيد عن ضعفين أو ثلاثة !

ملخص القـول : أن الانثى تختلف اختلافـا جوهريـا عن الذكـر ، فى الصحة والمرض ، وتسود عليـه وراثيـا ، وتحـرق نفسها فى حياتها أبطأ من الذكر ، وتصاب بأمراض اقـل من الذكر ، ولهـذا تعمـر أطـول من الذكر !

وهكذا شاءت الحياة وقدرت .. من قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان !

صراع الذكور .. والسبب أنثى !

الجنس يشتعل ، والمعارك تدور ، والضحايا من الذكور !

قانون أزلى وضعته الطبيعة لذكورهـا دون اناثهـا ؛ وكأنما هى تقدمهـم أمام « قومسيون » طبى عـام ، ولكن بدون أطباء ، ومع ذلك فان أحكـام هذا القوميسون تؤدى ببساطة الى اختيـار الذكـر المنـاسب لتقدمـه الى الانثى بعـد أن يتخطى بجـدارة عوائق الامتحـان !

لكن .. كيف يتـم الاختبار ثم الاختيار ؟

عن طريق فكرة بسيطـة للغايـة .. الا أن الفكـرة تنطـوى على تحيز واضح للانثى دون الذكـر .. وهـذا أمر محزن لنـا نحن معشر الـذكور !

فالذين درسوا الطبيعة الحية ، وشاهدوا أحكامها ومبادئها ، يقدمـون لنا معلومات مثيرة ، وحقـائق غريبة ، عن معارك رهيبة تقـوم بين الذكـور من أجل الاناث ، وكأنمـا هى قد جعلت بأسهم بينهم شديـدا ، فسلطت بعضهـم على بعض ، وارست بينهـم قواعـد التنافس والصراع ، ليقوموا بعمل تصفيـة نهائيـة كالتى نسمع عنها فى مباريات الدورى العـام .. الا أن هذه من أجل بطولة أو كأس ، ولكن التصفيـة الحقيقيـة بين الذكور تـكون أساسـا من أجـل الفـوز بـأنثى .. فمن انتصر فى المعركـة ، كانت لـه «حلالا» ؛ ومن خسرها ، فلا بد أن ينسحب ويتوارى عن الانظار،

او فليبحث لـه عن معركـة أخـرى ، وانثى اخرى ، أو فليدفن نفسـه فى الطـين !

قانون قاس ذلك الذى يقـدم الذكور قربانـا على محـراب الجنس والحياة ، وكأنما الطبيعة هنا تضحى بذكورهـا وتحافظ على اناثها .. فالانثى بالنسبة للحياة مرغوبة ، والذكر « مفقود » ، ولهـذا فمن العـار أن تعرضها لمـا لا تحب وترضى .. فهى اثمن وارفع من أن تدخـل فى صراع مع انثى اخـرى من أجـل خاطـر ذكر (١) ، وكأنما هـو لا يستحق هـذه التضحيـة ، وعليـه ــ لكى يفوز بالحب ــ أن يضحى ويتصارع حتى يتبين الغث من الثمين .. أو الضعيف من القوى ، فالحياة تريد أن تقـدم خـير مـا أنتجت لاناثهـا ، ولن يحدث ذلك الا بتنافس وتضحية واجبة الاداء ، يكون للذكـور فيها الاصابات والعاهـات والموت ، أما الاناث فلها الصون والاعـزاز !

ولهذا اذا صادفت ذكـرين يتطاحنـان ، فابحث عن الانثى ، فربما تكون واقفـة غير بعيد من ميدان الصراع لتشهـد هذا القتال الدائـر من أجل خاطرها .. فالحياة تريد أن تنتقى الصالح ، وتقضى على الطالح « ولكن أكثـر الناس لا يعلمون » !

فمن الصدف العجيبة حقـا أن تحدث أمامنا فى شـارع واحد معركتـان ، والابطـال فيهمـا بشر وكلاب .. ولكننـا لا نعنى أن المعركتين تدوران بين هؤلاء وهؤلاء ، بل كانت احدى المعركتين بين ذكـور بنى الانسان ، والاخرى بين ذكور الكلاب ، والـدافع لهمـا أنثى .. نعنى فتـاة وكلبة !

---

(١) يستثنى من ذلك أنثى الإنسان ، فهى أحيانا تتصارع مع أنثى غيرها من أجل خاطر ذكر .. ولاحكم على الشواذ .

ومعارك البشر غالبا ما تتسم بالتهور الذى يؤدى الي مالا يحمد عقباه ، ولقد كانت معركة الفتيان من بنى الانسان رهيبة ، اذ استخدمت فيها الحجارة والطوب والزجاجات والعصى والسكاكين ، وسالت فيها دماء غزيرة ورخيصة .. دماء الذكور طبعا ، وكان الدافع لها فتاة لعبت بعقول ذكور البشر ، لكن لاتهمنا هنا تفاصيل المعركة ولا أسبابها بقدر ما يهمنا أن نعرف أن الفتاة بقيت فى بيتها مصونة ، وراح الاغبياء ضحايا .. وما أكثر المعارك التى تقوم بين ذكور البشر من أجل الاناث بحيث أصبحت مادة دسمة للصحافة ، وعبئا ثقيلا على أقسام الشرطة والنيابة والمحاكم !

يكفى فقط أن تتعرض الانثى لكلمة جارحة ، أو معاكسة عابرة ، فتفور دماءالذكور ، وتنطلق فيها هرمونات أخرى غير هرمون الجنس .. اذ أن لكل هرمون وظيفة محددة ، ووقت معلوم ، ولسنا هنا فى مجال الحب والغرام ، ولكننا داخلون الى ساحة المعركة والنزال ، ولهذا تقوم الغدة الكظرية (أو الغدة فوق الكلية) بافراز بعض هرموناتها وصبها فى تيارات الدماء ، « لتفور » أكثر وتدفعنا لخوض معركة بمجهود أكبر ، وقد يقع فيها الجرحى والقتلى وتفتح لنا فى « دوسيهات » المحاكم والسجون صحيفة سوابق .. كل هذا لأن الانثى قد أهينت ، ولم نتحمل نحن الاهانة ، واهانتها تساوى الدم .. دم الذكور لا دم الاناث ، وتبقى هى فى مكانها لتذرف الدموع ، أو تطلق الضحكات على هبالة الذكور .. ولهذا يقولون فى ساحات الشرطة وأروقة النيابة والقضاء « ابحث عن الانثى » .. فربما كانت هى الدافع الحقيقى لكل ما حدث ويحدث وسيحدث الى أن يرث الله الارض ومن عليها ، والى هنا نستطيع أن نقول أن النساء هن اللاتى يفعلنها ، ويقع فيها المهابيل ذوو التهور والجسارة .. فالرجال للمعارك ، فان لم يتعاركوا كالديوك فعليهم اللعنة !

تلك اذن لمحة سريعة من صراع عابر فى مجتمعات البشر ، وانت أو غيرك يستطيع أن يكتب مجلدات كثيرة عن حوادث غريبة ، لنخرج منها بنتيجة وحيدة ، أو استنتاج مختصر مؤداه ان نسبة لا بأس بها منا نحن معشر الذكور مغفلون (وهذه النسبة متروكة لتقديرك وبقدر ما صادفت وجربت وادركت مما يجرى فى الخفاء والعلن) ، حتى ولو كره الكارهون ، أو احتج ذوو الشوارب المجدولة ، والعضلات المفتولة ، لكن دعنا من كل هذا ، فالكلام فيه غم وهم ونكد ، ولنعد الى المعركة الاخرى .. معركة الكلاب من اجل الكلبة !

لقد كانت كلاب « الحتة » أو المنطقة الواحدة تعيش مع بعضها فى سلام ووئام ، لكن صداقتها قد انقلبت الى عداوة وخصام .. والدافع لذلك أنثى لعبت لعبتها على الذكور بطريقة اخرى .. صحيح أن الكلبة تريد حبا ، وتطلب جنسا ، لكنها ليست سهلة أو « هبلة » .. بل تريد أن تختار من كلاب « الحتة » أعظمها اخصابا ، واكثرها شبابا ، واشدها قوة ، واكبرها فتوة .. وللكلبة كل الحق فيما رسمت وخططت ، ولا غبار عليها فيما تفعل ، فما أكثر الذكور ، لكن ليس كل ذكر ذكرا بالمعنى المفهوم ، وعليها أن تختار ، ولقد عرفت حكمة الاختيار قبل ان تعرفه معظم نساء البشر بزمن طويل ، أو حتى قبل أن نظهر نحن على هذا الكوكب بعشرات الملايين من السنين !

لقد رأينا ثم رأينا فى الشارع نفسه الذى وقعت فيه معركة الذكور من البشر ، حشدا آخر من ذكور الكلاب يتصارع على أنثى واحدة ، وتساءلنا : كيف جمعت الكلبة كل هؤلاء ؟ .. وكيف عرفوا « العنوان » ووصلوا الى حيث تنتظر على ناصية أو بجوار صندوق زبالة أو فى ركن من خرابة ؟ !

الواقع أنها أرسلت « بطاقة » دعوة بطريقة سرية ومثيرة وسريعة .. أسرع بكثير من برقياتنا التى نرسلها من مكاتب

التلغراف ، ثم ندفع فيها ثمنا ، وقد تصل أو لا تصل ، وان وصلت ، فربما بعد فوات الاوان .. ثم ان البطاقة « الكلابية » ذات مضمون محدد وواضح ، ولا يفهمها ــ بطبيعة الحال ــ الا الكلاب .. صحيح انها لا تقرأ ، ولكنها تستنشق الدعوة بأنوفها ، وتفك رموزها ، وتعرف أن هناك كلبة تطلب جنسا !

بقي أن نعرف أن الكلاب الذكور (وكذلك معظم ذكور الحيوانات الثديية) لا تفكر في الجنس ، ولا تسعى اليه الا اذا بدات الانثى في طلبه ، وعندئذ تتضخم فيها غدة خاصة ، وتنبعث منها رائحة انثوية تنطلق في الهواء ، وتنتشر في الأزقة والحوارى والشوارع ، وعندما تستنشق الكلاب هذا العطر الانثوى ، تثور ثائرتها الجنسية ، وتشتعل فيها الرغبة بعد أن كانت نائمة ، وتبدأ في البحث عن المصدر ، وتوجه نفسها الى الانثى أينما كانت ، فهى هناك بمثابة الهدف ، والكلاب كالقذائف الموجهة ، وجزيئات العطر الجنسى كالرادار الذى يحدد ويوجه ويرشد الضالين الى الهدف أو جنتهم الموعودة .. ويمر الوقت ، ويأتى كلب من وراء كلب ، ويتجمع الحشد ، وكل ذكر يمنى نفسه بوصلة جنسية تطفىء لهيبه ، لكن الكلبة لن تعطى نفسها الا « للعظيم » من الكلاب !

اذن .. فلابد من معركة وصراع لعمل تصفية نهائية ، وتقف الكلبة وهى تشهد ما يجرى من أجل خاطرها ، ولا تدرى أن كانت بها سعيدة أو شقية ، لكن أغلب الظن انها فخورة بما خططت لها الطبيعة ورسمت .. المهم أن النتيجة ستكون في صالحها ، وبعد قليل سيتقدم لها أقوى الكلاب لينالها ، وقد تقف البقية الباقية غير بعيدة لتشهد ما يجرى من احداث يسيل لها لعابها ، ولكنها لا تستطيع أن تتقدم لتقضى وطرها ، فلقد شبكت الانثى في الذكر ، بحيث لا يستطيع منها فكاكا حتى ولو ضربا علقة ساخنة ، وبعدها يفض المهرجان دون دماء .. أو محاضر .. أو محاكم !

ومـا أعجب ــ والحال كذلك ــ الصـور التى تتـكرر بـين بشر وكلاب ، وان اختلفت التفاصيـل بين عاطفـة هؤلاء وهؤلاء ، وبين سلوكهـم ومداركهم ، ومع ذلك فالنتيجـة واحدة .. تعنى مزيدا من أجيال الكلاب والانسان وسائر انواع الحيوان !

لكن قصة الذكور من البشر والكلاب قـد تتكـرر بطريقـة اخـرى ، صحيـح أن الكلب لا يعـرف معنى الجمـال ولا التغزل فى قوام الكلبة ولا أناقتها ، أن كان بها أناقة وجمال ، ولكنـه يعرف شيئا واحـدا ، وبـه قد يفقـد أهم صفاتـه .. فتتحول أمانتـه الى خيانـة ، وحرصه الى اهمال ، وعداوتـه للصوص الى صداقـة ، وبهذا لا يستطيع أن يفـرق بين العـدو والصـديق !

القصـة التاليـة قرأناهـا مصادفـة فى احـدى المجـلات العلميـة كدليـل حى على الاثر العميق الذى تتركـه الانثى على الـذكر .. وتتلخص تلك القصـة فى أن عددا من اللصوص الاذكياء حاولوا السطو على مجوهرات ثمينة فى أحـد قصور أوربـا ، لكن محاولاتهم قد باءت بفشل ذريع بفضـل عـدد من كلاب الحراسة المنتشرة فى أماكن استراتيجيـة من حديقة القصر ، فما ان يظهـر اللصوص بالقرب من السـور ، حتى ينطلق نبـاح الكلاب عاليـا مدويـا لينبه أصحاب القصر بما يجرى فى الخارج !

فماذا يفعل اللصـوص لتخطى هذه الازمـة العويصة ؟ .. هل يقتلون الكلاب ؟ .. وسيلـة غير عملية ولا حكيمـة .. هـل يقدمون لهـا طعامـا كرشوة ؟ .. غـير ممكن ، لان الكلاب تكمن فى أمـاكن لا يصل اليها الطعـام ، كمـا انهـا شبعانـة بخـيرات اصحابهـا ، ثـم هى لا تخـون من أجل وليمـة !

لـم يبق أمـام اللصوص ــ اذن ــ الا أن يستخدموا سلاحا نتيجتـه مضمونـة .. وليس هناك من وسيلة تلهى الكلاب وتكسر

شوكتها الا الانثى .. نعنى الكلبة ، لكن من السذاجة أن يأخذوا معهم كلبة ، ويقدمونها الى الكلاب لتجمعهم حولها ، وبهذا تنسى الذكور مهمتها وتيسر للصوص مهمتهم ، صحيح أن مثل هذه الامور قد تنفع مع ذكور البشر ، ولكنها قد لا تنفع فى حالتنا .. فلقد توصل اللصوص الى فكرة خبيثة وعلمية ، واستطاع أحدهم أن يعطر نفسه بالرائحة الانثوية الجنسية التى تفرزها غدة كلبة تطلب جنسا ، وتقدم اللص ووقف فى مكان مناسب من سور الحديقة ، بحيث اذا هبت النسمات ، فانها تأخذ معها الرائحة وتنشرها بين الكلاب .. ولقد حدث بالفعل ما توقعوا ، اذ بدأت الكلاب تتحرك نحو مصدر الرائحة ، ووقفت تهز ذيولها وهى فرحة نشوانة بهذا الزائر المثير ، وأخذت تطوف حوله ، وتتمسح بملابسه ، وكأنما هى تطلب القرب والوصال ، ربما كانت الكلاب وقتها تحدث نفسها وتقول « لا يمكن أن يكون هذا الواقف أمامنا كلبة تطلب جنسا ، لكنه يحمل أثرا من المحبوبة ، ولهذا فمرحبا به وألف مرحب ، فلقد أسكرنا بعطره السحرى ، وملأ دنيانا بهجة وحبورا » .. المهم أن الكلاب ظلت تتبرك به ، وضربت بواجباتها عرض الحائط ، وكأنما العطر الجنسى قد ملك عليها نفسها وحياتها ، مما يسر لبقية اللصوص مهمتهم ، ونهبوا الجواهر وانطلقوا ، ثم لحق بهم صاحبهم ، والذكور تودعه بما يستحق من حب وتودد وحفاوة ، وهكذا لعبت هذه « التكنولوجيا » لعبتها مع الذكور ، فحولت نباحها الى صمت ، وأمانتها الى خيانة .. وهى فى كل ما حدث لا شك معذورة !

لكن هناك « تكنولوجيا » أخرى بشرية تسير على الفكرة ذاتها ، وأن اختلفت التفاصيل بين ما يجرى فى عالم الكلاب والبشر .. فمن الممكن أن يقضى بعض ذوى النفوس الضعيفة حاجتهم عند ذوى المراكز الكبرى بأنثى جذابة ، وعلى قدر كبير من التدلل والجمال والاثارة ، وذكور البشر هنا يختلفون عن ذكور

الكلاب ، فحيث تثير رائحة الكلبة ذكورهـا ، يثـار ذكور البشر بمؤهلات أنثوية خاصة ، مثل النظرة الناعسة ، والكلمة الناعمة ، والابتسامة النائمة ، وتعبيرات الوجه ، وحركات الجسد .. الخ ، اى أن الانثى هنـا تستخدم تكتيكـا آخـر ينتقـل عن طـريق الاذن والعين واللمس .. لا عن طريق الانف كمـا هو الحال عنـد الكلاب ، لكن لا مانع أن تعطر أنثى البشر نفسهـا بعطور لا دخـل لفدهـا فيها .. ومع ذلك فهى تجذب أحيانـا أنوفنـا ، وتـدور رقابنا ، « وتبحلق » عيونـنـا بحثا عن صاحبـة هـذا العطـر الجذاب ، لكن تأثيره علينـا لا يرقى الى مستـوى الكلاب ، ولـو كـان ، لدفع ذكور البشر فى ذلك الجزء الاكبـر من ميزانياتهـم ، ولكن حمدا لله انـه ما كان !

والواقـع أن الانثى الجميلة لهـا عنـد معظم الذكـور حظوة كبرى ، لدرجـة انهـم قد يعبرون أحيانـا عن ذلك ويقولون : أن جمالها يفتن العابد .. أى انه قد يتخلى عن عبادة ربه ، ويضعف أمـام الجمال الفتان .. لكن دعنـا من العابد وما يعبد ،ولنرجـع الى من يسيل لعابهم ، ويستجيبون للجميلة بما تحب وترضى .. فأحيانا مـا يتنازلـون عن عروشهـم من أجـل المراة ، أو قـد يفشون أسرار بلادهـم فى ساعة ضعف أمـام الانثى ، أو تنشر الاخبار العالميـة فضائحهم (مثل بعض وزراء بريطانيـا) ، أو قد لا تتعـدى الامور لأكثـر من طلبات محـددة ، كـأن تأمـر الانثى ذكرها : انقـل فلان الى وظيفـة كـذا ـ حـاضر .. علان يطلب ترقيـة .. تحت أمرك ياست هانـم .. اخـرب بيت س ـ طلبك مجـاب يا سيدتى الجميلة .. ص دمه ثقيـل ـ سأنقله من أجل خاطرك الى جبـال واق الـواق يـاست الحسن والجمـال .. وياالضيعةالذكور وياالخيبةالرجال ، أو ان شئت الدقة فلنقل : هذا الصنف من الرجال ، ومع ذلك فلنترك نسبـة من يقـاوم منـا الاغـراء لتقديـرك ، فلا شك انك أدرى منا بذلك !

والى هنـا يظهر لنا كيف تتحـول قوة الرجال الى ضعف ، وضعف النساء الى قوة .. والانثى ـ بالعقـل والذكاء والتخطيط والانوثـة والمؤهلات الاخـرى ـ تستطيع أن تفعـل ما تريـد أو تتحكـم فيمن تشاء .. وقد لا تظهر على مسرح الاحداث فتمسك فى يدها فأسا أو ساطورا أو خنجرا أو نبوتـا كما يفعل المتهورون من الذكور ، بـل هى فى الواقع ترسم ، وغيرها ينفذ .. « اللهـم ارضهن علينـا ، واجعـل كلامنـا عليهن خفيفا » !

لكن .. علينا الان أن نترك ما يدور فى عـالم البشر ، لانـه عالـم معقـد فى سلوكـه وحياتـه وأنماط تفكيره ، نتيجـة لتطور مراكز الادراك فى مخـه ، حيث أصبح لكـل واحد وواحـدة منـا تاريخ يختلف عن الاخـرين .. كمـا تختلف بصمـات أصابعنـا وشخصياتنـا ، فلا تتكرر أبـدا ، ولنتعـرض لصـور أبسط من السلوك الحيوانى الذى يجرى فى الطبيعـة بين الذكور !

• • •

تنتشر المعارك بين الذكور انتشارا واسعا فى الغابـات وبـين الاعشاب وفى الجحور والانهـار والبحار وقمم الاشجار والاحراش وما شابه ذلك ، لكن هذا الصراع الدائـر بينها قـد لا يـكون من أجـل الانثى فحسب ، بل يتعداه الى أمور الملكيات الخاصـة .. بمعنى أن الكثير من انواع الحيوان تحدد لنفسهـا مناطق معينـة من المـاء أو الارض أو الغابـة لتصبح وطنها المقدس الذى تصـول فيـه وتجـول ، حتى اذا أحست بدخيـل يريـد الاعتداء على ملكيتهـا ، كانت المعركـة .. لكن أبطالهـا وصرعاهـا غالبا من الذكور .. تمامـا كما هو الحال عندنـا نحن معشر ذكور البشر ، الا أن ذلك موضوع طويـل نرانا فى حل من التعرض لـه هنـا ، وعلينـا أن نعود فنقدم صراع الجنس بين الذكور فى عالم الحيوان .

بين الاعشاب تسير الانثى وتتهـادى باستحيـاء ، أو بغـير استحياء ، فليس ذلك مهما الان ، لكن المهم أن يعترض طريقهـا

ذكر ، ويحاول مغازلتها والتودد اليها ، هذا بالرغم انه على اغتصابها بقادر ، ولكنه لا يفعل الا اذا حدث القبول والرضا ، وقد يكون حظه نكدا اذا تقابل — وهو يسير بفتاته — مع ذكر آخر يطلب بدوره القرب والوصال ، وهنا يتوقفان وكأنما كل ذكر يدرس الآخر ، استعدادا للنزال ، وتنزوى الانثى جانبا ، وتنتظر نتيجة المعركة التى لو اطلعنا عليها ، لعرفنا كم الانثى غالية ، أو كم هو عنيف ذلك الدافع الغريزى الذى يكوى الذكور ، فيستهينون بكل شىء فى سبيله .. حتى الممات !

ويقترب الذكر من صاحبه ، وكأنما الذى كان بصحبته الانثى يوحى لغريمه بالاشارة ،وكأنما يقول « لقد وجدتها بعد كد وتعب، فلماذا تعاكسنى ، وتعترض طريقى » ؟ . . وكأنما الآخر يجاوبه قائلا « عليك اللعنة .. ألا تعرف شيئا عن ناموس الحياة ؟ .. أن هذه الغالية(يقصد الانثى) ثمنها كبير ، ولا أستحقها أو تستحقها الا بالتضحية والدم .. ولتكن بيننا — اذا — معركة، فمن انتصر فيها نالها .. هل قبلت التحدى ؟ .. فاذا لم يعجبك قولى ، فعليك أن تنزوى وتختفى ، أو لنحسم الامر ، ولا تضيع وقتى ، فغريزة الجنس تكوينى ، ولا شىء غير المعركة يكفينى » !

ويحسم الامر بمعركة ، ويستخدم فيها سلاح من نوع غريب .. امتلكته الذكور دون الاناث ، وهنا يلعب « التكتيك » الحشرى ، والقوة والشجاعة دورا فعالا فى تلك الحرب النفسية !

لكن ماذا نعنى بهذا التكتيك الذى وصفناه بصفة (الحشرى) ؟ !

نعنى أن الذى تقوم به حشرة .. فالحشرة تحب كما نحب ، وتعامل ذكورها اناثها ربما أفضل من معاملتنا لاناثنا ،

وتعرف قيمتهـا على قدر ما أدركت .. فالذى يتصارع الآن على مسرح الاحـداث خنفس وخنفس .. ليس خنفسا بشريا ، بـل حشريـا .. فالخنافس البشريـة لا تتحلى ـ فى معظـم الاحيـان وعلى قدر علمنـا ـ بروح الكفاح والشجاعة والبطولـة التى تتحلى بها ذكور الخنافس الحشرية ، أو غيرها من ذكـور الحيـوانات الاخـرى ، فالخنفس الحشرى قد جاء الى الحياة وبـه خشونـة واضحة ، وتلك صفة من صفات الذكـور المميـزة ، لكن الخنفس البشرى قد ظهـر لنا « على آخـر الزمن » وبـه نعومـة تختلف درجاتهـا من خنفس الى خنفس ، وبحيث لا نستطيع أن نميـز ـ احيانا الخنفس البشرى من الفتاة ، خصوصا اذا نظرنا اليـه من قفـاه .. ومـا دامت النعومـة قـد زحفت على شبابنـا ، ومـا دامت تراودهـم فكرة محاكـاة الفتيات فى التأنق وتسريحـة الشعور ، وتضييق « البنطلونات » على الارداف الى آخـر هـذه المميزات التى تسعى اليهـا الفتيات بحكم تكوينهن ، وما دام كـل هذا أو غيره يحدث ، فلا تنتظـر من هؤلاء خشونـة كخشونـة الرجـال أو الذكـور عموما .. أو حتى الخنافس الحشرية !

لقـد جرنا الخنفس الحشرى ـ عليه اللعنة ـ رغمـا عنـا الى الحديث عن اخوانا الخنافس البشرية عليهم النقمة ، ولنترك هؤلاء فى فلسفتهم وميولهـم وازيائهـم ، ولنقـدم خنفسنا الذى يعـرف باسم خنفس الوعـل أو الايل أو الغزال ذى القرون .. ذلك أن الخنفس (١) قـد أمتلك فكين طويلين قويين اشبـه م يكونان بقرنى الوعـل ، ومن هنـا جاءت التسميـة .. والواقـ أن ذكور الوعول والخنافس تستخدم قرونهـا وفكوكهـا فى معار الجنس والحياة ، ولكـل منهـا صراعهـا وعاداتهـا ومكانتهـا فى سلم التطـور !

---

(١) تبسيطا للأمور فسوف نطلق على الذكر اسم خنفس وعلى الأنثى اسم خنفسة .

وتبدأ المعركـة ، وتتحـرك الفكوك الاربعة .. وكأنما كـل خنفس يسخن فكيه كما يفعـل لاعب الـكرة بقدميـه ، لكننـا لا نشهـد هنا لعبة للتسليـة وضيـاع الوقت ، بـل نقف أمـام لعبة خطرة من ألعاب الموت والحيـاة على مستواهـا الخنفسى .. وبدون اطلاق صفارة من الحـكم ، يحدث الهجـوم ، وتتقابـل الفكوك بالفكوك ، وكأنمـا هى بمثابة مقابض أو « كماشات » حية ، وبها يقبض الخنفس على الخنفس ، ويحاول أن يلقيه أرضا ليمرغه فى ترابهـا ، ويخمد بذلك قوتـه ، ويوهن من عزيمته ، وكأنمـا نحن أمـام حلبـة من حلبـات المصارعة الحرة ، ولكن بدون حكم ولا جمهـور .. فالجمهور الوحيـد هنا هى فتاتنا الخنفسـة التى تقف سعيدة لتشهد صراع الجنس ، وهبالة الذكور !

وعندمـا يحس أحـد الذكرين أن نتيجة المعـركة ليست فى صالحـه ، نراه ينطلق هاربـا من الميدان ، وهنا يتركـه المنتصر ليذهب الى حـال سبيله ، ويتقدم الى فتاتـه ، وهو يلـوح لهـا بفكيـه ، وكأنمـا لسـان حاله يقـول : ما استحق القرب منك ، ولا الفوز بحبك ، الا كـل من عـرف الكفـاح .. وها أنذا قـد أخذتك منـه بالظفر والنـاب .. لاكـون لك ولتكـونى لى حلالا طيبـا !

وبجـواره تسـير العروس ، وقـد يتقابـل مع من هو أشد واقوى ، فيضيع الحب ، وتختفى النشوة ، أو قـد يكون سعيدا ، فيقضى مع فتاتـه ساعات عسـل حلوة ، ثـم تنتهى فترة الوصال ويفترقان دون تحديـد موعـد آخـر للقـاء ، ويسـير الخنفس مترنحـا ، وبفكيـه ملوحـا ، وكأنمـا يودعهـا قـائلا ، بـاى باى .. عليك اللعنـة ، فلقد انهكت قوتى وأضعت صحتى ، ومـع ذلك فالحياة تهون فى حبك .. « أو كلـه فى حبك يهـون » (مـع الاعتذار للاغنيـة) ثم يموت هو ، وتحيا هى ، ليكون هناك مزيد من الخنافس !

وما دمنا قد تحدثنا عن خنفس الوعل أو الايل ، فلا بد أن نقدم الوعل نفسه كنموذج جديد من نماذج ذكور هذا الكوكب .. وعلينا - لكي نصعد سلم التطور من الخنفس الى الايل - أن نقفز قفزة هائلة لنعيش مع احد أفراد الحيوانات الثديية التى وضعها العلماء معنا فى المجموعة ذاتها !

فذكور الوعول قد تعيش فرادى ، أو تجمعها مجموعات صغيرة ليس بينها انثى واحدة ، ولهذا فان للذكور مجتمعاتها ، وللاناث مجتمعات أخرى منفصلة ، لكنها أكثر عددا من مجتمعات الذكور ، ومن هنا كان لابد أن تظهر فى تلك المجموعات الانثوية زعيمة أو قائدة لتقودها فى متاهات الغابات واحراشها ، والقائدة - بطبيعة الحال - لابد أن تكون أعظم من الاناث حنكة ودراية وأكبر عمرا .. وعندما تضع الاناث مواليدها ، فانها تقوم بارضاعها ورعايتها حتى تكبر وتعتمد على نفسها ، وهنا يحدث شيء غريب ، اذ تتحيز الاناث لبنات جنسها ، فتطرد الذكور اليافعة ، وتحتفظ ببناتها لتزيد مجتمعات « الحريم » قوة وازدهارا !

وتمتاز ذكور الوعول بامتلاكها لقرون متشعبة وقوية لتكون لها بمثابة سلاح « ابيض »، وبه تدخل معركة الجنس أو صراع الحياة .. وليست ذكور الوعول هى الوحيدة التى امتلكت القرنين ، بل هناك ذكور كثيرة بقرون واضحة .. فللخروف (أو الكبش) قرنان ملتويان ، ولذكورالبقر المستأنس والوحشى قرون حادة مستقيمة وكذلك التيس (ذكر الماعز) أو غيره من تيوس .. لهذا اذا رأيت حيوانا بقرون فاعلم انه من الذكور ، أما اذا ضمر القرنان فتلك علامة من علامات الانوثة ، مع بعض استثناءات بسيطة ، ولا حكم على الاستثناءات !

ويشترك خنفس الوعل مع الوعل فى الطريقة التى يستخدمانها فى صراعها مع الذكور الاخرى للفوز بالانثى ، ولكنهما يختلفان

فى أمـر هـام .. فللخنفس فتاة واحـدة ، وللوعـل فتيـات كثيرات ، ولكنـه لا يعرفهن ولا يصـاحبهن الا اذا ظهـر الدافـع الجنسى الذى يدعوه الى تجميـع أكبر عدد منهن لتكون دليلا على فتوتـه .. وطبيعى أن ذكرنا هذا ليس الوحيد فى الغابـة ، بـل يشـارك فيها عددا آخـر من الذكور ، لكن الذكر اذا تقابـل مع ذكـر آخر ، فلابـد من معركة كبيرة ، رغـم أن كـل ذكـر منهمـا قد يكون فى حوزته عدد كبير من الاناث ، ولكنها « فراغة » عـين من الذكور .. نقصـد ذكور الوعـول طبعـا ، ولا شـأن لنا هنـا بذكور البشر ، ويبدو أن ما يمتلكه الاخرون يحلو دائمـا فى عيون الغـير !

وكما يحسم الخنفس الامـر مع خنفس آخر بمعركة فاصلة ، كذلك يفعل الوعـل مع ذكر آخر ، لكن معركـة الوعـول لا شك قاسية ودمويـة ، فسلاح القرن حاد بتار ، فاذا لـم يأخذ الوعل المتصـارع حذره ، فربمـا يبقر القرن بطنه ، ولهذا فقـد يمـوت أحـد الذكرين فى المعركة ، وأحيانا ما تتشابك القرون المتشعبة ، ولا يستطيع الذكران منهمـا خلاصـا ، ولا يزالان هكذا بقرونهمـا متشابكين ومقيدين ، حتى تنهك قواهما ، فيموتان فى مكانهمـا ، وتبقى الهياكـل العظميـة لتحكى لنا قصـة مثـيرة من قصص الصراع التى تدور بين الذكور من أجل الاناث ، وهكذا تضحى بهـا الحيـاة ، وتحافظ على الاناث !

الا أن أيسر حالات هذا الصراع تتركـز فى أن يطـرد الذكـر المنتصر عدوه المهزوم بعـد معركة قد تـدوم طويـلا أو قليـلا ، وليذهب المغلوب فى حال سبيله ، بعد أن يتنازل للـذى غلب عن حريمـه .. وربمـا تواتى المغلـوب فرصـة جديـدة ليدخـل فى معركة أخـرى قد تكون فى صالحه .. المهـم أن هنـاك صراعـا قاسيـا وطويلا ومريرا تمر بـه الذكور ، ليتوج ذكر منها نفسـه على عدد كبير من الاناث ، وليصبح بحق « ملك » الحريم فى الغابة،

ومن أجل هذا تغنى بـه الشعراء فى أشعارهم ، واعتبروه سلطانا لـه من الجوارى مـا يشاء ، ومن الفحولة الجنسيـة ما يريـد ، بحيث يكون فى مقدوره اخصـاب كـل « الحريـم » .. فليست العبرة بعدد الذكور ، انمـا العبرة فى نوع الذكور .. « ولكن أكثر الناس لا يفقهون » ، فالذى يهم هو النوع لا الكم يا سادة !

لكن « سلطنة » الذكور لا تدوم الا قليـلا ، فبعـد أن تحصل الاناث على الاخصاب ، تفقد اهتمامهـا بالبطـل ، كما يفقد البطل اهتمامه بها ، وعندئذ يتخلص من قرنيه العظيمين ، فيسقطـان وبهـذا يكون قد ألقى السـلاح ، ويصبـح كالانثى ، رغـم انـه أضخم منها حجما ، وبعدها يهيم على وجهه فى الغابـات دون أن يحمـل مسئولية او هما .. وكأنما كـل رسالته فى الحياة أن يأكل ويتسكع ويعاكس ويتصارع ويغلب وينكح (مؤكد حيوان) أو أن يكون من المهزومين .. حتى اذا جـاء فصل الحب القادم ، ظهرت القرون ونمت وتشعبت ، ليدخل بها معارك أخرى !

• • •

ولننتقل الان من ساحة الغابات والاحـراش حيث تعيش الخنافس والغزلان ، ولنتوجـه الى شواطىء البحار لنشهـد فصلا آخـر من فصول صراع الذكور على الاناث ، ولنتخير منهـا نوعـا واحـدا ، وليكن ذلك المخلوق « أبا جلمبـو » أو سرطان البحـر أو الكابوريـا .. تعددت الاسمـاء والمخلوق واحد (١) .

ففى فصل الزواج تنتشر الآلاف على مساحـة من الشاطىء ، وتقف الذكور على أهبة الاستعداد لاستقبال الانثى « آم جملبـو »

---

(١) ننقل هذه الفقرات بتصرف من كتابنا « زوجات مفترسات » .. كتاب الهلال أغسطس ١٩٧٠ .

وهى تسير وتتبختر ، وكأنهـا مانيكان أو عارضة أزياء .. أو ربمـا عارضة جنس .. لسنا ندرى ، لكن الذى ندريه أن كـل سرطان قد حفـر فى الرمل حفرة صغيرة ، ليختبىء فيهـا اذا ما تعرضت حياتـه للخطـر ، ثـم قد يتخذها بمثابـة عش للزوجية فى فصل التزاوج ، ولهـذا نستطيع أن نرى الالاف من هـذه الحفـر التى تنتشر على الشـاطىء ، وتختار الذكور الليـالى القمـرية ، ومن جحورهـا تخرج ، وأمـام « دورها » تتجول وتحجـل كالأحدب، لكن الشىء المميـز فى هـذه المخلوقـات هى مشيتهـا الجانبيـة ، وسلاحهـا البارز الذى يرفعه كل فتى فى الهـواء ، وبـه يلـوح ويتباهى ، وكأنمـا هو السيف المسلول الذى يدافـع بـه عن داره أو فتاتـه ، وكأنمـا هو يتمثل بقول شاعـر البشر :

ومن لـم يذد عن حوضه بسلاحه

يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم

والواقع أن سلاح « أبى جلمبـو » ليس الا مخلبـا ضخمـا متينـا ، قد يكون أطول من جسمه ، وبه يدخل معركة الجنس ليحظى بأنثى !

نحن الآن نعيش فى فصل الحب ، وفيه نرى هـذا المهرجان الراقص من الذكور ، وكأنمـا الدنيـا قد دانت لها ، وأصبحت طوع مخالبهـا ، ولا شك أن كـل ذكر يمنى نفسه بعروس .. ايـة عروس والسـلام ، فليس فى الامر اختيار !

وتأتى الاناث لتتجول هنا وهناك بين الذكور ، ويقف الفتيان أمام الدور ، وقد تمر أم جلمبو أمام فتى من الفتيان ، فلا تطاوعه نفسـه أن يتبعهـا ويسـير وراءهـا أينمـا سـارت .. ذلك أن التقاليـد التى ورثهـا ابـو جلمبـو عن أجـداده منـذ عشرات الملايـين من السنين تحتـم عليـه أن يلزم حدود الادب ، ان كان هنـاك أدب .. صحيح ان الفتى أقوى من الانثى وأشد ، وصحيح

انه يستطيع أن يختطفها ثم يغتصبها دون حس أو خبر ، الا انه ـ والحق يقال ـ لايفعل كما يفعل المتهورون من ذكور بنى البشر .. ليس ذلك خوفا من عقاب ، أو لانه يعرف الأصول فى معاملة فتيات نوعه ، ولكنه يريد أن يترك لها حرية الاختيار ، حقيقة عرفها أبو جلمبو ، ولم يعرفها « أبو شنب » !

ما على أبو جلمبو ـ اذن ـ الا أن يقف أمام أم جلمبو وقفة معينة ليستعرض فيها نفسه ، ومسموح له أيضا أن يلوح لها بمخلبه الضخم الذى اكتسب لونا كلون الحنة (أو الحناء) التى يضعها عرسان الريف وعرائسهم فى أيديهم وأرجلهم ، وربما كانت هذه العادة الريفية مقتبسة من أبى جلمبو هذا ، اذ أن مخلبه لا يتخضب باللون الاحمر الا فى فصل الحب والتزاوج ، والواقع أن هذه الحمرة القانية تتأثر بافرازات الهرمونات الجنسية ، وكلما زاد لون المخلب توردا ، فان ذلك دليل على فحولته أو « ذكورته » الزائدة ، أو أن الدافع الجنسى لديه شديد ، ولا تدرى أن كانت الحناء وتوردها فى أيدى العرسان والعرائس تعنى شيئا بالنسبة لهم ولهن أو لا تعنى ، لكن مما لا شك فيه أن تخضب مخلب ابى جلمبو باللون الاحمر القانى لمن العلامات المميزة فى الاختيار الطبيعى ، ولو اختارته أم جلمبو عريسا ، فسيكون عريسا « لقطة » تتمناه كل فتاة فى هذا العالم البسيط فى سلوكه وعاداته !

« وتتبختر » أم جلمبو وهى تمر أمام دور الفتيان ، ويأتى عريس وهو يلوح لها بمخلبه أو « ذراعه » .. وكأنما هو يقول « أنا هنا .. أنا هنا » .. ثم يهتز أمامها ويتشنج ويلوح ، وكأنما هو يرقص لها ليسترضيها ، ثم ينسحب الهوينى الى داره ، وينتظر قليلا ، فلعل الفتاة تستلطفه وترق لحاله ، وعندما يطول انتظاره ، يخرج ويبحث عنها حول

الدار ، فربما تكون واقفة غير بعيد « لتسوق » الدلال ، لكنه يراها وقد ابتعدت قليلا لتدخل فى مجال فتى آخر من الجيران ، ويحييها بمخلبه مثلما فعل الفتى المهجور ، وقد تميل اليه أم جلمبو وتقترب ، فربما كان هذا أكثر جاذبية ، وأخف حركة ، وأشد حرارة فى استقبالها ، لكننا لا نعرف السبب الكامن وراء هذا الاستلطاف ، ولهذا يهجم الذكر المنكود .. ليس على الفتاة ليأخذها غصبا ،أو ليضربها علقة ساخنة . . ذلك أن القانون « الجلمباوى » لايبيح التعرض للاناث ، ولا ضرب الفتيات ، ولكنه يبيح أن يضرب الذكر ذكرا مثله حتى ولو أدى ذلك الى انتقال أحدهما الى الدار الآخرة !

أم جلمبو ـ اذن ـ فتاة مصونة ، ولها بين الفتيان مقام كبير ، واذا أراد الذكر أن يظهر فتوته وقوته ، فلا يجب أن يظهرها على أنثى ، بل على ذكر مثله ، وتلك هى الاصول التى عرفتها مجتمعات أبى جلمبو قبل أن يظهر البشر بمئات الملايين من السنين !

ليس هناك من طريق آخر لحل الأزمة الا الحرب ، ولهذا يتقدم أحدهما نحو الآخر ، وهما يرفعان مخلبيهما ويلوحان بهما بشدة فى الهواء ، وكأنما هما يلعبان لعبة « التحطيب » التى يجيدها أهل الصعيد ، وهى التى يمسك كل فرد فيها نبوتا غليظا ليظهر به براعته أمام « السامر » عامة ، والفتيات خاصة ، ولكن أبا جلمبو لا يلعب ولا يتسلى ، بل سيدخل مع غريمه فى صراع حقيقى ، وكأنما كل واحد يقول لصاحبه « بينى وبينك معركة ، فمن تغلب فيها استحقها ، ولتكن أم جلمبو حلالا عليه ، وحراما على غيره » .. وهنا تحدث بالفعل معركة طاحنة بالسلاح الأحمر .. نعنى بذلك المخلب المخضب « بالحناء » لطبيعية ذات اللون الأحمر القانى !

وتقف أم جلمبو غير بعيد لتشهد هذا الصراع المرير بين الذكرين ، وكأنما هى به فخورة ، اذ ليس هناك أسعد من فتاة وهى ترى الذكور يتطاحنون ويتنافسون على زواجها .. لا تختلف فى هذا أم جلمبو عن أم الخير !

يقول الذين شاهدوا سلوك هذه المجتمعات السرطانية انه بوسع الانسان أن يسمع صليل السيوف الحية ـ نعنى المخالب ـ وهى تتقابل فى ضربات متتابعة قوية من مسافة أمتار عديدة ، وقد تنكسر فيها المخالب وتبتر الارجل وتتهشم الصدور ، ولكن غريزة الجنس عندها قد تكون أقوى من غريزة الحياة ، وكأنما كل ابى جلمبو يريد ان يخوض المعركة حتى نهايتها ، ولهذا فقد تستمر وقتا طويلا ، الى أن يجد أحدهما أن سير المعركة ليس فى صالحه ، فينسحب من الميدان ، ويترك العروس لعذوله ، وهنا قد تتبع ام جلمبو المنتصر الى داره ، فلقد استحوذ عليها بعرقه وذراعه أو قد تتركهما فى صراعهما وتسير ، فما أكثر الذكور ، وما أعظم المآسى التى تحل بها من جراء الفوز بالانثى .. وهكذا شاءت الحياة وقدرت من قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان !

لهذا اذا رأيت اثنين من ذكور أبى جلمبو يتصارعان ويتطاحنان فابحث عن الانثى .. عن أم جلمبو .. لا فرق هنا بين بشر وسرطانات .. فالكل فى الغريزة سواء !

ضوضاء الذكور.. وهبالة الذكور

يبدو أننا معشر ذكور البشر قد ورثنا الكثير من عادات ذكور الحيوان .. فمن الظواهر الغريبة مثلا تلك « الاوركسترا » التى نصبتها الطبيعة من حولنا على هيئة أصوات تنطلق من حناجر الذكور ، لتعلن بها عن وجودها لعالم الاناث .. فالحمار ينهق ، والضفدع ينقنق ، والعصفور يزقزق ، والاسد يزار ، والديك يصيح ، والحمام يهدل ، والحشرات تصرصر وتغنى وتدق الطبول .. الى آخر الضجة التى قد يفصح بها الذكر عن وجوده ، وقد يكون ذلك خطرا على حياته ، لأن هذه الموجات الصوتية ــ التى نسمعها نحن أيضا أو لا نسمعها ــ قد يلتقطها مخلوق جائع ، فيعرف مكان الذكر من ضوضائه ، ولا يزال يبحث عنه ، حتى يهتدى اليه ، ويصبح صاحبنا « الولهان » لقمة سائغة من طعام ، قبل أن يسعد بلقاء أنثاه . وهكذا يدفع الذكر الثمن ، ولا تدفعه الانثى ، فلقد جنبتها الطبيعة مثل هذه الاعمال « الصبيانية » التى كانت من نصيب الذكور .

وعلى الوتيرة ذاتها يسير ذكور البشر .. لكن بطريقة أخرى!

فالشباب المراهق (وقد تمتد المراهقة أيضا الى الرجال الشيوخ والكهول) ينطلق مثلا فى الطريق ، فلا نسمع منهم الا سواتا كالنهيق ، فلا القانون يعاقبهم ، ولا حرمات الليل تمنعهم ، الذوق العام يشفع لهم ، وكأنما هم يريدون تبديد طاقاتهم

الكامنـة عن طريق ضجة وصياح .. ربما ليلفتـوا نظر الجنس الآخـر الى وجودهم ، أو ربما كانت عادة من العادات التى ورثوها عن « اجدادهم » من عالـم الحيوان الذين سبقوهم فى الظهور على هـذا الكوكب بعشرات ومئات المـلايين من السنـين .. فبئست العادات .. عادات الحيـوان .. عادات البشر !

كمـا أن المعاكسـات المكشوفـة فى الطـريق ـ بالكلمـة أو الهمس أو اللمس وغـير ذلك ممـا لا نـدرى ـ يقوم بها ذكور البشر أساسـا .. فقـد يتغزلون فى هـذه الفتـاة بألفاظ نابية ، أو مـع تلك بألفـاظ مؤدبـة ـ كـل هـذا يتوقف على النشـأة والتربيـة .. لكن هذه المعاكسـات المكشوفة لا تصدر من فتـاة أو سيدة .. فالانـاث أكثـر حيـاء من الـذكور ، ليس فقط فى مجتمعـات البشـر بـل نـرى ذلك أيضـا فى معظـم المجتمعات الحيوانية ، فذكورها تتودد دائمـا الى اناثهـا ، وتبحث عنهـا وتسترضيهـا ، والطبيعـة الحيـة ـ كما يراهـا العلمـاء ويدرسونهـا ـ مليئة بآلاف الصور من الغزل ، ولكـل نـوع من الذكور فى ذلك طريقـة ، كما أن لكـل انسـان أو شيخ سـلوكا وطريقـة !

وكمـا يدفع ذكـور الحيـوان الثمن من حياتهـم نتيجـة لشوضائهم ، فقد يدفع البشر الثمن بطريقة أخرى .. قـد تكون خفيفة ، وقد تكون شديـدة .. فأما الخفيفة منهـا فتتجلى لنا فى تلك الحملات الفجائيـة التى يقوم بهـا رجـال شرطـة حماية الآداب العـامة فى الطريق العـام ، وبها يحصلـون على نصيب محمود من ذكور تنطلق وراء الانـاث كالكلاب الضالة ، وفى مركز الشرطة يقومون بتحرير المحاضر المناسبة .. أمـا الشديـد منه فيتركـز فى عمليـات الاغتصاب بالقوة .. ومن حق أيـة أنثى أن تلصق بالذكـر منا اية مصيبـة أو تهمـة ، اذ يكفى أن تقـول هى كـذا وكـذا ، فيضيع مستقبل الذكر . ذلك أن المسـاس بأى

جزء من أجزاء الانثى جريمة رهيبة . . ولكل جزء منها درجة ، وبها يـأتى الحـكم .. كذا شهـر أو كذا سنـة ، ودعـك من ضياع السمعة ، وهذا ينبئك بالخبر اليقين ، خبر أن المراة ثمينة والرجل رخيص .. المراة صادقـة ، والرجل كـاذب ، حتى ولـو ادعت عليـه ، والصقت بـه جنينـا أو نسبتـه اليه !

لكن دعنـا من كل ذلك فالكلام فيه يطول ولنعد الى نسائنا اللاتى يصفهن البعض بأنهن ثرثارات ، لكن ثرثـرة اللسـان قـد لا يأتى منها الضرر بقدر ما تـأتى من « ثرثـرة » مفاتن الاعضـاء الانثوية ، فكلمـا برزت وتكشفت لعيون الذكور الحـادة ، كلمـا كان ذلك ادعى الى ثورة أخرى تجتاح كيانهم الضعيف .. فعندما تلتقط العين المنظر الانثوى المثير ، فان الصورة بمفاتنها تنتقل الى مراكز الابصار فى المخ العظيـم ، ومنها الى المراكز العليـا حيث تترجم الرسالات الواصلة أولا بأول ، وتتحول الى خطة عمـل ، وبهـا تشتغل الغـدد ، ومن الغـدد تنطلق الهرمونات وتشتعل فى داخلنـا ثـورة الجنس ، لكننـا نكتمهـا كتمانـا ، رغـم أن التفاعـلات الكيميائيـة الحيويـة تشعلها فينـا نيرانـا (ولهـذا كثيرا ما نسمعـهم يرددون فى اغانيهم كلمة نـار .. مثـل حبك نـار ، ونار يا حبيبى نـار .. الى آخـر هـذه العبـارات التى نسمعها كالاسطوانات وقد يـكون لهـا طعـم أو لا يكون .. وكله تعبير عن لوعـة الجنس أو الحرمـان) ولابـد أن يـأتى صمـام الامـان ليلعب هنـا دورا عظيمـا ، ويكبح بهـذا جماح الانسان حتى لا يوصـم بوصمة الحيوان ، أو يزج بهفى غياهب السجن .. لكن أحيانـا قليلة قـد ينفلت العيـار ، ويختل صمام الامـان ، فتكون ظواهـر الاغتصاب ، وما يتبـع ذلك من محاكمات وأحكام أو قـد تتحـول الامور الى عمليـات قتال وصراع بين الذكور ، تخـرج الانثى المثيرة (وأحيانا ما تكون غير مثيرة) من كـل هـذا بريئـة ، رغـم انها كانت المحرك البيولوجى الاول لكـل ما حدث

وسيحدث .. فنحن ـ فى الواقـع ـ بشر ، لكن ما يزال فى داخلنا حيـوان مفتـرس !

• • •

نذكر هنا حادثتين رأيناهما رؤية العـين .. الاولى كان بطلها فتى ، والثانيـة كـان حمارا .. ومسرح الاحـداث قـد نصب فى ترام وحقـل .. ولنبـدأ بالفتى والتـرام ، ثـم ننتهى بالحقـل والحمـار ، وبعـده نستنتج من تلك المشاهـدات ما يتعرض لـه عالـم الذكور ، وكيف انـه ينهـار أمـام الانثى ، ويظهر انـه المخلـوق الاضعف !

على كرسى فى تـرام رمل الاسكندريـة جلست فتـاة شبه عاريـة بحيث ظهرت لنا جميعا كتحفـة غاية فى الجاذبية والابداع والاثـارة ، فمنا من حوقل ، ومنـا من استعاذ ، ومنـا من نظـر واستملح وقـال « جميل .. والله جميـلٌ يحب الجمـال » .. ولكـل منا ـ بطبيعـة الحـال ـ فلسفته فى الحياة !

وأمـام الفتـاة جلس ـ لسوء الحظ ـ فتى مراهق ، وظل يـرمق ويتأمل ، والعين تنقل ، والهرمونـات تفـرز ، والخلايـا تثرثـر ، والنبض يزيـد ، والتنفس يسرع ، والدم يندفع ، وعلى وجهه ظهرت علامات تؤكـد حدوث تغير فسيولوجى فى جسمه .. ومن المـؤكد أن هنـاك صراعا رهيبـا يجرى بين الفتى من تأثـير هـذا الجمال الصارخ على تفاعلاته البيوكيميائية ، وبين تقاليـد المجتمـع وأحكامه وقوانينـه .. لكن يبـدو أن الغريـزة كا أقـوى من القانـون ، فلقـد انفلت العيـار ، وتهـاوى صمـ الامـان ، وهجـم على الفتاة كالحيـوان ، وانكب عليهـا تقبيـ « وحضنـا » ، وبسرعـة أيضـا هجم البشر على « الانسان .. ذلك الحيـوان » .. وخلصوهـا منـه بصعوبـة ، ومن التـرام انزلوهمـا ، ولا نـدرى كيف سـارت الاحداث بعد ذلك .. لكن

الـذى ندريه أن التـرام قـد سـار ببعض من فيـه وانقسـم مجتمعه الى قسمين : السـواد الاعظم فى جانب الفتى المسكين ، وقليلـون كانـوا فى جانب الفتاة ، ووسط الضوضاء ، والتعليقات والمرافعـات ، التقطت الاذن صوتـا ناعمـا من فتـاة تبـرز مفاتنهـا الا قليـلا ، وعلقت على ذلك بقولهـا « سوفـاج .. آنيمـال » .. اى متـوحش .. حيـوان ، هـذا بالرغـم انهـا كانت عربيـة فى تقاطيعهـا ولغتهـا ، وثـار فى الوقت ذاته ذكـر من الـذكور لبنى جلدتـه وقال صارخـا « نحن بشر » .. ولاشك انـه يقصـد أننـا ضعاف أمـام مفاتن الانثى !

الا لعنـة الله على ذلك الهرمون العجيب ، الذى قـد يمحـو الارادة ، ويقلب الكيـان ، ويحول سلـوك الانسـان الى سلـوك الحيـوان .. ومـع ذلك فهـو لذيـذ وفعـال ، بدليـل هـذا الطوفـان الحى من البشر والحيـوان !

وفى الحقـل حدثت الحادثة الثانيـة .. فلقـد كـان أحـد المزارعـين يمتطى حمـارا وبه على بركة الله يسـير ، واذا بالحمار يتـوقف فجأة عن السـير .. فتنفرج شفتاه ، ويتسع منخراه ، ويحـرك رأسـه ذات اليمـين وذات اليسـار ، وكأنمـا هـو يستنشق عبـيرا فيـه حلاوة ، وعليـه طلاوة ، ثـم أخـذ ينهق نهيقـا عاليـا ، وفجـأة جرى كالمجنون ، دون أن يستطيع صاحبه كبح جماحه ، وأخـيرا اختـل توازنه ، وسقط من فـوق ظهـر الحمـار الثائـر الذى انطلق كالصـاروخ الموجـه نحـو الهدف، ولقـد كان هدفـه حمارة تقف على مسافـة مائة متـر أو تزيـد وهجـم عليها كما هجـم الفتى من قبل على فتاتـه ، لكن الحمارة تمنعت ، وأخذت ترفسه برجليهـا رفسا شديدا ، الا أن حمارنا لـم يبـال بصفعـات الحوافـر ، وظلت هى تضرب ، وظـل هـو يحاول ، حتى وصل اليه صاحبـه ، وبعصاه الغليظة هوى عليـه بـضربات قاسية متلاحقة ثأرا لكرامته التى أهدرها حمارنا عندما

القــاه أرضــا ، واضحك عليــه الخلق .. المهم أن الحمار المسكين قد عاد بخفى حنين ، بعد أن نال علقتين ساخنتين : علقـــة من الحمارة ، وعلقــة من الانسان !

والواقــع أن مثل هذه الاحداث كثــيرا مــا تتكرر فى عالــم الانسان والحيوان ، ومنها يظهــر الفــرق بين أنثى البشر وأنثى الحيوانات الثدييــة بوجــه عام .. فالحمار مثلا لا يثور جنسيــا مــا لــم تأته اشارة خاصــة من حمارة راغبة فى الجنس ، وعندئذ ينطلق نهيقــه عاليــا ، وكأنمــا هو يرد على تلك الاشارة الصامتة بأنكر الاصوات ، أو كأنما هو يجاوبها الشعــور ، وكأنمــا لســان حــاله يقــول « لقد وصلتنى الدعوة ، وأثارنى المضمون ، وسأنطلق اليك كالفتى الجســور » !

غريب هــذا الامــر .. فأيــة اشــارة تلك التى يستقبلهــا الحمار ؟ .. وما هو مضمونهــا الذى يثيره ويجعله كالمجنون ؟ .. واذا كانت الحمارة تطلب جنســا ، فلمــاذا ــ اذن ــ لــم تتقبــل حمارها قبولا حسنــا ؟ .. هل يــرجع ذلك الى عــدم معرفتــه بأصــول « الايتيكيت » الحميرى ؟ .. أم أن فى الامر سرا عرفتــه الحمــير قبل أن يعرفه الانسان ؟

الواقــع أن ذكــور الحيوان ــ ومنها ذلك الحمار ــ لا تفكــر فى الجنس ، ولا تحس بالرغبة فيه كما هو الحال عندنا نحن معشر ذكــور البشر ، لكن الذى يحدث انه فى فصل من فصول السنــة ــ التى تختلف باختلاف نــوع الحيــوان ــ تجتــاح الانــاث رغبــة جنسيــة ، وبطريقة فعالة وذكية تشــير ذكورهــا برائحــة خاصــة تبعثهــا فى الهــواء ، وكأنمــا هــذه الرائحة بمثابة عطر جنسى . فبمجرد استنشــاقه ، ينقلب حال الذكور من هدوء الى هياج .. ومن تعقــل الى جنون ، وحسنا فعلت اناث الحيــوان ، فبــدون نهيق أو نقيق أو ضجيج أو صياح ، تفوح رائحتها الجنسية اذا ما

أحست بالرغبة فى الذكر ، ومن غدد خاصة تنطلق بلايين فوق بلايين من جزيئات كيميائية معينة ، فتنتشر فى الهواء لمسافات بعيدة ، حتى اذا وصلت الى منخارى ذكر يقف فى حاله،او يسير فى طريقه ، فانها تؤثر فى أعصاب الشم وتثيره ، حتى ولو كانت بتركيزات جد ضئيلة .. وعندئذ يعرف الذكر أن هناك أنثى تطلب جنسا ، وبهذا أصبحت الرائحة الانثوية بمثابة الزناد السحرى الذى يفجر القذيفة الجنسية فى الذكور ، ويجعلها تنطلق كالمجانين باحثة عن المصدر الميمون !

ولقد التقط حمارنا المذكور بمنخريه الرائحة ، فأثارت فيه كوامن الرغبة ، لكنه كان فى الواقع غبيا « طبعا لانه ذكر .. ولانه حمار » ، فانطلق الى أقرب حمارة ، وظنها انها باعثة الرائحة الذكية .. لكنها ــ والحق يقال ــ لم تفعل ، واعتبرت هجوم الحمار عليها افكا وعارا كبيرا ، فلقنته برفساتها درسا عظيما ، وكأنما لسان حالها يقول « أغرب عن وجهى أيها الاحمق ، فلست فى الجنس راغبة ، ولا له طالبة ، حتى ولو وهبتنى كل هذه الحقول من البرسيم » !

واسدلت الستارة ، وعظمت فى عينى تلك الحمارة .. فقد دافعت عن « شرفها » (أن كان لها شرف) .. فكل الامور قد تؤخذ قسرا ــ الا الحب .. والجنس هو الشرارة التى توقظ جذوة الحب ، فاذا انطفأ ، انطلق الذكر الى حال سبيله .. وما أعظم الخدع والشراك التى نصبتها الطبيعة للذكور ، لتؤجج فيها النيران ، ثم تأتى الانثى لتطفئها ، أو قد تشعلها من جديد .. وهى بوسائلها الكثيرة على ذلك لقادرة !

نعود الى حمارنا الذى اكتوى بنار الجنس تارة ، وبحوافر الحمارة ثم بعصا صاحبه تارة أخرى ، فنقول : انه لغبائه قد خطأ الهدف .. اذ كانت الراغبة فى الجنس تقف غير بعيد من صاحبتها الحمارة الاخرى .. ولقد كانت النسمات تأتى من نفس

الاتجاه الذى تقف فيه الحمارتان ، ويبــدو أن الرغبة الجنسية قــد أعمت حمارنــا ، فلــم يفــرق بين هذه وتلك ، ومن أجــل هــذا فقد أخطأ الهــدف ، ودفــع الثمن ، واستحق علقتين .. وهمــا ــ أى العلقتــين ــ أهون من نيابــة ومحاكــم وفضــائح يكتــوى بنارها ذكــر الانسان دون الحيوان !

وهكذا تأتى الريــاح بما لا تشتهى السفن .. وكذلك تــأتى أيضــا بما لا تشتهى الحمير أو غيرهــا من ذكور شتى !

والواقع أن الرائحة الجنسية تلعب دورا هــائلا فى توجيــه الذكر الى الانثى أو اثارتــه جنسيــا ، ويكفى أن نذكــر أن عالــم البيولوجيــا مارتن ليندلاور قــد قــدر عدد أنــواع الــروائح التى تطلقها الانواع المختلفــة من الحشرات بمــا يزيــد على ٥٠٠ ألف رائحــة .. ولكل رائحة منها تركيب كيميائى خــاص ، لتصبــح الرائحة بمثابة لغــة الحب والتزاوج ، أو كأنما هى رسالة معطرة ، ذات شفرة محددة ، ولن يلتقطهــا أو يتعرف عليهــا الا الذكــر الذى ينتمى الى نوع الانثى التى أطلقتهــا !

يعنى هــذا أن الاناث هى التى تطلق الــروائح الجنسيــة ، وعلى الذكور أن تلتقطهــا ، وتبحث عنهــا ، وتسعى اليها ، وهى ــ أى الانثى ــ جالسة فى مكانها معززة مكرمة .. ولقــد استفاد العلمــاء من هــذه الحقيقــة ، واستطاعــوا أن يقوموا بتحضــير بعض أنــواع الــروائح الجنسيــة التى تطلقهــا الانــاث فى عالــم الحشرات ، وبها يجذبون الذكور ، ويقومون بحرقها ، حتى لا تتاح لهــا فرصة تلقيح اناثها ، وبهذا يحدون من تناسلها ، ويسيطرون على أعدادهــا ، فيتضاءل ضررها .. وتلك صفعة جديــدة لعالــم الذكــور الذى كتب عليه ــ فى آخــر الزمن ــ أن يمــوت حرقــا بالنــار ، فى حين أن الانثى تحيا حياتها العاديــة ، وتموت موتتها الطبيعيــة !

لكن الغريب حقا أن بعض اناث الحشرات تطلق روائحها فى ساعات محددة ، من الليل ومن النهار .. فنوع منها يفضل اطلاقها بين الحادية عشرة مساء حتى الرابعة صباحا ، ونوع آخر يبعث بها ما بين الساعة الثانية الى السادسة صباحا ، وهكذا قدرت الحشرات لرجلها قبل الخطو موضعها ، فمن المستحسن أن يبحث الذكر عن أنثاه فى ظلام الليل ، وهو لا يستعين بعينيه فى البحث عن فتاته ، بل يتوجه اليها - حيث كانت - بقرنى استشعاره اللذين يشبهان الرادار .. صحيح ان شبكات راداراتنا تشتغل بالموجات الكهرومغناطيسية ، لكن « رادارات » الحشرة توجه نفسها عن طريق جزيئات « عطر الحب » الذى اطلقته الانثى فى الهواء .. ولكل رادار منها « موجة » خاصة .. نعنى مادة كيميائية ذات تركيب محدد ، وبقرنى الاستشعار تفك رموز الشفرة وتعرف معناها ، وتستمر فى البحث والطيران نحو الانثى فى النصف الاول من الليل ، ثم ليبدأ الحب والوصال فى النصف الثانى او قبيل بزوغ الشمس ، وبهذا تضمن الاناث وصول ذكورها ليلا قبل أن تقع فريسة سهلة لحيوانات أكبر قد تصطادها فى الطريق نهارا ، وتصبح لها طعاما ، وهكذا وضعت الانثى خطتها ، وعلى الذكر أن يكد ويسعى ، وقد يصل اليها ، أو قد تأتيه مصيبة فى الطريق ، فيصبح قربانا على محراب الحب أو الجنس .. لست أدرى !

لكن الحديث عن الجنس لا ينضب ، والكلام فيه لا ينتهى ، اذ يكفى أن نذكر بهذه المناسبة حديثنا مع مجموعة من الاصدقاء عن أمور تتعلق بالعلم والحياة ، وتشعب الحديث حتى وصلنا الى أسرار الجنس عندنا وعند الكائنات الاخرى ، وذكرنا - ضمن ما ذكرنا - قصة الحمار مع الحمارة ، والكلب مع الكلبة ، واناث لانواع الاخرى مع ذكورها ، وكيف أن الانثى تستخدم عطرها الطبيعى لتجذب الذكر أو تستثيره ، ولقد علق على ذلك أحد

الظرفاء وقال : ليت لنسائنا ما لهذه الحشرات ، عندئذ كنا نريح ونستريح ، والمعنى طبعا فى بطن الشاعر او العالم ، فهو يقصد أن تكون لانثى البشر غدة تفرز عطرا جنسيا طبيعيا ، بدلا من تلك العطور الخارجية التى تستهلك جزءا من الميزانية المنزلية ، ثم أننا — على حد قوله — فى حاجة ماسة الى هذا العطر المثير ، بعد أن نضب المعين ، وحل الفتور محل الحبور ، أو الزهد محل الرغبة !

ويعلق ظريف آخر على ذلك فيقول : ربما كانت هناك رائحة جنسية تطلقها اناثنا ، لكن أنوفنا لم تتطور بما فيه الكفاية ، حتى تلتقط ما يثير فينا الرغبة التى بدأت تذبل وتذوى ، ولما لم تجد نساؤنا فى أنوفنا خيرا ، استعانت عليها بعطور علها تبعث فينا النشوة .. وهكذا يتبين لكم ولنا أن لكل عادة من عاداتنا جذورا حشرية ، وحميرية قديمة .. والله أعلم !

وأيا كانت الامور .. فلقد منحنا الله العيون ، لتغنينا عن الانوف ، كما منحنا العقول ، لندرك بها معانى الجمال ، ثم زودنا بالارادة ، لكى لا تنهار أمام مواكب الاثارة ، وهى — فى الواقع — مواكب متجددة متغيرة تهتز بمفاتنها أمام أعيننا ، فلا نستطيع لها صدا ، ولا لجاذبيتها بعدا !

لكن دعنا من هذه الجلسة « الرجالى » التى تتميز بالبرود والمناقشات والتعليقات التى تقرف النفس ، وتصدع الرأس ، ولنذهب الى ركن بديع للغرام بناه أحد الذكور ليستضيف فيه ما يشاء من الفتيات .. فهل تريد أن تحضر معنا ، لتشهد أمورا مثيرة لم تطرأ لك على بال ؟ .. أغلب الظن انك سترحبون بذلك ، لنمتع النفس ونبتعد عن كل ما نلقاه فى حياتنا من هم وغم ونكد ومسئوليات .. لا هى ممنوعة ، ولا هى مرغوبة .. اذن ، فليكن ذلك ، وعلى بركة الله نسافر !

• • •

علينـا الآن أن ننطلـق الى استـراليا أو كوينزلانـد .. بالخيـال لا بالجسـد ، والخيـال ينبت من العقـل المـدرك فى الانسـان لا الحيـوان ، لكن ذلك لا يعنى أننا سنقـدم ركن غرام خياليـا ، بل سنعيش بضع لحظـات من واقع الطبيعة الحية ، ولنتقابل هناك بذكـر من الطيور القريبة الشبه بالببغاوات ، ولقد اختـرناه هنا لانه ـ والحق يقـال ـ من أغرب الطيور التى درسها العلمـاء ورمقوها بدهشة واعجاب ، فذكرنـا هذا له مزاج فنان ، أو طبيعـة عاشق ولهـان ، لانه يشيـد لنفسه عريشة أو خميلة أو استراحة أو ركن غرام .. لسنـا فى الواقع ندرى اى الأسماء نختـار ، فقد تقولون انتـم مثلا : لماذا لا نسميه عشا ، خصوصا وأن الطيور تشيد لنفسهـا أعشاشا ، لتضع فيها بيضا ، وليس هنـاك داع لذكـر كل هذه الاسماء الحلوة التى عرفهـا الانسـان دون الطـير ؟

لكن ذلك ليس صحيحـا فى حالة طائرنـا هذا ، فهو لا يبنى عشـا بالمعنى المفهـوم ، ولكنـه يقيم على الارض قطعة فنيـة من عريشة أو خميلـة خاصـة ، لا لتكون بيتـا للزوجيـة ، أو لتضع فيهـا الانثى بيضهـا ، ولكنه ـ فى الواقع ـ يبنيهـا « لمزاجـه » الخـاص .. فعش الزوجيـة شىء ، وعش الغـرام شىء آخـر ، فللطيـور أمزجـة ، كمـا للبشر أمزجـة .. والانثى فى ذلك هى القاسم المشترك الاعظـم ، ولها النصيب الأوفى !

والواقع ان طائرنا هذا يعرف باسـم طائـر العريشـة أو الخميلة أو « الخص » (Bower Bird) تعـددت الاسمـاء ، والمعنى واحد .. لكن قد تغيرون رأيـكم فيما بعـد ، وتختـارون لركن الغـرام هـذا أسماء اخـرى تساير الغرض الذى أنشىء من أجله ، ولكن نعد أن نقـدم لكـم شيئا عن « هبالته » مع فتياته ، ثـم ولعـه باستقبالهن فى ركنـه ، فمزاج هذا الطائـر ، أو سعيه لتشييد هذا الركن العجيب ليس فنـا مجردا ، أو مزاجـا غريبا

بدون هدف ، بل له ارتباط وثيق بهرمونات الجنس .. فالتجارب التى أجراهــا العلماء على ذكور هــذه الانواع من الطيــور تؤكــد هذا المعنى ، فلو جئنا بذكر صغير ، وأزلنا له خصيتيه ، ثم تركناه حتى يبلــغ مبلــغ الفتيان من الطيور ، فلن يفكر اطلاقا فى بناء مثل هذا الركن أو العريشة.. فما فائدته ، وقد غاب عنه المحرك الاول.. نعنى غريــزة الجنس ؟

ان الطيور لا تفكر فى تلك الغريزة الا فى فصول خاصة ، ولذا فهى عندها موسمية ، وعندمــا يحل موسمهــا ، نجد ذكور طائر العريشة ــ التى كــانت تعيش فى جماعــات يــؤلف بينها الــوئام والانســجــام ــ قد بدأت تتفــرق وتنفصــل ليستقــل كــل ذكــر منهــا بنفســه على قطعة من الارض التى يعتبرها بمثابــة ملكيــة خاصــة ، فلا يصح لذكــر آخر أن ينافســه فيها ، أو يشــاركه فى حدودهــا ، وكأنمــا الذكور هنــا تسير على مبــدأ « ابتعد عما يجرح شعور جارك ، ليكون كل واحد فى حاله ، دون أن ترقبــه عيــون الفضوليين من الذكــور » .. ذكور الطير .

ويبدو ان للانثى عند الذكــر هنا مقاما كبيرا ، ومن أجل هــذا نراه يشتغل بالليــل والنهــار ، ويكد ويجتهــد الاســابيع تلــو الاسابيع ، ويبدأ فى جمــع الخامات المحلية التى سيبنى بهــا ركن الغــرام ، فتراه يطير هنا وهنــاك ، ليجمع سيقان النباتات، وفروع الاشجار الصغيرة ، وبها يعود واحدة فواحدة الى الموقع الذى اختاره ، ويبدأ فى غرسها فى الرمال الواحدة بجوار الاخــرى ثــم يثبتهــا فى اماكنهــا بقطع صغيرة من الحصى والاحجار ، وهــذا مجهود لاشك جبــار ، اذ يكفى أن نذكــر أن أحــد العلمــاء قــد أحصى لواحد من هــذه الطيور أكثر من ثلاثة آلاف قطعة من نبات وألف قطعة من الحصى والاحجار ، ويعنى هذا انــه قــام بأربعــة آلاف رحلــة أو مشوار .. وشيئــا فشيئــا تقــوم الاركــان من الخميلــة أو التعريشــة ، ولتنتهى فى النهايــة بصفين متقــابلين

ومتلاصقين من اعشاب تمتد على ارضية ذات ظل ظليل ، وعلى الارضية تنتشر بقع ضوئية لتبدو عليها كالدنانير .. ولكل خميلة بابان متقابلان ، قد يتجه أحدهما جهة المشرق ، والآخر جهة المغرب ، او قد يتجهان ناحية الشمال وناحية الجنوب .. كل هذا يتوقف على المناخ السائد فى المنطقة ، وعلى نوع الطائر الذى يشيد العريشة .. فمن المعروف أن لهذه الطيور انواعا كثيرة ، ولكل نوع منها فنه وتكتيكه ومزاجه « واتيكيته » فى استقبال الفتيات !

لكن ما شيده الطائر حتى الان ليس فى الواقع شيئا مذكورا فى أصول العمارة أو فى فنون الديكورات .. فكما نميل نحن معشر البشر الى الوان خاصة ، وكما تجذبنا أذواق معينة ، كذلك كان الحال عند ذكور هذه الطيور التى ظهرت قبلنا بعشرات الملايين من السنين .. فالذى بناه الطائر ليس الا هيكل العريشة ، وعلى هذا الهيكل يبدأ فى عمل ديكورات غريبة أو لوحات عجيبة ، مستخدما فى ذلك بعض الخامات المحلية التى قد تصادفه وهو يتجول باحثا عنها فى كل مكان .. وهو هنا كالانسان الفنان الذى يحب جمع التحف بعناية تامة ، ثم يضع كل قطعة فى مكانها المناسب ، ليبدو كل شىء متناسقا وجذابا .. وكذلك تفعل هذه الطيور على قدر امكانياتها بطبيعة الحال !

ولو قدر لك واطلعت على سلوك هذه الانواع ، وصبرها ومثابرتها فى تجهيز ركن غرامها الذى ستستقبل فيه فتياتها، لعرفت قيمة الانثى عند الذكر ولأدركت كيف سخرت الحياة من ذكورها بأساليب مختلفة ، لتهيىء للاناث ما تقر به أعينهن ، وترضى به نفوسهن .. فذكر طائر العريشة قد يقضى الاسابيع الطويلة وهو يعتنى بالخميلة .. اذ تراه يذهب كل يوم لاحضار زهور وثمار وأوراق ذات الوان خاصة ، ويلصقها على جدران خميلته، ثم قد تلاحظه وهو يبتعد قليلا ، وكأنما هو يرمق من بعيد

هــذا الديكور الجديــد ، فاذا لم يعجبه ، قفز على الارض قفزات سريعة ، ليقترب من العريشة فيغيــر نظــام الــديكورات .. لكن الغريب أيضــا انه كلما ذبلت زهرة او ورقة أو ثمــرة ، واصبــح منظرهــا غير مناسب أو ملائــم ، انتزعها من مكانهــا ، ووضــع بــدلا منها شيئا طازجــا !

اغرب من ذلك ان ذكــور طيورنا هــذه لا تهتــم فقط بزينة الخميلــة ، بــل عليهــا أن تجهز ارضيتهــا بديكورات ليبدو كــل شيء رائعــا جميلا .. فأمــام مــدخلى الخميلــة ، او فى داخلهــا تنتشر اشياء غريبــة ذات الوان متقاربة .. فهناك طيــور تميل الى الالــوان الحمراء ، ولهــذا تجد أرضية ركن الغــرام مزينــة بورود وشرائط وورق وعلب واصــداف وثمــار وزرايــر وقطــع قماش وريش .. الخ ، وكــل الــوان هذه التشكيلــة العجيبــة احمــر فى احمــر .. أما اذا كان النوع يميل الى اللون الابيض ، فسوف تجــد على الأرضية كــل ما هو أبيض لامــع ، وربما تجد بينهــا شوكا وملاعق وسكاكين صغــيرة وفوطــا بيضاء وساعات واصدافــا وقطنا وعظاما وقطعا من المرايــا .. الخ ، المهم انه .. « كله ابيض فى أبيض » وقد تتعجبون وتتساءلون : ولمــاذا الشوك والملاعق والسكاكين والفــوط ؟ .. ولمــاذا وكيف أحضرهــا ؟ .. وهــل سيقيــم للفتيات وليمــة ؟ .. أو هل سيهدى احــداهن ساعة من الساعات الموجودة على ارضية الخميلــة ، أو ســوارا معلقــا على جدرانهــا ؟ .. الى آخر هذه الاسئلة .

الواقع ان الذكر هنا لا يعرف معنى هذه الاشياء ، ولا يدرك مــاذا يمكن أن تستخــدم فيه ، ولكنــه يريد أن يجمــع أكبــر واعظــم تشكيلــة من الادوات التى يميل اليهــا مزاجــه ، ويبدو ان احضار هــذه المجموعة اللامعــة قــد يساعــد على اجتــذاب الفتيــات عندمــا تنعكس عليهــا اشعــة الشمس ، وترتــد الى أعينهن ، وتوجههن الى مكــان الخميلة ، وطبيعى أن وجــود هذه

الديكورات الحديثة لم تظهر فى خمائل هذه الطيور الا بظهور المدنية الحديثة للانسان ، ولهذا قد يحدث احيانا أن تغيب بعض ادواته المنزلية دون سبب ظاهر ، ولو حدث ذلك عندنا لقلنا أن هناك عفريتا من الجن يسطو على اشيائنا ويسرقها ، ولكن العفاريت لا توجد الا فى خيالاتنا ، وأيا كانت الامور ، فان أهالى المناطق التى يسكنها طائر العريشة أو الخميلة يقولون : اذا فقدت شيئا ، ولم تعرف لاختفائه سببا ، فعليك أن تذهب الى المناطق التى تعيش فيها تلك الذكور ، فربما وجدتها بين ممتلكاتها ، لتزين بها اركان غرامها !

والوصف ــ طبعا ــ غير الرؤية .. لاننا مهما وصفنا هذه الذكور ودابها على العمل ، فاننا لا نستطيع أن نوفيها حقها ، لكنك لو رأيتها ، وراقبت أفعالها ، وهى تنظم وترتب وتعيد وتغير أوضاع ديكوراتها ، لهتفت وقلت على الفور « وتلك أمم أمثالنا » !

لكن .. لماذا تفعل الذكور كل هذا ؟

نوع آخر من انواع الاختيار الطبيعى .. فجمال الخميلة هنا ، وحسن ترتيبها ، وفخامة بنائها ، وتنوع ديكوراتها ، تعكس ــ بلا شك ــ ذوق صاحبها ويسار حاله ، الا أننا لا نستطيع ان نقول ذلك بالنسبة للطيور .. لان طائر العريشة مثلا ليس لديه رصيد فى البنوك أو أنه يملك اطيانا وعمارات ، ولكن رصيده الحقيقى يتمثل هنا فى قوة احتماله وصبره على المكاره .. فركن الغرام الفخم جدا الذى يشيده بعض البشر دليل ملموس على ذوق صاحبه ، وستحكم على الفور ان كان مليونيرا او بليونيرا أو حتى « ملليميرا » .. وسيدلك هذا على طبقته الاجتماعية التى ينتمى اليها ، وطبيعى ان الامير غير الصعلوك ، والذى يملك خير ممن لا يملك ، والاناث بطبيعة الحال

تميـــل دائمـــا الى الاحسن والارقى .. لا تختلف فى هذا أنثى طائر العريشـــــة عن أنثى البشر ، فالـــذى يهتـــم أكثـــر ، ويـــؤثث أحسن ، ويكـــدأعظـــم ، يرتفع فى عين الانثى ، فهى التى ستحـــدد الذكـــر الصالح من الطالح ، أو الامـــير من الصعلوك .. وهى التى ستضع درجة الامتحان بعد أن تفحص ورقة الاجابة .. وهى هنـــا تتمثل فى ضخامة العريشـــة وحسن تنسيقهـــا ، وتنوع ديكوراتها، ولهـــذا تتبارى الذكـــور فيما بينها لتقديـــم مشروع العمـــــارة ليس فقط على الورق ـ ولكن على الطبيعـــة لتفحصـــه الاستاذة ـ تعنى أنثى الطـــير ، وقـــد يسقط فى نظرهـــا ، أو قـــد يصبح من الناجحـــين !

صحيح أن فتيات الطيور اذا مـــرت بالديار ـ ديـــار هـــذه الذكور ـ فلن تشهق وتقـــول « يا أختى عليه وعلى ذوقه ـ دا باين عليـــه واد لارج » .. ولارج كلمة بديلـــة تتردد هـــذه الايـــام على السنة من يتنكرون للغتهـــم ، وينتسبون الى كل ما هو أجنبى .. المهـــم أن « لارج » تعنى الكرم ويسار الحـــال والبذخ عندنـــا نحن معشر البشر ، والانـــاث عندنـــا تحب هـــذا النـــوع من الرجـــال « اللارج » .. وكلما ترددت هـــذه الكلمة على السنتهن ليمتدحن بها ذكـــرا « لارجـــا » ، كلما زاد غـــروره ، وانســـابت نقـــوده ، وســـالت ريالتـــه ، وأخـــيرا قـــد يخلـــو الجيب ، « ويتخـــرب » البيت ، وقد تمتـــد يده الى الاختلاس ، وقد يـــذهب الى السجن بتهمـــة النصب أو السرقة أو الاحتيـــال أو السطو على الامـــوال العامـــة ، وغالبا ما يـــكون وراء كل هـــذا أنثى تضحك على الذقون بكلمـــات تثير الغرور ، ومن بينهـــا كلمـــة « واد لارج » .. وتلك فى الواقـــع هبالة كبرى من الذكـــور ، ومن النـــادر أن تجدهـــا الانـــاث ـ فعلى الـــذكور الـــدفع والمصـــاريف ، وعلى الانـــاث « الفرفشـــة والدندشـــة » !

لكن طائر العريشة لا يمكن أن يتهم بالسرقـــة أو الاختلاس لو انـــه سطا على الاموال العامة والخاصة التى تتمثل فى شوك أو

سكاكين أو ملاعق قد يراهـا بالصدفة من خلال نافـذة ، فيخطفها ويطير ليزين بهـاعريشتـه ، ولا يمكن أن يذهب أحدهـم الى الشرطة طالبـا القبض على طائـر العريشة لانه استباح مـا ليس لـه فيـه حق ، ولـو فعـل الانســان لاتهمـوه بالجنـون ، أو بأنـه أقل ادراكـا من طائر الخميلـة .. ذلك أن كل مخلوقـات هـذا الكوكب لا تدرك معنى الحلال أو الحـرام ، أو الفضيلـة أو الرذيلـة كما يدرك ذلك الانســان ، كما انهـا ليس لها دين تـدين بـه (وماذا فعل أصحاب الدين بدينهم ؟) ، ولهـذا فعليهـا أن تفعـل ما تريـد دون طمع فى جنة أو خـوف من نار ، وما أكثـر مـا يشقى أهل العقـول بعقولهم !

اذن .. فلقد جهز كل ذكر عريشته ، وزينها بما تيسر لتكون بمثابة ركن خـاص ، أو « رست هاوس » يستضيف فيـه الفتى من الطيـور فتيـات بنى جنسـه .. يعنى جلسة حلوة كجلسات أصناف خاصة من ذكور بنى آدم .. وكلما كانت الخميلة جميلة ، كانت أكثر جاذبية للفتيـات ، وكأنما كل ذكر هنا يتيه ويتبـاهى على أترابه بما يستقبـل كـل يوم من موكب العذارى .. ولا يمكن بطبيعـة الحال أن يستقبل أو يستضيف ذكرا مثله ، والا كـانت المعركـة .. ويالهبالة الذكـور !

لكن لا يجب علينـا أن نوصم ذلك الطائر بانه « زير فتيات » ، أو انـه ماجن داعـر ، فهـو ــ والحق يقـال ــ برىء من هـذا الوصف ، فجلستـه مع الفتـاة فى الخميلة ليست الا نوعا من الانس أو الاستلطـاف ليس الا .. فعندمـا تقبـل عليه الفتـاة ، نـراه يستقبلهـا بصيحة عاليـة ، قد يكون لهـا معنى ، والمعنى فى بطن الطائـر لا الشاعر هذه المرة ، فهى لا شك تعنى البهجة والترحاب ، او ربما تكون بلغتنـا نحن « يا أهلا .. يا اهلا .. وألف مرحب » !

ولكى يـؤكد الذكـر « لوزتـه » الذى هبط عليه من السماء عظيـم سروره وحسن حفاوتـه واستقباله يبدأ فى اجـراء بعض

الطقوس والاستعراضات ، فيدخل من باب ، وبسرعة يخرج من الباب الآخر ، ويدور حول الخميلة ، ثم يصيح ، وكأنما يقول « يا حلاوتك يا جميل » .. ثم يدخل ويخرج ويصيح ، ويقف ليلتقط بعض ديكوراته بمنقاره ، ويقذف بها فى الهواء وكأنما لسان حاله يقول « كل هذا من أجلك يا حلوة » ! .. ويبدو أن بعض هذه الحركات قد ورثناها عن ذلك الطير الذى سبقنا فى الظهور على هذا الكوكب بعشرات الملايين من السنين ، فعندما يثار بعضنا بأمور تفقدنا بعض صوابنا ، نرانا نقذف فى الهواء ما بأيدينا من اشياء .. تماما كما يحدث مثلا فى مباريات الكرة عندما يحرز احد الفريقين هدفا فى الآخر .. وفى كلا الأمرين « هبالة » !

ويستمر طائرنا هذا فى حركاته واستعراضاته ، ويتكرر المشهد أمام الانثى التى تجلس فى هدوء وهى ترمقه باعجاب أو احتقار ، لسنا ندرى ، ولكن الذى ندريه أن الفتاة قد تتركه أحيانا وتطير ، وكأنما هى «لاتستخف» دمه ، أو انه ليس ذكرا «لارج»، لا فى حسن الاستقبال ، أو جمال الاداء ، أو أحيانا اخرى قد يأتيها المزاج ، فتقوم وتدور وراءه ، ويدور هو وراءها ، فيدخل هو من باب ، وتدخل هى من باب آخر ، ويستمر هذا اللف والدوران والصياح من الذكر ، وكأنما هو قد أصبح محطم قلوب العذارى ، ومالك زمامهن ، وبعد فترة تجلس أنثى الطير لتستريح ، وقد يقدم لها الفتى شيئا من الثمار المعلقة على جدران العريشة ، فتأكل وتبقى معه يوما أو بعض يوم ، ثم تتركه وتطير دون كلمة أو صيحة فراق ، فينظر اليها الذكر و[illegible] تبتعد ، وقد تنطلق منه صيحة خافتة فيها حسرة ، وكأنما ه[illegible] يقول : عليك اللعنة ، أو كأنما هذا الذى تفعله اناث الطير نـ[illegible] من « الاستقطاع » أو الاستغلال أو الاستغفال لعالم الذكور . فالخميلة بالنسبة للانثى مكان فيه أكل وتسلية وأمان وجلسة

مريحة ومزاح على خفيف مع ذكر مخبول خير من حياتها فوق أغصان الاشجار .. فظل طائر ، ولا ظل غصن ، أو كما يقولون عندنا « ضل راجل ولا ضل حيطة » !

وتستمر هذه المضيفة العجيبة أسابيع طويلة ، وفيها قد يستقبل الذكر الواحد عشرات أو مئات الفتيات في الموسم ، وقد يرزق في اليوم الواحد بمثنى وثلاث ورباع ، وفي أيام أخرى لا تأتي الرياح بما تشتهي السفن — وطبعا كل ذكر وشطارته أو هبالته — كما يتراءى لك ، ولكنه لا يكل ولا يمل من استضافة الاناث ، فمجالستها ومغازلتها واللعب معها لا شك أمور حلوة ومثيرة ولذيذة .. وهكذا فقد أصبح للطيور أمزجة كأمزجة البشر !

لكن .. ماذا يستفيد الذكر من كل هذا ؟

سؤال لا شك خبيث .. انه على أية حال لا يستفيد شيئا مذكورا ، فهو لا يستطيع أن يقرب أية فتاة أو أن يعاشرها معاشرة زوجية ، ولا يحظى منها حتى بمجرد قبلة .. ان كانت بين الطيور قبل واحضان !

ولماذا كل هذه الحركات الغريبة والمثيرة اذن ؟

الواقع أن العلماء لم يستطيعوا أن يقدموا تفسيرا مقبولا .. ويبدو — والله أعلم — أن ذلك قد يكون بمثابة مقدمة طويلة لابراز مؤهلاته الجنسية ونموها شيئا فشيئا ، وربما ينعكس هذا السلوك الذى يتميز بالحركة والنشاط « والانبساط » والانفعالات الى ظواهر فسيولوجية تؤدى الى نضج غدده الجنسية حتى يحين حصادها ، وفى النهاية تأتى من تحصدها ، والذكر اللارج » هو الذى يستقبل أكبر عدد من الفتيات ، وتبدأ فترة ارسة الجنس والتلقيح ، ومن تلقحت تترك « رست هاوس » سرام ، وتنطلق الى قمم الاشجار ، حيث تضع بيضها فى

عشهـا الذى أقامته من أجل أولادهـا ، وبعد أن يفقس البيض ، ويشتد عـود الصغار ، تنزل بهم أمهم من فوق الاشجار ، وتذهب معهـم الى استراحة الغرام .. أية استراحة تشاء ، فلا أحـد يعرف فى هـذا العالـم أن كـان الذى يوجد فيها هو أبـوه أو عمه أو خالـه أو جـده أو أى طائـر آخر لا يمت للعائلة بصلة ، ولكن الشىء المؤكـد ان التى معهـم هى أمهم ، وبهذا تستولى على عريشـة الذكر ، وتصبح استراحة لها وللاولاد ، ويبقـون فيهـا اسبوعا أو اسبوعين حتى يصيروا طيورا يافعة ، تستطيع الاعتماد على نفسهـا .

امـا ذكرنا الذى كـان قبـل ذلك دائـم المغازلـة والتـودد والصياح بما يستقبله من مواكب العذارى كـل مساء وصبـاح ، فقـد حل به القـرف ، وفقد الاهتمام ، وانطفـأت فيـه حـرارة الحفاوة ، ومظاهر الشقاوة ، وماله الان فى الغرام من مزاج ، فيطير ليتسلى مع سرب من أسرابـه ويتـرك الام مع عيالهـا ، ويـودع خميلتـه بصيحـة عاليـة ، وكأنمـا هو يقول « باى .. باى .. والى اللقـاء فى عام قادم » .. وبعدها أيضـا تتـرك الام والاولاد عريشة الغـرام ، وينفض المهـرجان ، ويخلو المكان ، بعـد أن كـان بمثابة ساحة عظيمة لأعظم واغرب واقدم « تكية » تقيمهـا الذكور للعذارى ، لتوضح لنا قصـة من قصص « هبالة الذكور » على اليابسـة !

ولننتقل الآن من تلك اليابسـة لنقـدم صـورة أخـرى غريبة من عالم الماء ، وفى الماء أيضـا يحـدث كـل ما هـو مثير وعجيب ، ولكننا لا نراه لاختفائـه عن عيوننـا !

• • •

ضيفنـا الجديد يمثل لنا نوعا من الاسمـاك التى تعيش فى أسراب أو جماعات ، وتختلط فيها الذكور بالاناث .. لكن بدو

معاكسات أو مغازلة ..وهذا النوع يسمى « أبو شوكة » .. وله فى الواقع ثلاث أشواك ، ولقد اختاره هواة أسماك الزينة لتربيته فى الاحواض .. والمعروف أن هذا النوع من الاسماك يعيش مع بعضه فى سلام ووئام ، لكن ما أن يحل فصل الحب والتزاوج ، وتظهر شرارته ، فانها تظهر دائما بين الذكور ، وعندئذ يتحول تجمع شملها الى فراق ، وصداقتها الى عداوة ، ووداعتها الى افتراس ، ولابد أن يهجر كل ذكر سربه الذى كان يعيش فيه ليهيىء لنفسه « كوشة » أو عش زوجية ليستقبل فيه عروسه ، فنراه يحفر بفمه فى الرمال ، وكأنما يشق فيها خندقا ، ثم يحضر الاعشاب المائية ، ويضع العشب بجوار العشب ، ويفرز عليه مادة لاصقة ، حتى تتماسك الاعشاب ، ولا تتبعثر بالامواج ، وفى النهاية — وبعد أيام من العمل المتواصل — نراه وقد اقام مخدعا مناسبا كالنفق الصغير ، لكنه يفى بالغرض الذى أنشىء من أجله .. فذكرنا هنا عملى ، وهو لا يميل الى تلك الامور التى يقوم بها طائر العريشة أو الخميلة .. المهم أن الذكور دائما هى التى تقوم بالتأثيث ، أما الاناث فليس لها فى « وجع » القلب نصيب ، فمن يريدها ، فليهيىء لها مكانا وليؤثث لها بيتا ، والا فلن ينال منها الا الاحتقار الشديد ، وكأنما لسان حالها يقول « حب ايه اللى انت جاى تقول عليه » (مع الاعتذار لأصحاب الأغنية) !

لو قدر لك واطلعت على ديار هذه الذكور من الاسماك ، لوجدتها متباعدة عن بعضها بمسافات مناسبة ، حتى لا تتداخل الملكيات ، ويحدث ما لا يحمد عقباه .. ذلك أن الذكر العريس لا يحب أن يرى عريسا آخر يدخل فى مجال كوشته ، والا كانت المعركة ، وقد يكون الذكران صديقين حميمين ، لكن الصداقة شىء ، والجنس شىء آخر .. غريبة

امور هذا الجنس الذى يكوى ذكور ذلك الكوكب بناره ، ويفعل بهـا كل هـذا العجب !

بعـد أن ينتهى العـريس من تجهيز كوشـة العـروس أو مخدعهـا ، يبدأ فى تزيين نفسه ، ليكون مهيـأ للمهمـة القادمة ، وليبـدو أمام العروس فى أكمل زينة ، وأروع مظهـر ، رغـم أن العروس هنا ليست مثله جميلـة ، كما انهـا لا تهتـم بنفسهـا مثـل ما يهتـم بنفسه ، ولكن الجنس قد يقلب فى عينيـه معايير الجمال ، وقـد يجعـل القبيح جميـلا ، فاذا انطفـأت شرارته ، ظهـرت الامور على حقيقتهـا .. وتلك مصيبـة كبـرى تشقى الذكور طـويلا ، وتسعدها قليلا ، وكأنمـا الانثى تخرج لسانها لهـا ، وكأنما حال لسانهـا يقول « تمام بريالة » !

طبيعى أن عريسنـا هذا « أبو شوكة » لا يعـرف شيئـا عن المساحيق المتعددة الالـوان ، ولا الكوافير ، ولا العطـور أو الملابس الجديدة ، ولا حتى « بدلة الفرح » .. لكن الطبيعة كانت معـه كريمة غاية الـكرم ، فلقد منحته أكثر ممـا منحتنـا أو حتى اكثـر مما منحت نساءنـا ، وياليتهن جئن مثلـه ــ مثـل أبـى شوكـة ــ بماكيـاج طبيعى ، عندئـذ لتبـدل حالنـا الى أحسن ، ولوفرنا جزءا من ميزانياتنـا وميزانيـات العـالم التى تضيع كـل يوم على أشيـاء تظهر ثم تزول بالغسيـل .. بلايين الجنيهات تصرفهـا نسـاؤنا سنويـا على زينتهن ، لكن والحق يقـال فهـن يتـزين من أجـل خاطرنا ، « ورزق الهبـل على المجانين » .. « ومن دقنه وافتل له » !

لكن « أبا شوكة » لا يمتلك شيئا مذكورا ، ومـع ذلك فا تحسدوه معشر الرجال والنساء على ما حبـاه الله من ماكيـا طبيعى يسر الناظرين .. ومـا أعظم الجمـال ــ جمـال جـا طبيعيـا ، لا صناعة فيه ولا تبرج !

عريسنا « أبو شوكة » كان قبل الزواج فتى لا يسر الناظرين ، فعلى ظهره سمرة وسواد ، وهذا ــ بلا شك ــ من ألوان الحزن والحداد ، ولابد من تغيير هذا اللون واستبداله بلون آخر أكثر بهجة وحبورا .. وقد كان !

فاللون الاسود الذى ينتشر فى خلايا ظهره يتجمع على هيئه بقع جد ضئيلة ، فلا تكاد تظهر وتبين ، وتنتشر بدلا منها مادة كيميائية اسمها جوانين ، ويتحول لون الظهر بعد ذلك الى زرقة سماوية بديعة بها شىء من لمعان كلمعان الفضة .. وبجوار ذلك تنتشر على جسمه حمرة باهتة « كالماكياج الباهت » .. فتزداد توردا واحمرارا ، ثم ينتقل الماكياج الطبيعى الى العيون ، فاذا بها تتحول من سواد الى بريق أزرق يسحر العيون ، وهنا يتبختر عريسنا فى الماء أمام كوشته ، وكأنما الطبيعة قد ألبسته حلة بديعة الالوان ، وزينته وقدمته لانثاه كتحفة فنية بارعة ، وكأنما هو يتبختر أمام كوشته ويقول « يا ماء .. ما فيك الا أنا » .

لكن الذى فعل فيه كل هذا مجموعة من الهرمونات ،من أهمها طبعا هرمون الجنس .. وهذا الهرمون العجيب يشتغل فينا أيضا بطريقة أخرى فيحولنا من نعومة الصبا الى خشونة الرجال .. وزينة الذكر منا هى رجولته وعقله .. وجيبه وما حوى ، ورصيده وما طوى !

نعود الان الى صاحبنا ذى الاشواك الثلاث ، وقد وقف كل ذكر امام كوشته ، وهو يتجول حولها فى انتظار وصول موكب العذارى ، ولكن قد يكون حظه نكدا أو « دكرا » ، وما نكده الا ذكر آخر من نفس نوعه ، وكأنما جاء ليسطو على كد غيره ، وعندئذ يقف صاحب الكوشة أمام داره ، ويهدد هذا الطفيلى أولا بفتح فمه عن آخره ، ثم تتصلب

أشواكه ، لتبدو كالسيوف المسلولة ، وكأنما هو بهذا الوضع يوحى الى القادم بأن عضته قد تبعث به الى الآخرة ، أو أن فى كل شوكة من أشواكه عزرائيل مقيما ، ولكن الذكر المهاجم قد لا يهتم بهذا التهديد ، عندئذ يقوم العريس بالاتيان بحركة غريبة ، فنراه يتجه براسه الى أسفل ، ويقف عموديا على الرمل وكأنه « خازوق » ، ثم يعبث بفمه فى الرمال ، والواقع أننا لا نعرف السر فى هذه العادة القبيحة التى قد تستمر فترة من الوقت ، ولكن الذى نعرفه انه يستمر فى ملاحظة الدخيل وهو بهذا الوضع المقلوب ، فان رآه لا يريد أن ينسحب من مجاله ، أو أن يبتعد عن كوشته ، انطلق اليه وكأنه صاروخ أرض جو ، ولابد أن ينتصر ، مادامت الملكية ملكيته ، والحق حقه .. ذلك أن الذكر الغريب جبان طالما هو بعيد عن داره أو كوشته ، ولقد أجرى العلماء بعض تجارب لتؤكد هذه الحقيقة ، وظهر أن من له بيتا أو وطنا ، يصبح أكثر جرأة ، وأعظم شجاعة أمام الدار ، فاذا ابتعد عنها ، أصبح جبانا .. ذلك أيضا صحيح فى طبائع البشر والكلاب .. فالغريب غريب الدار أو الوطن — كما يقولون !

المهم أن هناك بعض المعارك التى تحدث بين الذكور ، ثم تستتب الامور ، وتظهر فترات الحب والانتعاش ، وتبدأها الفتيات اللاتى يأتين سابحات متهاديات ، ثم تتجول هنا وهناك بين دور الفتيان ، وقد تقضى النهار فى التسكع والفرجة « والبصبصة » على موكب الذكور ، ومهرجان الذكور ، وهى الذكور التى يسعدها حضور هذا الحشد العظيم من العرائس التى جاءت الى عرسانها حوامل ، رغم انه لم يطمسها قبلهم انس ولا سمك ولا جان ، ولكن الاسماك حوامل « بالبطارخ » التى تمتلىء بيضا ، والبيض يحتاج الى تلقيح ، والتلقيح لا يتم

هـكذا فى الخلاء ، بل لابد من تجهيز فـراش للزوجيـة ، ومن لا فراش له ، فلا حق له فى اجتماع جنسى بالانثى ، ولا حب ولا ذريـة .. لكن اجتماع الذكور بالاناث ليس جماعا بالمعنى المفهوم فى عالمنـا أو عالـم الحيوانات الاخـرى ، ذلك أن الذكـور هنـا تضـع اناثها فى الكوشة (أو فراش الزوجية) فى وضع مناسب ، ثـم تدغدغهـا وتلاطفهـا حتى تقـذف بويضاتهـا فى المـاء .. وبالتحديـد فى الكوشة التى تصبح فى الحال مهدا للانجال ، ثـم يقذف الذكر بخلاياه الجنسية بالملايين ، ويتوه منها ما يتـوه ، والقليـل يهتدى الى بويضاته فيلقحهـا .. وكـل هـذا يعنى أن « أبـا شوكة » ليس له مؤهلات ذكورة ، ولا للانـاث مـؤهلات أنوثة ، ومع ذلك فكـل مخلوق قد يجد سعادته فى أشيـاء قـد لا تعجبنـا ، وسواء أعجبتنا أو لـم تعجبنا ، فان موكب الجنس والحياة لا يزال يسير على هذا الكوكب منذ مئـات المـلايين من السنين بتخطيط عظيـم ، لا خلل فيه ولا فوضى ، وما أكثر الخلل والفوضى التى يعيش فيها أصحاب العقول !

•

نحن الان فى المـاء أمام ذلك المهرجان الممتع .. للفتيـات الحوامل الدلال والتمنع ، وللذكـور الرقص والتـودد ، الا أن رقصة الذكر هنا لهـا أصول ، وتسير على تقاليـد شرحها قـد يطول ، ولكنهـا تعنى بالنسبة للانثى أشياء قد لا نفهمها نحن فى لغـة هذا العالـم الذى يسكن الماء .. فهى نـوع من السـلوك الذى قـد تحكـم به الانثى على الذكر ، وفى عالمنـا نحن توجـد أيضـا القصة نفسهـا ، فكثيرا ما نسمع من سيداتنا وفتياتنـا نفس الـحكم علينا ، فيقلن « يا أختى سيبك .. دا بلدى قوى » و قـد يقـال « دا جنتـل ولطيف خـالص » .. ورغـم أن البلدى » ـ نسبة الى بلدنـا وتقاليدها ـ لا يعجبهن ، ومنه ـخرن ، الا أن ذلك قـد يعجب الذكور فيقولون عنهن « البلدى ـوكل » .. وهى لا شك أصالة من الذكور !

المهـم أن الفتى الواقف أمام الكوشة ، اذا ما راي مـوكب العرائس يخطر ويتهـادى ، فانه ينطلق نحوه وهو يثب فى المـاء وثبة من وراء وثبة ، كوثبتنا نحن على الارض من فرط السرور ، ولكنـه يكر الى كوشته عائدا ، وكأنما هو يفر منها هاربـا ، أو ربمـا ليرشدها الى طريق كوشته ، لسنـا فى الواقع ندرى ، ثـم سرعان ما يدور متجهـا اليهـا كسهم مارق ، وفمه على آخـره مفتـوح ، وكأنما هو يريد أن يقضم العرائس قضمـا ، وتتـكرر هـذه الحركات التى قـد تنفر منه بعض الفتيات ، وربمـا لو تحدثن كفتياتنـا لقلن « ياسم على شكلك وعلى بقك المفتوح » .. المهم أن مجرد وجود موكب الانـاث ، يطلق فى الـذكور شرارة الهبالـة ، وكأنما هى قد فقدت عقولهـا أن كان لها عقول ، وتبقى الفتيات فى حركاتهن « ثقيلات » وكأنما « يتمنعن وهن الراغبات ».. لكن ممـا لاشك فيه أن بعضهن قـد يكون لديها الاستعـداد ، فمن ارادتـه منها ، واعجبتهـا حركات ذكر من ذكورها ، فانهـا تسعى اليـه ، وتتخـذ وضعـا متعامدا عليـه ، وهـذا يعنى الرضا والقبول ، وبسرعة يتجه الذكر الى كوشته ، ومن ورائـه الراغبـة ، وهناك يريهـا طريق الفراش ، فيضـع راسـه على عتبة الـدار ، وكأنما يشير اليهـا أن تدخل فيهـا ، فتدخـل برأسهـا حتـى تبـرز مـن الناحيـة الاخـرى ، ويقف الذكر خلفهـا ، ليدغدغ ذيلهـا ، فترتعـد الانثى رعدة خفيفة ، وكأنمـا هى به نشوى ، فتضع بويضاتهـا فى الفراش ، وبعـد أن تنتهى يدفعهـا الذكر لتخرج الى غـير رجعة ، ثـم يدخـل الى داره ، ليلقح البويضات ، ويثبتهـا فى مكانهـا ، ثـم يصلح مـا قـد تهدم نتيجة لرعونة فتاته !

ويعود الذكر لينتظـر موكب الاناث من جديـد ، ويـكرر الطقوس نفسهـا ، فتتبعـه الى الـدار أنثى ثانيـة ، وربمـا ثالثة ورابعة ، حتى تتكدس كوشتـه بعدد كبير من البويضات ،

وحسنا أن تكون له ذرية كثيرة .. فلا مدارس هناك ولا مواصلات ولا ملبس ولا مصاريف ولا مسئوليات جسام كالتى تقابلنا نحن من جراء تكدس السكان .. فزيادة الثروة السمكية والحيوانية نتيجة لكثرة الذرية يعنى خيرا لنا ، ورخصا فى الاسعار ، لكن يبدو اننا نتناسل بأسرع مما يتناسل السمك والطير والمواشى ، ولهذا زاد العرض فى البشر ، وانخفض فى اللحم ، فرخص البشر ، وارتفع سعر اللحم والسمك .. لكن دعنا من كل هذا ، فالكلام فيه يطول ، ولنعد الان الى ذكرنا ذى الاشواك الثلاث ، فهو الذى يقوم برعاية الاطفال ، أما الامهات فقد تركن له الحبل على الغارب ، وذهبن للتجمع من جديد فى أسراب ، ويبقى كل ذكر أمام كوشته ، وقد فقد كل اهتمام بفتياته ، وبهذا تختفى دوافع الجنس تدريجيا ، وتحل محلها دوافع الابوة الرحيمة ، والرعاية المستديمة ، فيقف كل أب أمام داره ، ليدفع الماء بزعانفه ، فيمر من خلال مهاد الانجال على هيئة تيارات حاملة معها أمدادا مستمرا من الاوكسيجين المتجدد ، ويستمر الاب على هذا الحال أسبوعا كاملا ، حتى تفقس البويضات فى اليوم الثامن ، ومنها ينطلق الصغار ، لكنها لا تبرح مكانها الا بعد يوم كامل ، ثم تخرج من مهادها لتجد أباها واقفا فى انتظارها ، وهنا تبدأ متاعبه الحقيقية مع شقاوة الصغار ، فقد يبتعد احدها عن أخوته ، فينطلق أبوه وراءه ، ويلتقطه بفمه ، ثم يعود به« ليبخه » بين اخوته .. كما أن رحمة الابوة قد تنقلب الى قسوة وشراسة ، اذا ما حل بمجاله ذكر آخر أو أم الاولاد ، ذلك أن الام هنا قد تأكل أولادها لولا يقظة عين الاب التى لا تغمض ولا تنام ، وهكذا تستمر التنشئة والحراسة لأكثر من خمسة عشر يوما ، وبعدها يكبر الاولاد قليلا ، ثم يبدأون فى التجول هنا وهناك ، لكن عين أبيهم لازالت عليهم حارسة ، وتمر الايام ، كبر الصغار ، وتتلاشى عاطفة الابوة شيئا فشيئا ، كما يبدأ فى

التخلى عن زينتــه وماكياجــه الطبيعى يوما بعد يــوم .. وكما بــدأ عــاد !

وفى النهايــة يعرف أن الاولاد ليسوا فى حاجة الى الرعاية ، فهــا هو يراهم وقــد لجــأوا الى التجمــع مــع أسراب الاولاد والبنات الأخريات ، وهذا يعنى أنهــم قد بدأوا فى الاعتمــاد على انفســهــم ، وقــد يقف كل أب ليلقى نظرة أخــيرة على أولاده ، وكأنما هو يتمنى لهــم ما يتمناه كل أب لابنائه ، وبعدها ينطلق الابــاء ليلحقــوا بالاسراب التى تناسب سنهم ، وينطلق الاولاد فى أسراب أخرى ، وهكذا ينفض المهرجــان ، وتبقى الكوشــات مهجورة ، ويحــل بها البلى شيئا فشيئا ، ولكن لابد أن تعــود يومــا ، لتحكى لنــا قصة رائعــة من قصص حيــاة لا نراهــا ، ومــا أكثر ما لا نرى ، ومــا أعظــم ما نجهل !

وأخيرا .. فلتصفقوا معنــا لهذا الذكر ، فلقــد أثبت لنــا عظم المسئولية ، وجلال الرسالة ، ولو كــان الامــر بأيدينــا ، لأقمنــا لــه عيدا !

• • •

ولنترك الآن عالــم الخنافس والاسماك والطيور والــكلاب والحمير ، ولنقفز فى سلــم التطــور قفزة كبيرة ، لنعيش بضــع دقائق مع أقرب أنواع الحيوانات الحية الى الانســان .. ممثلة فى القردة العليا (الشمبانزى والغوريلا والاورانج أوتــان أوانسان الغــاب) .. وفى القرود الدنيــا ذات الأنواع التى يباعد بيننــا وبينهــا مراحل تطوريــة عمــرها عشرات الملايين من السنين .. بعضهــا ليس له ذيول مثلنــا ، وبعضها بذيول !

ولنأخذ واحدا من هذه الانــواع كمثــال ، وليكن القــرد اليابانى ، وسبب اختيارنــا لهذا النــوع أن له تركيبــا اجتماعيا معقدا ، كما أن مجتمعاتــه قــد درست بشىء من التفصيــل ..

ولننقل الان فقرة من مقال بعنوان « سلوك الذكر عند الحيوانات العليا ونظيره عند الانسان » (۱) « حيث يذكر مؤلفاها »أن التركيب الاجتماعى للقردة اليابانية قد ينعكس فى انتشارها المتسع عندما تهدأ المجموعة وتستقر فى مكان الغذاء حيث تتكون فعلا حلقات اجتماعية فتحوى الحلقة الداخلية الصغار من كلا الجنسين مع جميع الاناث التى تتمتع خلال حياتها بالمزايا الخاصة فى هذه الدائرة الداخلية ، فتكون أول من يتناول الغذاء ، وتأخذ مكانا أمينا وسطا كلما تجولت المجموعة ، ويرجع الفضل لهذا الوضع المركزى الاستراتيجى عندما تتمكن الاناث من ممارسة نفوذها الهام فى التنظيم الاجتماعى .. ويكون اساس التنظيم دائرة داخلية واخرى خارجية مع بعض الذكور المنعزلة وطريدة الجماعة ، وهذه تبقى خارج الحدود ، وعند التحرك تأخذ الذكور التى تعد فى المرتبة القيادية الثانية أماكنها فى مراكز أمام الجماعة وخلفها ، وتبقى نسبة ضئيلة من الذكور اليافعة فى الحافة الداخلية ، وذلك بعد أن تكون قد قضت سنوات خارج حدود منطقة الجماعة ، فبعد بلوغها العام الثانى من العمر تخصص الذكور اليافعة لحراسة الحدود الخارجية لمنطقة الجماعة ، وتخدم فى عمليات الاستكشاف أثناء السير ، واخيرا قد يرقى الذكر الى رتبة مساعد قائد ، وعندئذ يعيش على حافة الدائرة الداخلية ، ويقوم برعاية الاناث الاقل مرتبة عند حدود المنطقة مراعيا عدم ابتعادهن أو تخلفهن بعيدا أثناء سير الجماعة ، وفى النهاية قد يدخل الذكر وسط الدائرة ، ويعيش هناك كقائد لها

---

(۱) مقال ترجمه الدكتور عماد الدين أبو النصر – الأستاذ بكلية العلوم – جامعة القاهرة فى الطبعة العربية من مجلة العلم والمجتمع .. تأليف كلير راسيل الإخصائية فى التحليل النفسى ، م . س . راسيل أستاذ البيولوجيا الاجتماعية (مطبوعات اليونسكو) .

يتحكم حتى فى تحركـات الانثى البارزة فى الجماعـة ، ولا يخرج الا فى حـالات الخطـر عندما يستـرد الاشراف من مساعديـه ، وتتقبل الاناث عادة رعاية الزعماء من الذكـور ، ولو انـه نظرا لان لهـا السلطـة والتحكم فيمن يدخل منطقة الوسط .. فكثيرا مـا تحدد أى الذكور تكون له الزعامـة ، وكثيرا ما ترفض دخول الذكـور الشرسة المتهجمة ، وفى احدى هذه الجماعـات ثـارت القردة ضد الزعيـم الذكر وعزلته ونصبت بدلا منه أبرز الاناث زعيمـة للجماعة كلهـا ، ويبدو أنهـا قامت بـوظائف الزعامـة الطبيعيـة .. وهكذا تكون « دولة الحريم » فى مجتمعات القرود .

ويبـدو لنـا هنا سؤال وجيـه : ما هى مؤهلات الذكـور المحظوظـة جـدا حتى تختارها الانـاث ذوات المكانة المرموقـة فى وسط الجماعـة ؟

والجواب كمـا يجىء فى مقالة راسيل وراسيل « لقـد عرف عن هذه الذكـور أنهـا تحسن القيام برعايـة الصغـار ، وأنه نتيجة لهذا تحصل على مراكز أفضل بين الجماعة ؛ وتدعها الاناث لتأخذ لهـا مكانا فى الدائـرة المركزيـة ، وعندمـا تـكون الاناث على وشك الوضع تترك أحيانـا الصغار من نتـاج العام السـابق فى حضانـة الذكـور لتحضنهـا وتحملهـا وتنظفهـا وتحميهـا » !

ولنجعـل التعليق على هذا الموضـوع من عندنـا هـذه المـرة .. فالاناث ذات المراكز المرموقـة فى عالم القرود تختـار الذكور القويـة فى آن ، والمطيعـة فى آن آخـر ، وكأنمـا قـد ضربت عصفورين بحجـر واحـد ، فاذا اظهـر القـرد التمـرد ضربته وطردتـه من الجماعة .. أى أن الذكر لابـد أن يكون ذا فائـدة ومزايـا كثيرة حتى يكون مرضيا عليـه .. فالضعيف فى عالـم القرود ليس مرغوبا فيـه ، والقوى مرغوب فيه لقوته ،

لانـــه سيورث هذه القــوة للاجيال القادمة ، كما أنـــه يستطيع أن يحمى الجماعة ، وفوق كل هذا فلابد أن يساعد الاناث فى تربية الصغـــار .. أى أنـــه يشتغـــل عنـــدهن « دادة » .. ليكـــون مرغوبـــا فيـــه !

هذا الفعل نفسه يظهر فى بعض مجتمعات البشر ــ خصوصا المجتمعات التى يصبح فيهـــا للمـــرأة العاملة مكان مرمـــوق .. فالزوج المطيـــع أفضل عندها من الزوج الذى يظهر عليـــه التمرد والانفة من المشاركـــة فى أعمال البيت ، بحجـــة أنه رجـــل .. عندئذ قد تلعنـــه سرا أو علنـــا ــ على حسب قدرتهـــا فى كبـــح جماحه .. ونحن شخصيـــا نعرف عددا لا بأس بـــه من الازواج الذين قـــد يشاركون فى أعمال البيت عموما ــ بما فى ذلك المطبخ .. وقـــد تفخر الزوجات بذلك ، وكأنما الزوج الذى يعرف شيئـــا عن التدبير المنزلى أفضل ممن لا يعرف شيئـــا ، وقـــد تسمـــع منهن هذا التعليق أو شيئا قريبـــا منه فيقلن « دا جوزى أمـــير ومتعاون وبيموت فى حبى خالص » ! .. ولو علمت حقيقـــة مـــا يجـــرى فى نفســـه لضربتـــه علقة ساخنة كل صباح ومساء !

ما أشبه بعض اناث البشر ببعض اناث القرود !

ولنـــا مع القـــرود عودة !

ذكور تتودد .. وأناث تتدلل!

لو أنك لاحظت طوفان البشر ومجتمعاته ، ثم تأملت سلوكه ، ودرست تصرفاته ، لاستطعت أن تحكم من منه قد تزوج ، ومن منه لا يزال فى مرحلة الخطوبة والعسل والحب .. أو ما فوق ذلك ، أو ما دون ذلك .

والذين ليست لديهم حنكة أو فراسة ، فسوف نيسر لهم سبل الملاحظة والدراسة ، ولنأخذهم معنا الى مكان ، وليكن ذا جو شاعرى يوحى بالبهجة والبشر والسرور والحب ، ولنراقب ــ بوعى ــ سلوك البشر من الجنسين (أى الذكر والانثى) ، وهم يتوزعون على موائد تنتشر بين الزهور ، وفى ظل الخمائل والاشجار ، ولنتخير من يجلسون مثنى مثنى ، وليكونوا من الشباب أو متوسطى السن ، ولا شأن لنا بمن هم فى سنى الشيخوخة والكهولة ، فلهؤلاء أحكام لا تدخل ضمن تلك الدراسة .. فماذا سنرى ؟

قد نرى فتورا .. أو قد نلحظ حبورا ، أو ما بين ذلك تكون الامور !

فاذا رأيت الذكر يتكلم كثيرا ، والانثى قليلا !

واذا لاحظت أنه يميل ويقترب منها باعا ، وهى تتمنع بدلال وتبتعد عنه ذراعا !

واذا شاهدته وكأنما هو فيها قد ذاب ، وعن الوجـود قـد غاب ، أو كأنما ليس فى الدنيا غيرها ، ولا يرى فيها أحدا سواها !

ثـم اذا رأيتهـا وهى تنطلع اليه ، مركزة عينيها عليـه ، ثـم تهز رأسهـا بخفة ورشاقة ، وكأنما هى تـوحى لـه بأنهـا بوجوده نشوانة (أو ربمـا غير نشوانة .. ويكون كله تمثيل فى تمثيـل .. فالانسان مخلوق غريب ، يتسـاوى فى هذا الذكـر والانثى ، وان كان الذكـر فى هذا المجال أضعف) !

اذا رأيت هـذه العلامات البسيطة ، فاعلم ــ يا صاح ــ ان هـذا الذكـر لا يزال فى مرحلة التودد على الطريقة البشريـة ، ولا تزال الانثى فى طور الدلال والتدلل على الطريقة الحوائية .. والتودد والتدلل يحملان صاحبيهمـا غالبا الى القس أو المأذون ، فهـذه الجلسـة الحلوة تؤكـد أنهمـا لا يزالان فى أول الطريق ، وأنهمـا فى دور الحب والهيام ، حيث يقضيان أسعـد الايـام ، وبعدهـا ستحل المسئوليات الجسـام .. يروح العسل ، ويأتى البصـل ، وكذلك يعبرون ويصفون !

ولنتجول بعـد ذلك بعيوننـا الفضولية (وليغفر الله لنـا هـذا التأمل البرىء والدراسة العابرة) ، ولنلتقط مشهدا آخر غير بعيـد .. ذكـر يجلس ساهما ، أو يقـرأ جريدة أو كتابا ، وانثى معـه تشتغل « تريـكو » أو تحيك فستانا .. الكـلام قليـل « وبالقطـارة » ، وأن كان كلام الانثى هذه المرة أكثـر ــ نسبيا ــ من كـلام الذكـر ، ومع ذلك فالجلسـة راكدة باردة ، تخللهـا التثاؤب وعدم مبالاة أحد الطرفين بالآخر !

اذا رأيت هـذه الحالة التى تشبه تليفونا مقطوع الحرارة ، فاعلـم أنهما متزوجان .. ربمـا حديثا أو لبضع سنين أو أكثـر من ذلك قليـلا !

ولا تعليق لدينا عما يجرى على هذه المنضدة أو تلك ، فنحن فقط ننقل صورة .. ربما تراها فى شارع أو فى ترام أو فى كازينو على شاطىء البحر الواسع ؛ أو على شط النيل العظيم !

لكن .. ما أعجب المفارقات بين جلسة وجلسة ، وحياة وحياة !

وما اعجب المفارقات أيضا فى معرض الجنس والحياة .. فالغزل والتودد الذكرى ، والدلال والتدال الانثوى ، ثم هذه العاطفة والآمال المتقدة ، او ذلك الركود والبلادة الظاهرة ، ليست الا أمورا لها جذور عميقة تمتد الى الوراء عشرات الملايين من السنين ، وتنبثق أساسا من تودد وتدال ظهر فى عالم الحيوان ، ثم ورثه ذلك الانسان الجالس فى كازينو على شاطىء النيل ، او فى الخلاء تحت شجرة توت او تين !

لكن الانسان مخلوق ذكى خبيث ، فتارة يظهر غير ما يبطن ، وتارة أخرى لا يستطيع أن يفهم ذاته ، ومن هنا كان سلوكه معقدا .. فكل فرد منا ليس الا عالما قائما بذاته ، فلا يتشابه مخلوق مع مخلوق آخر فى الصفات والبصمات والسلوك والطباع والفكر والمزاج .. الخ ، كما أن كلا منا يتودد على طريقته الخاصة ، وللنساء التدلل على طريقتهن الخاصة أيضا .. وقد يكون التودد والدلال ساميا ، أو قد يكون حقيرا .. أو ما بين ذلك تكون الامور !

وطبيعى أن يكون لكل منا قصة حب أو زواج أو ربما قصص كثيرة ، ومن هنا لا نستطيع أن نتعرض لكل هذه « التابلوهات » الحية المعقدة ، والاحرى بنا ــ اذن ــ أن نلجأ الى صور أبسط من التودد والدلال ، بلا لف أو دوران ..

ولنتــرك مجتمعــات البشر ، ولنلجــأ الى عالم الحيوان .. ففى تودده ودلالــه بساطة فى الاداء ، ولقــد رأينــا بعضــا من هــذه الصور مع ابى جلمبو وطائر العريشة وذكر السمك ذى الاشواك الثلاثة .. الخ ، الا أن القصة لم تنتــه بعد ، ولنتعرض لفصول أخــرى ، ليتبــين لنــا كيف نبعت عاداتنــا فى الاستعــراض والتــودد للأنثى !

والواقــع أن تودد الذكــر ، ودلال الانثى ظاهرتان واسعتا الانتشار فى مملكــة الحيوان ، فالذكر دائما يستعرض ويتقرب ، والانثى تدرس وترقب ، وقد ترفض وتقبل .. ولكــل نوع من الانــواع تقاليــده وسلوكــه مــع أنثــاه ، وغالبــا مــا تــكون للانثى قدسيتها واحترامهــا بين الذكور ، فقد يهين الذكر ذكــرا مثلــه أو قــد يقتلــه ، لكن ذلك لا يسرى على الانــاث .. فهن فــوق العــين والــراس !

هل لاحظت مثــلا حيــاة ذكر من الحمام مع حمامته ؟ .. هــل رايت كيف يطــوف حولهــا ، ويتمســح بهــا ، ويكنس الارض بذيلــه الذى انفرد على آخره ؟ .. ثــم هــل سمعتــه وهــو يغنى لها أغنيــات ذات مقاطــع يستحــق عليهــا ضرب النعــال ؟ .. طبيعى أنه فى أدائــه وغنائه واستعراضاتــه التى قــد تستمر ساعات طويلة (ويــا للصبر !) يظن نفســه الفتى الاول والمطرب الاول فى عالمــه الذى فيه يعيش ، أو انه ليس فى الامــكان أحسن ممــا كان ، ثم قد تــراه وهــو يسرع اليهــا ، ليدغدغ راسهــا بمنقاره ، وأحيانــا ما تسول له نفسه شيئا ، فيضــع بسرعة شفتاه على شفتيهــا (نقصــد المنقار) ، وكأنمــا هو يقبلهــا على طريقته الخاصة .. وبالاختصار سوف تشاهــد ذكــرا ودودا متدلهــا فى حب « زوجته » التى لا ينفصــل عنهــا ولا تنفصــل عنه الا بالموت ، ومع ذلك فكما بــدأ معهــا حياتــه بالحب والتودد والاهتمــام ، فانه يستمر فى مغازلتهــا هــكذا

دون أن يكل أو يمل أو يتثاءب أو يشرد ببصره الى الافق البعيد ، كما يفعل ذلك الجالس مع رفيقة حياته فى كازينو الحمام على النيل !

درس عظيم يلقنه ذكر الحمام لذكور البشر .. وحمدا لله أن نساءنا لا يرقبن ما يجرى هناك فى « العشة » فوق السطوح ، وعندئذ قد تكون مصيبتنا معهن ثقيلة وفادحة ، وقد تذهب احداهن يوما الى ساحة القضاء ، وقد تقول : هذا الذكر .. ذكرى ، لا يساوى ذكر حمام .. لقد كان قبل الزواج شيئا مذكورا ، وبعد الزواج شيئا غير مذكور !

ولها فى ذلك كل الحق .. ولتحيا ذكور الحمام ، وليسقط ذكور البشر !

ومع أن معظم ذكور الحيوان أجمل من اناثها ومع أنها أكثر جاذبية ، وأغنى ألوانا ، وأضخم بنيانا ، وأعظم جلالا ووقارا ومع أن اناثها أقل منها فى هذه الامور منزلة (عدا اناث البشر بطبيعة الحال وكما يروق ذلك فى عيوننا لا فى عيون غيرنا) ، الا أن الذكر الحيوانى لابد أن يتباهى بفخامته ، ويستعرض مؤهلاته ويؤدى طقوسه ، ويقدم تودداته واحتراماته ، وعلى الانثى أن تتدلل .. حتى ولو كانت قبيحة المنظر .. حقيقة نسوقها لبنى جنسنا ــ عالم ذكور البشر ، فلابد من التودد اليهن بما تيسر .. كلاما كان ذلك أو هدايا أو نقودا أو مسا ولمسا وقبلا وحبا وغراما وجنسا .. فالانثى ــ بلا شك ــ تحب كل ذلك أو بعضه ، ولكل واحدة منهن مزاج ، فان توصلت انت الى لغزها وحقيقتها ، ثم استخدمت السلاح المناسب الذى يرضيها ، فاعلم أنك من المقبولين ، وأن كنت غير ذلك ، فانتظر أياما عبوسة قمطريرة ، ونكدا وهموما كثيرة !

صاحب الجلالة الاسد أعظم بهاء من اللبؤة .. الطاووس أروع وأبدع من الطاووسة ، التيس (ذكر الماعز) والكبش والديك والقرد والغزال والوعل وذكر الحمام والسمك والعصفور .. الخ .. ، كلها ذكور ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ اجمل بكثير من اناثها .. وعليك أن تراقب الديك وهو يصيح ويتبختر ، والطاووس وهو يدور حول الانثى ويستعرض ، وذكر الحمام وهو ينفش ريش ذيله على الارض كالمروحة ، والكبش وهو يتجول بين نعاجه ، والتيس وهو ينازل غيره من التيوس حتى لا تعتدى على حريمه .. ومن هنا فقد اتخذه الشاعر الاحمق كنموذج حى ليمدح به أميرا من الامراء ، فقال !

أنت كالكلب فى حفاظك للود
وكالتيس فى قراعك للخطب

وعندئذ لم يعجب الامير أن يكون تيسا أو كبشا أو كلبا ، فأمر بضرب الشاعر علقة ساخنة .. وللامير فى ذلك بعض الحق ، لان الخروف أو الكبش أو التيس لا يعرف كيف يغازل انثاه ، ولا كيف يتودد اليها (طبعا لانه تيس أو خروف ، ولانه ايضا ذكر اهبل) ، وربما نبعت السبة من هنا .. رغم انها ليست سبة كبرى ، اذ لو لاحظت التيس وهو يدافع عن معيزه أو اناثه ، لكبر التيس فى عينك ، ولربما صغر امامك بعض ذكور البشر وهانوا !

والواقع أن أكثر صور الغزل والتودد والاسترضاء ـ بالحركة والنغمة واللمسة ـ تنتشر بين ذكور الطير والسمك انتشارا واسعا .. لكنها بين ذكور الطير أكثر جاذبية ، واجمل اداء .. ويبدو أن الاستعراض والتودد وما شابه ذلك له تأثير سحرى على الاناث ، لانه ـ فى الواقع ـ يغير فيها فسيولوجية الجسم ، ويثير هرموناتها ، ويهيئها للدخول مع الذكور فى عمليات الاخصاب .. ففى اناث الحمام مثلا

يتضح أن تكوين البيض يمر على الاقل بمرحلتين ، المرحلة الاولى : وفيها يتجمع زلال البيض ببطء شديد ، وفى المرحلة الثانية : تزيد بسرعة تكوين البيضة حوالى عشرين ضعفا ، وفى هذه المرحلة تظهر تغيرات أساسية وجوهرية فى كيمياء جسم الحمامة (أو غيرها من طيور) .. فيزيد تركيز السكر فى الدم ، وتتضخم الغدة فوق الكلية (الغدة الكظرية) مع غيرها من غدد تشارك بنصيب فى العملية ، ويسرع الكبد بتكوين برونينات خاصة لتساعد فى مكونات البيضة .. الخ ، ويقال أن فترة التودد من الذكر والتدلل من الانثى (فترة الخطوبة عندنا) تلعب دورا حيويا ونفسيا فى الاسراع بهذه العمليات البيوكيميائية ، كما قد تسرع أيضا بذكور البشر الى دخول عش الزوجية !

والذين درسوا الطبيعة الحية يقدمون لنا صورا رائعة وبديعة لهذا العالم المثير .. عالم الطيور .. انه عالم يقف قبلنا على ساقين ، ويشترك معنا فى رقصات فردية وجماعية ، ولو شئنا الدقة لقلنا أننا نحن الذين نشترك معه فى رقصاته . فلقد سبقنا فى الظهور على هذا الكوكب بعشرات الملايين من السنين !

ولنأخذ طائر الزرزور الوردى Rose-coloured starling ، حيث نراه مع انثاه فى وضع فردى .. وحولها يدور راقصا فى خطوات قصيرة وسريعة ، والريش يهتز ويقف وينثنى ، ولها أيضا يزقزق ويغنى ، وكأنه فى هذا يقلد احد افراد قبائل الماو ماو ذوى الرقصات التشنجية المصحوبة بصحيات الحناجر ودقات الطبول ، والانثى عن صاحبنا الذكر لاهية ، ويجن جنونه أكثر ، ويرقص أسرع ، ويتشنج أعظم ، علها ترق لحاله ، وعندئذ قد تلتفت اليه بطرف عينها ، وقد تجد فى رقصته شيئا من الاثارة ، فتستجيب له بعد اهمال ، وتدور حوله .

ويدور حولها ، ويزقزق هو لها ولا تـزقزق هى لـه ، وشيئـا فشيئا تشتد حرارة الرقصة ، ويسرعان فى اللف والـدوران ، وفجأة يلحق بها ، ويقفز عليها ، ويروحان فى لحظة عسل حلوة ، وبعدهـا تتكرر الرقصة الفردية .. رقصـة التـزاوج ـ كمـا يطلق عليهـا العلمـاء .

الا أن هناك رقصة تبدأ فردية ، وتنتهى برقصة جماعية ، ويؤديها أحـد أنواع الطيور البحرية الكبـيرة المعروفـة باسـم الجونيس (أحـد أنواع طيـور الباتـروس Albatross) .. وفيها يقف الذكر وجها لوجه امام الانثى وجناحاهما مفـرودان قليـلا ، وحولهما تقف مجموعة من الصحاب فى حلقـة واسعـة لتنطلق منهـا الصيحات « وطقطقـات » بالاجنحة تشبه التصفيق الذى نقـوم به نحن معشر البشر عندمـا « ننسجم » من جسـد راقصة تتلوى على خشبة المسرح كالحية . فنساعدها ونشجعها على المزيـد .. وكلما اهتزت اكثـر ، وتلاعبت بجسدها أعظم ، كلما انطلقت الصيحات ، وسالت الريالـة ، وزاد التصفيـق .. وعلينـا أن نعود الان الى هـذا الحفل الراقص ـ حفل الطيور !

فى البداية .. يرفع الذكر والانثى رأسيهمـا الى السماء ، ثـم يحنيانهمـا بسرعة الى الارض ، ليرفعاها من جديـد نحـو السمـاء ، وفيها يحتك المنقار بالمنقار ، وكأنهمـا يتبادلان قبلة سريعة قد لا تلحظها أعين الفضوليين ، وتعـود رأس الذكـر الى الارض مارة تحت جناحـه الايمن تارة ، ثـم الى السمـاء تـارة أخـرى ، وبها يعود الى الأرض مارا تحت جناحه الايسر ، وكذلك فعل الانثى ، وفى كل مـرة يتجهان فيها نحـو السمـاء ، يحظيان بقبلة » خاطفة ، وتزيـد سرعة أداء الرقصة شيئا فشيئا دون ن تختلف حركة الساق مع السـاق ، ثـم تزيد تبعـا لـذلك حفاوة أفـراد الحلقة ، فتصيح الطيور صيحات أعلى ، وتصفق تصفيقا أقـوى ، وكأنما قد حلت بها نشوة كبرى ، وقـد يـدوخ

الذكر أو الانثى دوخة عظمى ، فينسحب من داخ ، ويبقى من صمد ، واليها يسرع أحد الطيور فى الحلقة ليرقص معها جولة أخرى ، وقد تنتشر عدوى النشوة بين ذكور الحلقة واناثها ، فيأخذ كل ذكر منها أنثى ، تماما كما يحدث عندنا فى حلقات الرقص ، اذ تبدأ الرقصة بسيدة وسيد ، ثم تتوافد على الحلقة جموع الراقصات والراقصين مثنى مثنى ، وتهتز الاجساد هزات حمقى . ثم تلتف الذراع على الذراع ، وتصطك الساق بالساق ، وعلى أنغام الموسيقى ، وخفوت الاضواء ، وحلقات الدخان ، « وجو » الشراب ، وحرارة الانفاس ، تشتغل الغدد وتنطلق الهرمونات فى دماء البشر ، كما تنطلق أيضا بين الطيور ، وكل مخلوق بطريقته مفتون ، ولا جديد تحت الشمس ــ كما يقولون !

ثم يقدم لنا واحد من علماء الطبيعة الحية ــ ادموند سيلوس ــ صورة أخرى لنوع من الطيور (رف Ruff) التى تتميز ذكورها فى فصل التزاوج بوجود اطواق ريشية بديعة الالوان حول رقابها ، وكأنما الطبيعة تزين عرسانها بعقود طبيعية جذابة ، علها تجعل الذكور فى نظر الانثى مقبولة .. ولقد ظل سيلوس يراقب سلوك هذا النوع فصلا كاملا من فصول السنة .. ففى فصل الربيع ــ فصل الحب والزهور والدفء والتفتح والهرمونات ــ توزع ذكور هذه الطيور أنفسها فى مناطق معينة تنتشر فى المروج الخضراء ، واطلق على كل منطقة اسم « التل » ، لانها ترتفع فوق سطح الارض عدة اقدام ، وعلى كل تل يعيش ما بين ستة الى عشرين أو ربما ثلاثين ذكرا ، وتقوم كل مجموعة منها بأداء طقوس راقصة تدور فيها دورات مجنونة ، وتهتز هزات محمومة ، وكأنما هى جماعة من جماعات الدراويش المخبولة ، وأحيانا ما تتظاهر بأنها تدخل مع بعضها فى الصراع أو التقاتل أو الملاكمة ، ولا شك أنها تقوم بهذه

الحركات « الصبيانية » علها تنفع فى جذب الانثى ، أو على الاقل تثير انتباهها . . وقد تحل « ريف » أو « ريفات » منها ضيوفا على أحـد التلال (ريف Reeve وريفـات Reeves انثى هـذا الطائـر المعروف بـرف)، وهنا يتغير النظام ، ولابد للفتيان من القيام بجولة أخرى من جولات الاستعراض ، وبها يتـوددون لى اناثهم ، علهـا تختار ما تشاء . . فالامر أمرها ، والحكم حكمها ، بلا رحمـة ولا استثنـاءات !

وعندما تحل ريف على تـل الذكور ، فان كـل ذكر منها يتخذ وضعـا غريبـا ، وكأنما هو على الارض يسجـد ، أو على سطحها ينبطح ، أو كأنمـا هو مستسلم لقضاء الله وقدره ، نـوع غريب من التـودد . وفى هذه الاوضاع الغريبة يفرد جناحيه ، ويغرس فى التراب منقاره ، ويبقى كل واحـد على هذا الحال وكأنما هـو قد نوم تنويمـا مغناطيسيـا ، وقـد يستعـرض الفتى منهـم نفسه ، فيغير اتجاه جسده عله يأخذ وضعا أحسن ، لكن جناحيه يظلان كما كانـا ، وكذلك منقاره . وقد تترك ريف كـل هـؤلاء الاوغاد ، وتطير الى غـير رجعـة ، ولكن بعد أن تكون قـد القت عليهم نظـرة ، وكأنمـا كل ذكر من هؤلاء لم يرق فى عينيها ، أو يستحوذ على أعجابهـا ، أو أن أوضاعهم هـذه ليست كافيـة ، بل ربمـا تريد أوضاعـا أكثر تـوددا أو انبطاحـا واستسلامـا وخنوعـا . . لسنـا فى الواقـع ندرى ، لكن الذى ندريه أن هذه الريف قد تحط على تل آخـر ، ويفعل الذكـور مثلمـا فعـل أسلافهـم ، وتسير ريف بينهم ، وقـد يعجبها رف من الرفوف (Ruffs) ، وعندئـذ تلمسه بمنقارهـا ، وكأنما لسان حالهـا يقـول « لقد اخترتك من كل الذكور ، فانت فتـاى المرموق ، ولك قلبى وروحى وجسـدى » !

ويقوم الرف عندما يعرف انه من المقبولين المحظوظين !

ويعلق سيلوس على ذلك ويقول : لكن الغريب هنا أن ذكور هـذه الطيـور قد جـاءت بألوان مختلفة فى أطواقها ورقابها ، بحيث أصبح كل رف منها وحيد زمانه (أى فى « ديـكوره » الحى الذى ألبسته له الطبيعـة ، وقدمتـه لذلك الامتحان العـويص) ولهـذا كان اختيار الانثى لذكورها اختيارا غير متسـاوى .. ويضيف : ولقـد كان هنـاك طائـر منها قام بعمليات اخصـاب أكثـر من كل العمليات التى قامت بها الذكور الاخرى على التـل نفسـه ، وممـا يذكر أيضا أن نسبة معينة من الذكور لم يسمح لهـا بالاخصاب على الاطلاق !

ولابد أن يسعد داروين ـ صاحب نظرية التطور والاختيار ـ لهذه الحالة كثيرا ، فنحن الان أمام مشهـد حى من اختيار الاناث لذكورها .. ولا شك أن الانثى لها نظـرة فى ذكورها تختلف عن نظرتنـا نحن اليه .. ونظرتها قد لا تخيب ، فهى تعـرف كيف تنتقى الذكـر الكفء ليورث كفاءتـه الوراثية للاجيال المقبلة ، أمـا الذكور المرفوضـة فهى مخلوقـات ضعيفـة ، وعليهـا أن تفسح الطريق لمن هو أحق بالبقاء .. للاقوياء !

ويقـدم لنا ن . ج . بيريـل فى كتابـه « الجنس والطبيعة الاشياء » صورة حية أخرى عن نوع من الرف أو الـريف الـذى يهاجر من آسيا وافريقيا ويصل الى أوربا فى فصل الربيـع .. فعندمـا تنزل الانثى بين الذكور ، فلابد أن يقفوا لها جميعـا مع تقديـم التحيات الطيبة ، والتمنيات بالاقامة المباركة .. والرف لا يصيح ولا يزقزق ، ولكنه على أيـة حال يصفق للفتاة بجناحيه، ولقـد أشاع مقدم الانثى بين الذكور كل بهجة وحبور ، فتـرى الفتى ينطلق الى فتى آخـر ويهاجمه ، لكن بدون اصابـات ، اذ يبدو ان ذلك نوع من « البروتوكول » الجنسى أو التـوددى ، أو ربمـا رقصـة أو « هبالة » ، أو اى شىء آخـر لا ندرى أسراره بعد ، ثم يهدأ الجمع ، وتأتى الذكور الى الانثى ، وتقف أمامهـا

أو حولها وقفة خاشعة مؤدبة ، ولكل ذكر وضعه الخاص ، فمنهم من يرفع جناحيه ، ومنهم من ينحنى ، ومنهم من ينفش ريشه الذى يحيط بعنقه كالطوق .. الخ ، لكن الكل مؤدب صامت خاشع ينتظر قضاء الانثى فيه ، وحكمها عليه .. وتأتى هذه لتلقى عليهم نظرة فاحصة ، وتتجول هنا وهناك فى خطوات ثابتة هادئة رزينة . وقد تتقدم الى أحد الفتيان ، ويقع عليه الاختيار ، ولابد أن يحترم الذكور غير المقبولين رغبة الانثى ، ولابد أن يتركوا للفتى والفتاة « أرض » الزوجية .. وتلك هى « الحضارة » على مستوى الطيور ، ولا شأن لنا بالبشر ، فهم أدرى بأحوالهم !

ويعلق هـ . ج . ويلز ، و ج . هكسلى ، و ج . ويلز فى كتابهم « علم الحياة » على مثل هذه الامور ويقولون : أن الدافع لعملية اختيار الانثى لذكورها على طريقة تعدد الازواج (أو لاختيار الذكر القوى لعدد من الزوجات ، كالديك مثلا والدجاج) شيء هام فى هذه الطيور لانتاج أجيال قوية .. ربما أكثر فاعلية من ارتباط الزوج بزوجة واحدة (كما فى الحمام) .. اى أن التعدد هنا مرغوب .. ولكى لا نغضب نصفنا الآخر فلنسارع بالقول ونقول : فقط فى الطيور وغير الطيور ، وليس فى البشر ! (حد الله بيننا وبينهن) .

واذا كان هذا الاستعراض والتودد واظهار القوة من لعوامل البيولوجية الهامة التى تؤدى الى اختيار المخلوق المناسب ن بين أترابه ، وتقديمه للانثى المناسبة ، فاننا لا نستطيع أن ندرك السر فى تودد أو استعراض يقوم به ذكر من ذكور الحمام أمام حمامته ، فهى له ، وهو لها .. بكل ما يعنى ذلك من وفاء واخلاص .. فلم كل وجع القلب هذا ؟

الواقع ان ما يقوم به ذكر الحمام أو غيره من طيور مشابهة ليس الا مدخلا نفسيا هاما لكى يهيىء به أنثاه ، ويثير

فيها بعض العمليات الفسيولوجية التى تؤدى الى تضخم البيض، ثم السماح له بتلقيحها ، وهناك عديد من التجارب تؤيد هذه الاراء ، اذ يكفى مثلا أن تأتى بأنثى حمام صغيرة ، وتدغدغ لها رأسها على فترات كما يفعل ذكرها بمنقاره ، وعندئذ قد يتكون فيها البيض ، الا انها تضعه غير خصيب .

والواقع أن الحديث عن عادات الطيور وطقوسها ، وتودد ذكورها لاناثها ، من الاحاديث التى لا بنضب معينها ، فلكل منها عادات وتقاليد لا نكاد نحصيها عدا ، ويكفى هنا ما قدمنا ، وعلينا أن نستعرض صورا أخرى من حيوانات فى سلسلة التطور أرقى ، لكنها مع ذلك قد لا تكون أرقى فى التودد والمغازلة والاستعراض كما رأينا فى عالم الطيور !

والواقع أن الغزل والتودد فى الحيوانات الثديية التى ننتمى اليها ليس على المستوى نفسه الذى نجده فى الكثير من انواع الطير .. ذلك أن التودد فى الثدييات قد يكون من النوع الردىء ، أو قد لا يوجد على الاطلاق .. باستثناء الانسان .. ومع ذلك ففى البشر ضروب من الناس متفاوتة .. فمنهم من يتودد على استحياء ، ومنهم من يذهب فى تودده الى درجة الفحش وقلة الحياء ، ومنهم من لا يعرف كيف يتودد على الاطلاق ، وهؤلاء « كالانعام أو هم أضل » .. فمن طبيعة الانثى ياقوم أنها « تموت » فى التودد .. وفى التدلل أيضا ! (البعض يقول : ياعم بلاش وجع قلب ، هوه احنا فاضيين للكلام الفارغ ده ؟ !)

والواقع أن معظم ذكور الحيوان لا يستطيع أن يشاركها فى « حريمها » ذكر آخر ، وهى بهذا تسير على مبدأ تعدد الزوجات ، ولكن بالعشرات وبالمئات ، وربما تكون بعض عاداتنا البشرية مشتقة من تلك العادات الحيوانية .. ونقصد بذلك ما كان يجرى فى الماضى (أى نعنى عهد جوارى السلطان

وحريـم السلطان) .. وعندمـا تطور ادراك الانســان ، تخلى عن هذه الخصال .. لكنها لازالت تسرى فى عالم الحيوان .. ولقد رأينا صـورة منهـا فى الوعول والغـزلان ، ونراهـا فى الديـوك والتيوس .. لكن ما خفى كان أعظـم !

ففى سبع البحر وفيل البحر يأتى الـذكر قويـا مهيبـا ، وبضخامة فى الجسـم أكثـر من ضخامة الانثى .. وفى فصـل التزاوج يخرج السبع أو الفيـل من الماء ، وعلى شاطىء جزيرة مهجورة يضع الواحـد منها « يده » على قطعة أرض ويمتلكها ، ولا يسمح لذكـر آخر بالدخول الى وطنه أو مجاله .. وعلى هذه الارض تفد الاناث ، وتضـع نفسها تحت تصرف الذكور .. وقد يحارب السبع سبعـا آخر ، ويدخل معه فى صراع مرير ، حتى يتخلى أحدهمـا لغريمه عما ملكت يداه ، وقد يطرد السبع غريمه من حريمه ، أو قد يلقيـه الى عرض البحر ، وعندئذ لن تولـول الاناث نادبة سبعها الذى راح (كما تفعل ذلك بعض نسـاء البشر عندما يذهب السبـع فتصرخ يا سبعى .. يا سبعى) .. فمـا أكثر السباع التى تفد ، وما أرخصها .. المهم أن الذكـر القـوى هو الذى يفوز طبعـا بنصيب « الاسـد » .. لكن قد يحـدث أن «يفترى » الذكـر على الاناث ؛ فعندمـا يـكون بعض افـراد الانسان والحيوان أقويـاء ، يزيد فيهـم الافتـراء .. طبيعـة حيوانية بشرية تجرى على الرجال والنساء سواء بسواء ، لكن .. كلمـا سما البشر بطباعهم كلما كانوا أقـرب الى الانسان منهـم الى الحيـوان .. الكن دعنا من كل هذا لنعود الى الذكر الـذى افتـرى ، لنراه يمسك أنثاه بفمه من رقبتها ، ويلقيها بقوة من فوق رأسـه ، لتطير فى الهواء ، ثم تسقط بين حريمـه ، وكأنمـا هو يريد أن يثبت لهن أنه مفتح العينين ، حتى لا تحدث الخيانات من وراء ظهره ، وكأنه بهذا العمـل المشين يرفع شعارا بين اناثه مؤداه « كل أنثى أضبطهـا متسللة ، سيـكون جزاؤهـا هـذا

الهـوان » ! .. أى انه سيتلقفها من « زمارة » رقبتها ، ويقذفها دون رحمة أو هوادة . علهـا تكون عبرة لكل الحريـم !

لكن .. مهمـا كانت عين « السبع » مفتوحـة ، ومهمـا كانت يقظته وحرصه على اناثه ، فان الحريـم هن الحريـم .. بمعنى أن الانثى لو أرادت شيئـا ، فلن يفلح حرص « السبع » فى الحيلولـة بينهـا وبين ما تريـد (ونحن نقصد بطبيعة الحال حريـم سبع البحر .. ولابد من التنويه عن ذلك بشدة) !

ومسكين حقا هذا السبع الذى على الشاطىء ! .. فبالرغم من حرصه الشديد على اناثه ، لدرجة أنه يهجر الطعام والنـوم لأيـام قد تطول ليكون نعـم الحارس اليقظ ، الا أن بعض الاناث تسول لها نفسهـا بأن تغافله وتقفز الى الماء لتقابل ذكورا أصغـر سنـا ، واقل مراسا وتجربة من هذا الذكر الواقف هنـاك .. صحيح أنه قـد عرك الحياة وعركته ، لكن ذلك لا ينطبـق على الاناث .. ومع ذلك فمما لا شك فيه أن الهاربات من الذكر القوى المتين شاذات وقليلات العدد (والحياء أيضـا !) .. ولا معـول عليهن ، فالمهم فى الموضوع أن يورث « السبع » القـوى قوتـه للاجيـال القـادمة !

وربمـا لو ذهبت الى حديقـة الحيـوان ، وتـوجهت الى جبلاية القـرود ، لوجدت الصورة تتكرر فى الجيزة ، كما تتكرر فى الجزيرة — نقصـد جزيرة السبع فى أحد البحار او المحيطات !

والواقع أن القرود (بمـا فى ذلك القردة العليـا) من أذكى الحيوانات الحية بعد الانسان ، ولها معه بعض صفات وعمليـات فسيولوجية مشتركة .. فلاناث القرود دورة أو عادة شهرية اى انها تحيض ما بين كل ٢٧ — ٣٥ يوما .. يتـوقف ذلك على النوع ، وتستمـر فترة الحيض ما بين ٤ — ٦ أيام ، وفى هـذه الفترة تختفى عندها الرغبة الجنسية ، وتبدو هادئة الطبـاع ،

معتدلة المزاج ، وبعد أن تنتهى فترة الحيض ، تجتاحها رغبة فى الذكـر (قد يحدث ذلك أيضا فى بعض اناث البشر ، وقد يحدث قبيـل قدوم فترة الحيض أيضا) ، وتبلغ أقصاها وقت افـراز البويضة ـ أى فيمـا بين اليوم السابـع بعـد الحيض واليـوم العشرين .. ولرغبتها علامات مميـزة ، اذ تتـورد أعضاؤهـا التناسلية أو ما حوالهـا ، وتصبح « مربربة » ومتضخمة (ليس ذلك ـ للاسف ـ من طبيعة أنثى الانسان) ، ويتوعك مزاجها ، وتصير سهلة الاثارة .. اذ يحدثنـا الذين شاهدوا هذه الحيوانات أن الانثى ـ فى غياب الذكور ـ قد تحك نفسها بأنثى أخـرى فى عملية « سحـاق » متبادلة .. ومـع ذلك ، فانت تستطيـع أن تـرى القردة من نوع الميمون أو البابون التى تسكن جبلاية القرود فى حديقة الحيوان وهى تقدم عجزهـا وتضعه فى وجه الذكـر ؛ وتأخـذ بها وضعا نكاحيا مثيرا ؛ صحيح أن هذا فعـل مشـين بالنسبة النـا ، لكن هـذه الحيوانـات لا تـدرك معنى الفضيلـة والرذيلة ، أو التمنع والتبذل كما يدركها الانسان .. كما أنهـا لا تحب اللف ولا الدوران .. فاذا أرادت ، تقدمت ونالت .. قضى الأمر ببسـاطة ، وسارت الحياة سيرها الطبيعى !

ويختلف سلوك القرود ، وتتباين عاداتهـا وتقاليدهـا على حسب النوع .. فمنها ما يـرتبط بأنثى واحـدة ، ويبقى لهـا وتبقى له العمر كله ، ومنها ما يعيش مع مثنى وثلاث وربـاع ، ومنها مالا تكفيه أربعون أو خمسون زوجـة ، ومنهـا مـا تعيش حياة كحياة القبيلـة أو الجماعة ، لكن عدد الاناث منها قد يزيد مرتين على عدد الذكور ، ومع ذلك فالذكور القوية هى التى تحكم الانـاث ؛ وليس للذكور الضعيفة أو الشابة مجال مباح فى الحب والنكاح .. ولا شك أن سلـوك القـرود فى الطبيعـة يختلف عن سلوكها وهى حبيسة أقفاصهـا .. ونذكر هنا حادثة لتـوضح هـذا المعنى !

نذكر أننا كنا نقف ــ منذ حوالى عشر سنوات ــ فى حديقة حيوان الجيزة أمام قفص به نوع من النسانيس لا نتذكر اسمه ، ولقد رأينا فى القفص ذكرا يتودد الى انثاه ويلاطفها ويداعبها ، لكنها كانت تصده تارة ، وتقفز منه بعيدا تارة أخرى ، ثم يتشجع بعد فترة قصيرة ويتقدم اليها ، ويربت عليها ، أو يطوقها بذراعه ، علها ترق لحاله ، فلم يزدها ذلك الا تمنعا وعنادا ، ومنه تنفلت هاربة .. ولقد جذب هذا المشهد المثير عددا من البشر ، ووقفوا يتعجبون ويقولون « يا سلام .. تمام بنى آدمين وانسخطوا ! » .. وطبيعى أن العلم لا يعترف «بانسخاط» البشر الى قرود أو نسانيس ، والا كان هذا بمثابة نكسة فى الخلق كبرى ، وردة فى التطور عظمى .. لكن دعنا من ذلك ، ولنعد الى النسناس الذى يتعذب فى القفص ، لدرجة أن واحدا من الآدميين قد ثار لعذاب هذا المخلوق الرقيق ، فصاح دون حياء « ياشيخة الله يلعنك .. عذبت الجدع ! » .. ولقد تقدم « الجدع » على حد تعبيره ــ فى محاولة يائسة وأمسك بالانثى ، وكأنما هو يريد أن يغتصبها اغتصابا ، وعندئذ كشرت عن أنيابها وثارت وصرخت ، ودفعته بعيدا ، ولما لم يجد الذكر فائدة ترجى ، جلس هنيهة ، وكأنما هو يرمقنا بحسرة ، علنا نتشفع له عندها ، وأخيرا وضع عضوه بين يديه ، وأتى بحركات جنسية الى أن قذف نطفته حتى كادت تمس أوجه الواقفين ، وبعدها هدأ ، وثار الناس على هذا الحيوان وسبوه ، وكانت لهم تعليقات شتى ، وقفشات مضحكة

لكن الناس ينظرون عادة الى مثل هذه الامور نظرة سطحية ، وقد يتسلون ويضحكون ويسخرون ، فى حين أن دارسى الطبيعة الحية يسجلون هنا كل كبيرة وصغيرة ، ومن المشاهدات والتسجيلات الكثيرة تتجمع الخيوط ، ثم تنسج الخيوط فى حقائق ، ومن الحقائق تنبع المعرفة العلمية !

أن سلوك القرد أو النسناس مع أنثاه يشبه الى حد ما سلوك الانسان ، فالدافع الجنسي في هذا النوع يستمر معه معظم أشهر السنة ، وبهذا يختلف عن الحيوانات الاخرى التي هي أقل منه مرتبة في سلم التطور .. فالجنس عند الطيور والكلاب وسباع البحر والاسود والغزلان موسمي ، وقد يستمر أياما وأسابيع ، ثم يختفي تماما ، وكأنما هذه الحيوانات قد اصبحت « خصيانا » .. ذلك ان اعضاءها التناسلية تضمر الى حد بعيد ، ثم تتضخم في موسم التزاوج ، وتنطلق منها الهرمونات (في الربيع خاصة) لتدفعها الى التجمع والتزاوج ؛ أما بعض انواع القرود فخصوبتها تستمر لوقت طويل ، وقد يؤثر حبسها في الأقفاص على نفسيتها ، وعندئذ تتصرف بطريقة تختلف عن تصرف أترابها في الطبيعة !

لكن يبدو أن الانثى كانت متوعكة المزاج ، أو أنها في فترة من فترات الحيض ، وعندئذ لا تسمح للذكر بالوصال مهما كان الحال ـ حالة معروفة أيضا في البشر (وقد لا يهتم بها بعضهم أحيانا ، فيتساهلون في ذلك ، رغم أن الذوق والدين قد حض على تجنب هذه الفعال ، ولكنها الغريزة يا صاح !)

النسناس تكويه غريزة الجنس ، وهو لا يستطيع عليها صبرا ، فهي غريزة عجيبة تعذب ذكور هذا الكوكب عموما ، وكأنما هي في حياتهم شيء هام كالماء والطعام والهواء . ولهذا قد يدفعون في سبيلها الكثير .. لكن قردنا ليس لديه شيء يسترضي به أنثاه ، ومن حقها ـ والحال كذلك ـ أن تبقر بطنه ، وتمزق وجهه ، وليذهب الى الجحيم بشهوته .. مسكين أيضا هذا القرد الذي في القفص ، فهو لا يستطيع أن يجد فرجا مع أنثى أخرى غير هذه الكالحة الوجه .. القاسية القلب ، اذ لو كان يعيش حرا في الطبيعة ، لاخذها طولا وعرضا ، ليبحث

عن أخرى تخلصه من أزمته ، ولقد هداه تفكيره ، ففعل كما يفعل البشر ، واستمنى كما يستمنون !

ولاناث بعض أنواع القرود « اعلانات » طبيعية على أردافها، وبالتحديد حول أعضائها التناسلية ، وهى تشبه اشارات المرور الى عالم الجنس .. فاذا تضخمت واحمرت فهذا يعنى أن الطريق أمام الذكور مفتوح ، واذا ضمرت ، فلا جنس ولا حب ولا سرور !

لكن هذه العلامات المميزة قد بدأت تختفى تدريجيا من الانواع شبه الأنسانية التى سبقت ظهور البشر على الارض بملايين السنين ، فمن الكشوفات الحفرية الكثيرة يتبين أن هناك أكثر من اثنىعشر نوعا وسلالة من مخلوقات — لا هى بشر ولا هى قرود ، بل كانت تحمل صفات من هؤلاء وهؤلاء ، ولهذا فقد أصبحت بمثابة القنطرة التى عبر عليها الانسان الحالى « نهر » التطور ليصل الى ما هو عليه الان .. ولقد انقرضت كل هذه الانواع ، وبقيت أجزاء من هياكلها — ليس لمثلها بين هياكل المخلوقات الحية الحالية شبيه — لتحكى لنا فصولا شيقة متتابعة من تاريخ الحياة على هذا الكوكب ، ولتؤكد لنا أن الحياة قد أسقطت ملايين كثيرة من أنواع المخلوقات التى لم تستطع أن تتطور وتتكيف بالظروف الطبيعية السائدة حولها ، ولهذا كتب عليها الزوال والانقراض !

ولقد كان الغرض من هذا التطور — الذى استمر على أرضنا أكثر من ألفى مليون عام — أن يأتى مخلوق يستطيع أن يدرك وينطق ويفكر وتكون له حضارات وتراث .. وظهر هذا المخلوق فينا ، وهو مخلوق لا شك بديع ، فلقد اكتسبت المراكز العليا فى أمخاخنا مميزات ضخمة لم يمتلكها أى مخلوق آخر سوانا ، ولهذا فان الانسان الذكى — رجلا كان

امرأة ـ يستطيع ان يحكم على الآخر من تعبيرات وجهه .. حقدا كان ذلك أو حزنا أو سرورا أو اكتئابا أو انهاكا .. الخ ، ولهذا فقد تركزت عيوننا على الوجه دون الارداف ، وتلك ـ فى الواقع ـ قفزة هائلة تباعد بيننا وبين القرود ، وتميزنا عنها بمميزات جوهرية وهامة ، فحيث يستحسن القرد تلك « الوقعة » الحمراء التى قد تتضخم على ردفى انثاه ، وتصبح له بمثابة علامة مميزة على استعدادها للجنس ، وفى الوقت نفسه وسيلة من وسائل الاثارة للذكر ، الا أن ذلك لا يصح أن يكون لانثى البشر وسيلة ، ولا لذكرها غاية .. فتعبيرات الوجه ـ فى هذا المقام ـ أبلغ بكثير من تعبيرات الردف !

والحديث عن هذا الموضوع قد يطول ، لهذا دعنا نفتح له صفحة جديدة !

من أرداف القرود .. إلى أرداف البشر

يبدو أن طبيعة البشر لازالت تحمل شيئا من طبيعة الحيوان ، وان جاءت فننا بطريقة مهذبة لتباعد بيننا وبين سلوكه

كما أن لكل عادة من عاداتنا أساسا قديما ، ولكل شيء مليح فى عيوننا جذورا تمتد الى الوراء عشرات الملايين من السنين !

ولكى نوضح ذلك ، كان لابد أن نتعرض لظاهرة من الظواهر التى أصبحت علامة من العلامات الهامة فى حياة البشر .. ونقصد بها ظاهرة الرقص التى صاحبت الانسان الأول منذ ظهوره على هذا الكوكب الى يومنا هذا .. فلكل شعب من الشعوب رقصاته الشعبية الخاصة به ، وقد يكون الرقص نوعا من التودد .. وقد لا يكون ، لكن ذلك لا يهمنا بقدر ما يهمنا أن نعرف أن أنواعا كثيرة من الحيوان تؤدى أمام اناثها طقوسا بالصوت وبالحركة ، ولابد أن يكون للحركة ايقاعات خاصة ، لتكون قريبة من رقصاتنا التى تقوم أيضا على ايقاع الموسيقى ودقات الطبول .. فيكون لهذه معنى ، ولتلك مغزى !

لكن أرداف القرود قد جرتنا رغما عنا الى التعرض هنا لعادة من العادات البشرية التى تستخدم فيها الانثى أردافها لتثير ثائرة الذكور !

فلاشك انكم شاهدتم الراقصات على خشبة المسرح أو فى اى مكان آخر ، وفى كل مرة تبرز الراقصة « واجهتها » الخلفية ، وتهز ما برز منهـا هزات غريبة تححظ لها عيون الذكور ، وعندئذ يصفقون تصفيقـا ايقاعيا ، وقد يصرخون صرخات تحمـل معنى الاستلطاف والاستحسان . وعلى قدر حرارة الصراخ والتصفيق، تنطلق طاقة الراقصة قوية هـادرة ، فتهتـز الارداف أكثـر ، وترتعش بمعدلات اكبر . ومعها تهتز عيون المتفرجين أعظـم . وهـذا ينبئك بالخبر اليقين .. خبر اننا لازلنا نحتفظ فى ذاكرتنا البدائية ببعض عادات القرود .. فقـد راينا أن ما كـان يثـير ذكور القرود فى الجبلاية ، أو فى الاحراش والغابات ، يثير البشر ذوى الياقات المنشـاة ، وأربطة العنق المنتقاه .. لا فرق بين قرد ومديـر .. كبير أو صغير !

أضف الى ذلك أن البشر يميلون بطبيعتهم الى « الفرفشة » والسرور ، لأن مجيئنـا الى الحياة قد كتب وقدر فى ساعـة من ساعات الرضا والحبور .. اى اننـا أبناء جنس وحظ ، ولا يمكن لغـير هذا أن يـكون !

نعود لنقول : انه لا يزال تحت جلد كل ذكـر منـا آثـار قرد . وتحت جلد كل انثى بقايا قردة ، فنحن معشر الذكور قد نستملح ما تستملحه القـرود ، ولقـد منحت الطبيعـة اناثنـا « تضاريس » أو « روابى » فى الأرداف وعلى الصدور ، لتميـز الذكر عن الانثى ، ولهذه معايير خاصـة ، ومقاييس محددة من اختراع بعض الذكور الخبثـاء ، وبها ضحكوا على عقـول بعض الفتيات والنسـاء ، واستدرجوهن الى مسابقات يطلقـون عليهـا مسابقـات ملكات جمال العالـم ، أو ملكة الشاطىء أو الاغراء أو غير ذلك من مسميات شتى .. المهم أن الانثى تمر شبه عارية على أعضـاء هيئة التحكيم (ونظن أنهم من عواجيز مراهقين) ، ليروا تضاريسها ، ويضعوا الدرجات على حسن تناسقها ، فكان للخصر

درجـة ، وللردف درجة وللصدر درجـة وللسيقـان والوجـه والرقبـة .. الخ ، وبهـذا أصبح للبشر أمزجـة تقتـرب من أمزجـة القرود ، لكنها تتفاوت بقدر ما تتفاوت أنماط تفكيرهم ، ومع ذلك فما قد يروق فى أعيننا قد لا يروق فى أعين الآخرين .. فالقردة ـ على قبحهـا ـ أجمل فى عين القرد من ملكـة جمـال العالم ، ولو أتينـا له ـ أى القرد ـ بهذه وتلك ، لفضل قردته على ملكتنـا !

اذن .. فلقد وضع القوم من « القرود البشرية » للأرداف درجـة ، وبهذا أصبحت من العلامات البارزة التى تحـدد أنوثة الانثى .. ويبدو أنهـا قد عرفت هذه النقطة من الضعف فينـا ـ ربما عن طريق القردة أو عن طريق عيوننا وثرثرتنا ، واستملاحنا لذلك فى السر وفى العلن ، ولهـذا جاء « التكتيـك » ليلعب دوره فى رقصة على خشبة مسرح ، أو فى رواية لا ينسى المخرج أن يظهر لنا فيهـا عينة بشرية تعرف كيف تهز بردفيها عيون المشاهدين ، أو ربمـا نرى ذلك فى الشارع ، حيث يصبـح « لتكنولوجيـا » الكعب العـالى دورا هاما فى أحداث « رجات » ردفية معقولة أو فيهـا شيء من الاثارة والمبالغـة ، وبها ترج مشاعرنا رجـا .. فمنا من يستملح ، ومنا من يستعيذ ويلعن !

ثـم عليك أن تلحظ سلوك البشر عندما تقدم عليهـم من بعيد انثى حلوة رشيقة تتبختر كما تتبختر « أم جلمبـو » التى سبق أن قدمناها قبل ذلك (وليس لأم جلمبو ارد ف على أى حـال) ، وعندئـذ قد تجحظ عيـون بعض الشباب والرجـ (الا من رحـم ربى) .. وتنتقل نظراتهم الفضولية من قمـ الرأس الى اخمص القدم حيث الكعب العالى الذى يحدث صوتا كصـوت حوافر الخيل .. والخيـل من الحيوانات الرشيقـة ،

وكذلك النســاء .. وتمرق الانثى مارة بتلك العيون الوقحة ، ومع أنــه قد يباح أن نلقى نظرة على الواجهة الاماميــة للانثى ، الا أنك سترى نسبة منهم (والنسبة متروكة لتقديرك ولتكتيكها) وقــد دارت برؤوسهــا ١٨٠ درجة ــ أو ربما أكثــر أو اقــل ــ لتلقى نظرة فاحصة على الواجهــة الخلفيــة .. طبيعى أن هــذا السلــوك وقاحــة من الفاحصــين .. لكن لا تلومــوا الرجــال ولا تلوموا النســاء ، فلكل عادة أو استملاح جذور قديمــة .. فالتطلــع الى الوجــه خاصة .. والى « الواجهــة » الاماميــة عامة لابــد أن تكون عادة بشرية حديثة ، لكن أن تدور رؤوسنــا نصف دورة لكى تلقى نظــرة على ما وراء « الــكواليس » فتلك عــادة القرود كما سبق أن المحنــا .. وقد يعلق ذكر وقح على ما رأى بصوت مسموع ، وقد يقول ضمن ما يقول « عجبى » .. أن لهــا مؤهلات خلفية تفوق ما ملكت من مؤهلات أمامية » .. (طبيعى قرد ابن قرد) وقد يسمعه ــ لسوء حظه ــ احد رجال شرطة الآداب ، وقد يمسكه من قفــاه بتهمة انه قد تفوه بالفاظ تجرح الحيــاء العام ، فيروح المظلوم ، ويبقى الظالم !

اضف الى ذلك أن مصممى الازياء ــ ارضاء لنظرة الذكــر الفرد وخبث الانثى القردة ــ قد توصلوا منذ قرون الى اختراع عظيــم وفعال وجــذاب وفيــه ضحك على الذقــون ــ ذقــون الذكــور ، اذ صمموا تجهيزات خاصة تضعها بعض الاناث فوق أردافهن الضامرة ، لتبدو شامخة أمام العيــون ، وبهــا ترضى طموح القرود ــ قرود البشر !

لكن الغريب حقا أن الفراعنــة قد سجلوا على آثارهم سلالة من البشر قصيرة القامة ، سوداء اللون ، متضخمة الأرداف بشكل واضح .. الا أننا لو ذهبنا الى احدى القبائل الافريقية لوجدنا

أن ذكورها يرون أن تناسق بنيان المرأة وجمالها يتركز فى أردافها فكلما ارتفعت وتضخمت ، ارتفعت الانثى فى عين الذكر ، واصبحت امرأة فخمة ــ اجتماعيا وجنسيا ، ومن هنا تبدأ النساء فى العناية بها وتربيتها (أى الارداف) فى بناتهن بداية من سن التاسعة أو العاشرة ، وتستمر حتى سن البلوغ ــ فى تمرينات صعبة تبدأ بانبطاح الصبية على بطنها ثم تأتى أمها أواحدى قريباتها وتمسكها من قدميها ، وتضغطهما الى أعلا بحيث يؤدى ذلك الى تحريك الردفين نحو ظهرها (الحركة لا شك قاسية) ثم تقوم بتدليكهما تدليكا عنيفا لدرجة أن ذلك قد يحدث نزيفا (ولقد جاءت الراوى حالة من هذه الحالات) ، ثم تعطى الصبية كوبا من السمن لتشربه ، أو تأكل كميات كبيرة من الدهون ، وبمثل هذه التمرينات الطويلة والعنيفة تبرز الارداف وتتضخم ، وتصبح احدى العلامات الجمالية المميزة فى نساء القبيلة !

والواقع أن التودد البشرى ليس كالتودد الحيوانى ، وأن كان يحمل بعض جذوره أو بذوره ، فنحن معشر ذكور البشر لا نصفق ولا نرقص ولا نهتز أو نصيح كما يفعل ذكور الحيوان .. لكن يكفى أن نتطلع ونغمض الطرف ونستملح ، فالانثى الحديثة (أو المودرن كما يصفها البعض) تثرثر بشفتيها دون كلام ، وتنطق بوجهها دون سلام ، وتتحدث بمؤهلاتها الانثوية الكثيرة ، لنتحدث نحن سرا أو علنا لنطرى هذا الجمال ، فاذا لم نفعل ، كنا فى عرفها الواحا ، أو أننا مخلوقات بدائية ليس لديها نظر ، أو ربما كالعميان أو أضل .. والمرأة الحديثة انثى واعية لكل ما يدور حولها .. وهى تحس من خلال التطلعات البصرية أن ذلك نوع من التودد الصامت ، وفى الكلام الهامس نوع من المديح والاطراء ، وعلى كليهما تعيش الانثى ، كما تعيش على الهواء والغذاء ، وبدونهما قد تموت كمدا !

ولكى تستحوذ الاناث على أنظارنا ، كان لابد من عمل « دهكورات » هائلة فى كل مكان على الجسد .. تتوقف قيمتها على يسار حالها أو عسره ، لكن الشيء الملاحظ دائما ان المرأة تتأنق للشارع أكثر ما تتأنق فى البيت (ونحن أيضا .. لكن على خفيف) ، ولهذا فقد رصد العالم ميزانيات ضخمة للرموش والعيون وحول الجفون والحواجب والشعور والشفاه والوجنات والرقاب ، وفى الاذن وما خلفها قليلا ، وتحت الابط ، وفى المعاصم والاصابع والأظافر (لا تنس أظافر القدم من فضلك) وعلى الصدور أو ما تحت ذلك * ، ولو سألت عن السر فى ذلك ، لقيل لك انها تهوى ذلك ، لأننا بدورنا نهوى ذلك ، ومع ذلك فلو عدت الى ميزانيتنا ، لوجدت أن ما يصرف على تجميل الجسد أكثر مما يصرف على الكتب .. أى أن ميزانية المستلزمات البدنية والجنسية أهم وأضخم من ميزانية المستلزمات العلمية والعقلية ، كما أن أتعاب رقصة بطن أو هزة ردف نصف ساعة أو ساعة ، تساوى « هزة » عقل مفكر مائة يوم أو ساعة (كل ذلك متروك أيضا لتقديرك) .. وهذا ينبئك بالخبر اليقين .. ذلك أن الناس يميلون للجنس أكثر مما يميلون للفكر ، أو للتسلية أكثر من الجدية ، وتلك طبيعة أصيلة فى كثرة من البشر .. يستثنى من ذلك قلة قليلة تأخذ كل الامور اخذا ثقيلا ، فيصبحون على الناس أيضا عبئا ثقيلا !

ثم عليك أن تتجول بعينيك فى المعروضات التى خصصت لهن ، والتى خصصت لنا ، تجد نصيب النساء منها أضعاف

(*) مما يستحق الذكر فى هذا المجال تلك الحالة التى رواها لى صديق عندما ذهبت أمه لتخطب له فتاة من ذلك النوع الذى يهتم بالتبرج ، وعندئذ نظرت الأم إلى ابنها وقالت : أى بنى « إن كل جزء من جسم هذه الفتاة يحتاج إلى ميزانية خاصة ، ودخلك لا يكفى مصاريف مظهرها .. فما بالك بالباقى يا كبدى؟ . .

نصيب الرجال ، ولا اعتـراض لنا على ذلك ، فالمـراة ولا شك مخلـوقة جميلة ، وهى تستحق كل هذا وزيادة ، ذلك ان عمرهـا محسوب « بالقطارة » .. وراس مال الانثى يتركـز فى شبابهـا وانوثتهـا وجمالها ، وكل هذا يحتاج الى صيانة .. والصيانـة تستلزم أشيـاء كثيرة ، وهذه تتطلب مالا ، والمال من الذكـر ، ولابد أن يدفع ، حتى لا يصبـح طلقة فى مدفـع ، ويـروح فى خبـر كـان !

وفى الحديث الشريف يجىء ما معنـاه : أن المـراة تنـكح لثلاث : لجمالهـا ومالهـا ودينها .. لكن لجمال المراة شقين : شقا جسـديا يحسب بالسنوات . وشقا روحيا لا يحده عمر ، ولا يقف فى طريقه سن ، وهو لهذا أبقى من الجسـد وأعظـم ، وتأثيره أعـم !

ونحن نفهم أن تتجمل الانثى من البشر ، لكننـا لا نستطيع أن ندرك السر الذى من أجلـه « يتجمل » الذكر .. فلقد ظهرت لنـا على آخر الزمن « نسبة » ــ والحمد لله قليلة ــ من شباب لا هم لهم الا تقليد الانثى فيما تلبس وتتزين .. من ذلك مثلا أن الفتى قد لجـأ الى الكعب العالى ، لكن ذلك لا يستقيـم الا مع الردف العالى ، والصدر العالى ، وليست هـذه من صفات الرجال فى قليـل أو كثير .. ولا ندرى أية نتيجـة تلك التى يسعى اليها الفتيان من هـز أردافهم وبمساعدة الكعب العالى .. فالردف من المميزات البيولوجية للانثى ، وليست للذكر ، فان سعى هو الى ذلك ، فقـد يرجع الى نداء أنثوى ضامر يناديـه بأن يتحلى ببعض صفات أنثوية ، ويتخلى عن بعض صفاته الذكرية ..

وممـا يساعد الكعب العالى على « الشغل الاستعراضى » أن يـأتى الفتى أيضا بشعور متهدلة على الجبين وعلى القفـا ،

ولابد ــ والحال كذلك ــ أن يلجأ الى صالونات خاصة ليكوى منه ما طال ، ويسوى ما فسد ، فاذا انسدل شعره على عينيه أو جبينه ، أتى بحركة من حركات التدلل الانثوى ، وهى التى تهز الانثى فيها رأسها هزة سريعة ، فينحسر شعرها عن وجهها برشاقة تجذبنا نحن معشر الرجال . ورحم الله شاعرنا على الجارم حيث يقول :

ويل الشباب من النعومة انها
اعراض سم للشعوب وشيك
ما اتعس الزمن الجديد بفتية
قتلوه فى التصفيف والتدليك

ثم تأتى ثالثة الأثافي فى بنطلون يضيق على ردفيه بشكل واضح ، حتى اذا سار بكعب عال ، اهتزتا بوضع فاضح .. أضف الى ذلك قمصان وسترات ذات صبغة حريمى ،وكلها أشياء تجعل من الصعب علينا أن نتوصل الى تمييز الفتاة من الفتى ، اللهم الا اذا أسرعت أنت الخطى ، ونظرت الى الواجهة الامامية ، ولا تنظر للوجه ؛ فأحيانا ما قد يخدعك فى نعومته وتقاطيعه التى تشبه وجه الانثى ، وقد تكون سعيد لو رأيت له شاربا أو ذقنا ، فان لم تجد لا هذا ولا تلك ؛ فليس أمامك الا النهدان ، ففى بروزهما قد يتميز الذكر عن الانثى !

ونحن ــ من الناحية البيولوجية ــ نعتبر الثديين من الاعضاء الثانوية ، فى حين أن الغدد الجنسية من الاعضاء التناسلية الاولية، وقد يأتى الملبس والسلوك بعد ذلك فى المرتبة الثالثة . . فتصرف الانثى غير تصرف الذكر ، وطبيعتها غير طبيعته ، ولهذا كانت «ملابسنا هى ريشنا» ــ كما يعبر عن ذلك جون لانجدون ديفيز فى كتابه

« بـذور الحياة » .. وهو يقصـد أن للذكـور ريشـا أجمـل وأروع من ريش الاناث ، بحيث تستطيع أن تعرف الـديك من الدجاجـة دون أن تفحص أعضاءهمـا التناسلية فحصا دقيقا ، وكذلك يمكن تمييز الطاووس من الطاووسة ، وذكر الحمام من الحمامة ، والظبى والتيس والخروف من الظبية والمعزة والنعجة (عن طـريق القـرون) .. ولا تنس أيضـا تلك الهالـة مـن الشعور المتهدلة على قفا بعض الحيوانات مثل الاسـد والقرد ، لنفرق بينهما وبين اللبؤة والقردة !

ويعنى هذا أن الحياة قد وضعت علامات مميزة لتفـرق بين الذكر ، والانثى ، ويعنى أيضا أن الحيوانات قـد أصبحت أسعد حظا منا نحن معشر البشر ، ففيها تبدو الذكور بصفات ، والاناث بصفات أخـرى ، الا أن ذلك قـد أصبـح من الامـور العسيرة أحيانا فى حالة شبابنـا « المودرن » أو المتحضر * .. فباسم قشور الحضارة أو النكسـة فى التطـور تخلى بعضهـم عن « ريش » الذكور ، وتحلوا « بريش » الاناث !

لكن الحضارة حضـارة خلق وفـكر وعقـل ، لا حضـارة شعـر وكعب وردف !

(*) لكون هذا التقليد قد ورد من بلاد الفرنجة ، إذن فهو دليل — فى عرف هؤلاء — على الحضارة والتقدم والمدنية ، وهنا تكمن عقدة النقص . إلا أنه من الملاحظ أن معظم هؤلاء الشباب يبدون كالقرود وهم يتماجبون بشعورهم المتجعدة الخشنة ، ووجوههم الكالحة التى تعلوها غبرة ، ولقد ظلمنا القرود عندما قارنا بين شعور هؤلاء وهؤلاء ، فشعور القرود ناعمة .. والتشبه بالخنافس يعنى أنهم ينتمون إلى أولاد الذوات . وتلك عقدة أخرى .. وربما يكونون من ذوات الظلف والحافر.

ونحن نعلم تماما أن الانثى المتزنة لا يهمها فى الذكر منا كعبا يتبختر ، أو شعرا يتهدل ، أو ردفا يهتز .. لانها ستسأل حتما عن مركز الذكر الاجتماعى ، بعد ان تلقى نظرة فاحصة على « مركزه » البدنى والرجولى .. وذلك ـ فى الواقع ـ نوع من الاختيار الطبيعى السليم .. فالمركز الاجتماعى المرموق يعنى عقلا اكفأ ، وفكرا أنضج ، « والمركز » البدنى القوى يعنى صفات وراثية مرغوبة ، ولا شك أن تلك ستورث للاجيال القادمة ، وهذا يعنى أن الحضارة الحقيقية حضارة عقول فى المقام الاول .. وتأتى الاجسام بعد ذلك فى المرتبة الثانية .. فرب أشخاص لهم « جسم البغال ، واحلام العصافير » !

وماذا يتمنى الذكر منا فى أنثاه ؟

أنوثة واضحة ، وجمالا معقولا ، ومعاشرة بالمعروف ، وشيئا من تفتح عقلى وامورا أخرى تختلف فى تفاصيلها من ذكر الى ذكر .. فلكل ذكر مزاج وطباع ونظرة تختلف عن نظرات الذكور الاخرى .. فلسنا نسخة بالكربون من بعضنا ، ولهذا كان لابد أن تختلف أمزجتنا ، فليس صحيحا أنه « اذا إطفئت الاضواء ، تساوت النساء » .. فالذى قال ذلك لابد أن يكون غبيا من الاغبياء .. فحاسة اللمس فى الظلام تستطيع أن توضح لنا الكثير مما يخفى على عيوننا .. وكذلك حاسة السمع والشم .. وعندئذ يتبين لنا كم كان شاعرنا على حق عندما قال « والاذن تعشق قبل العين أحيانا » .. وكما تختلف لنساء فى الظلام ، كذلك يختلف الرجال ـ فلكل مخلوق طبيعة وبناء وملمس ورائحة وبصمات ومزاج .. الخ ، تميزه عن أى مخلوق آخر .. فالكلب يستطيع أن يميز كلا منا برائحته. والجسد يرفض عضوا ليس من ذاته .. وهكذا يتبين أن الذى قال « أطفىء .. تتساوى » .. لا يفهم ولا يدرك شيئا

من اسرار الخلق ولا الجنس ولا الحياة .. فهو كالبهيم .. او ربما أضل !

والواقع انك لو سألت أية أنثى هذا السؤال البسيط : لو ان الله قد خيرك بين نعمة الجمال وبين المركز والجاه .. فماذا تفضلين ؟ .. لأجابت دون تردد : نعمة الجمال .. ذلك أن راس مالى فى جمالى !

وكان لابد ــ والحال كذلك ــ ان تعتنى الانثى براس مالها ، ولا أحد يلومها فى ذلك ، لكن لابد أن نلوم الذكور لو انصرفوا عن تنمية العقل (بالمعرفة والقراءة والسلوك) الى تنمية الشعور وابراز الارداف ، او الوقوف طويلا أمام المرايا .. فى البيت وفى الاماكن العامة وفى المصاعد .. او أى مكان فيه مرآة ، لدرجة أننا نخشى (من كثرة ما لاحظنا ورأينا) ان يحمل الفتى حقيبة كحقيبة الفتيات والسيدات فيها مرآة ومشط وعطور .. الخ ، ليتزين كما تتزين الاناث ، أو كما زينت الطبيعة ذكور الحيوانات .. ولا نظن أن الانثى الحقيقية (أى ذات الرقة والنعومة والانوثة) ترضى بشاب ناعم رقيق يشاركها فى بعض صفاتها الانثوية .. ذلك أن طبيعة الكون والحياة تمنع ذلك .. فالاشياء المتشابهة تتنافر كما تتنافر الشحنات الكهربية والاقطاب المغناطيسية المتشابهة .. فالرجل منا يحب فى المرأة نعومتها وانوثتها ، ويفر من « استرجالها وخشونتها ، كما أن المرأة الناعمة تحب فى الرجل خشونته ورجولته وكرمه وتودده .. بالكلمة والهدية والمصروف فعاد اغراق الفتاة أو الخطيبة بالهدايا يعنى ــ على حد تعبير كل من لوراس ومارجيرى ميلن فى كتابهما « أحاسيس الحيوانات والبشر » ــ ان الخطيب « سيصبح ممولا حسنا لبيت الزوجية فى المستقبل ، وانه سيتحمل ــ بكرم ــ اعباء

الاسرة » .. وبجوار الهدايا تظهر الشبكة والمهر فى المقام الاول ، وكل ذكر ومستواه المـالى والاجتمـاعى !

ويذهب ميلن وزوجتـه الى التعليق على هـذه العـادة ، فيذكران أنها عادة حيوانية ، ذلك أن بعض ذكـور الحيوانـات الثـديية والطيور والحشرات تتـودد الى اناثها بهـدايا من طعـام أو هدايـا رمزية أو هدايا فارغـة .. المهم أن الذكـور تعبر لأناثها عن حسن نواياها ، وأحيـانا ما تحمل النوايا بذور السوء ــ لا يختلف فى هذا ذكر البشر عن ذكر الحشرة !

اذن .. فالصفـات المختلفة التى تميـز الذكـر عن الانثى هى التى تجذب هذا الى تلك .. أى انهمـا هنا كالقطب الموجب والسـالب ، فاذا دخل أحدهمـا فى مجال الآخر ، كـان لابد من التجاذب ، وهـذا ما تسعى اليه الحيـاة دائما ليكون التزاوج والتناسل والتكاثر ، وبهذا تحل الاجيال الجديدة محل القديمة ، فتأتى وجـوه وتروح أخرى !

ولا شك ــ كما سبق أن ذكرنا ــ أن الارداف الممتلئـة من العلامات الجنسية الثانوية التى تميز الانثى عن الذكـر ، وهى لا شك احدى المعالـم الجمالية فى المرأة ، ولهذا فـان الشاعـر الانجليزى جيوفرى شوسر الذى عاش فى القـرن الـرابع عشر يرى أن جمال الأنثى يتركز فى « أرداف عريضـة ، ونهود عالية مستـديرة » !

وفى كتاب « مقالات شهيرة فى العلم » يقـدم مارتن جاردنر دراسة كتبهـا هنرى هيفلوك اليس Ellis (١٨٥٩ ــ ١٩٣٩) بعنوان « ما الذى يجعل المرأة جميلة ؟ .. وفيها يعدد الصفات الجمالية ، ويرى أن الاعضـاء الجنسية الاساسية ليست مثيرة بالدرجـة التى نراها فى الأرداف والنهود والسيقان والخصر ..

الخ ، ولقد انعكس البناء الجسدى الانثوى على الطريقة التى تسير بها الانثى .. فنساء بعض الدول الواقعة فى الجنوب (يقصد جنوب آوربا .. وربما يشير الى ايطاليا واسبانيا) يشتهرن بجمال خطواتهن وتناسقها ، او كما يعبر عن ذلك الشاعر الرومانى القديم فيرجيل فيقول « ان الالهة تتجلّى فى مشيتها » ! .. فالحركات الاهتزازية للارداف أثناء السير أصبحت من العلامات الجنسية المميزة .. وقد تصبح أكثر اثارة عندما تتصنع المراة ذلك .. وهذا نراه اوضح فى بعض الدول الواقعة خارج أوربا ، بحيث اذا سارت المرأة ، سار معها الاغراء والفتنة الجنسية (ونحن نشفق على «خنافسنا» من هذا الوصف الجارح لرجولتهم) !

ويشير اليس فى هذا الصدد الى المراة العربية بوجه عام ، والمصرية بوجه خاص ، ويطرى مشيتها ويمتدحها (ويبدو أنه لم يطلع على رقصها البركانى ، اذ لو اطلع ، لوصف وصفا يدهى به عقول الرجال) ، ويشير الى أنها تتثنى وتتدلع (كغصن البان) اذا سارت ، ويساعدها ردفاها على هذا الدلال المعروف باسم « الغنج » .. فالمرأة الغنجة هى التى تتلاعب بجسمها بطريقة مثيرة يسيل لها لعاب الرجال

والخلاصة ان اليس يصل فى استنتاجاته الى أن الصفات التشريحية للانثى تختلف اختلافا جوهريا عن الرجل ، ولقد انعكس ذلك على مشيتها ، وعلى اردافها .. وصدرها ان اردت ذلك ، وفى ذلك الكفاية لبعض عينات من شبابنا الذى يتبختر ويتثنى ويهتز بكعبه العالى ، ليهتز ردفاه ، رغم أننا والحمد لله ــ لسنا من قوم لوط ، ولا نحب اللواط !

ويبدو ان بعض شبابنا يحبون التقليد الاعمى . وهم فى ذلك يشتركون مع القرود ، فهى أيضا محبة للتقليد .. والواقع

أن تقرب الذكر من الانثى وتقليدهـا فى بعض سلوكها وملبسها يرجع الى عادات الشعوب التى نبعت منها هـذه الظاهـرة القبيحة ، ففيها يبيحون الشذوذ الجنسى ، ولا مانع ـ والحـال كذلك ـ ان يتزين الذكر للذكر ، فقد ارتبط أحدهما بالآخـر ، كما يرتبط الذكر بالإنثى ، وربما كانت النتيجة الحتمية لذلك هـو تحطيم الحواجـز التى تفصل بين الذكورة والانوثة .. لكننا ـ والحمد لله ـ مجتمعات لا زلنا نحتفظ بأصالتنا وتقاليدنا التى تضع الرجل فى مكانه ، والانثى فى مكانها .. ومن أجل هذا تحسدنا نساء الغرب على رجولتنا ، وتحسدنا رجالهم على أنوثة نسائنا .. فسحر الشرق ينبع أساسا من سحر المرأة .. وكم تغنى الشعراء فى هذا السحر وكم أفاضوا !

ومع ذلك فالردف العـالى ، والصـدر العالى قد جاءا فى المرأة ليؤديا وظائف فسيولوجية محددة .. فالصـدر لادرار اللبن وللرضـاعة ، والردف مخزن للدهون للسحب منه عند الحاجة .. أى ان النساء هنـا كالجمال فى الصـبر والتحمل وفسيولوجية تحويل الدهون الى ماء وطاقة ولبن .. أى أن للردف الانثـوى وظيفتين (أو ربما ثلاثا أو اربعا اذا أردت أنت ذلك *) : وظيفة اعلانية تجـذب انظار الذكور ، كما يجـذب لفردوس المحرومين ، ووظيفة فسيولوجية وبها تسحب منه لانثى مخصصاتها المدخرة اثناء الجوع والحمل والرضـاعة . ولابد ان ذلك كان رحمة من الله بالانثى ، خصوصا عندما عاش الانسان فى العصور القديمة لائذا بالكهوف والمغارات . وكانت الذكور تخرج للصيد فى ظروف قاسية ، علها توفق فى الحصول

(*) الثالثة والرابعة ليستا ذات أهمية بيولوجية .. فالثالثة قد تريح فى عملية الجماع ، والرابعة قد تثير الذكر عن طريق اللمس باليد .. وكلاهما على أية حال مفيد فى بعض الأحيان والأحوال .

على طعام للاناث والرضــع والاطفــال ، وقد تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، وعنــدئذ تشتغل الميكانيكية البيولوجية فى الأنثى الحامل أو المرضــعة وتعوضها من مخــزن الدهون فى ردفيها ، ومنهما الى جنينها أو رضــيعها ، الى أن يأتى الله بالفرج ، فيعود الى المخزن رصيده .. وهــكذا يقوم الردف مقام البنك .. أى أن هناك دائما أرصدة مدخرة ومسحوبة .. الا أن عملة الردف طاقة تقدر بالسعرات او الكالورى الحرارى ، وعملة البنك نقود وشيكات وما شابه ذلك ، وكلاهما بلا شك مفيــد فى الحيــاة .. فالنقود الزائدة .. تعنى طعاما زائدا . يعنى دهونا زائدة .. تعنى أردافا متضخمة .. مالم يوازن الانسان بين ما يأكل وبين ما يحرق أو يستهلك .

لكن يبدو أن الحياة قد أضافت للانثى مكرمة بيولوجية هامة جدا لتحافظ على حياتها فى حين أنها تقصف بها عمر الذكور .. فالاطبــاء وعلمــاء التغذية يحذروننا دائما من زيادة وزن أجسامنا بعد سن الثــلاثين ، لان الزيادة تتمثل فى دهون مختزنة ، والدهون — فى عمليات التحول الغذائى — تؤدى الى كوليسترول، والكوليسترول يؤدى الى أمراض القلب والشرايين .. وهذه تظهر بوضوح فى الرجال ولا تظهر فى النساء الخصيبات .. أى اللاتى لم يبلغن سن اليأس ، فاذا بلغن هذه السن ومررن بهــا ، ارتفعت فيهن نسبة الكوليسترول والجلطات وامراض القلب والشرايين .

ومع أن مخزون المرأة من الدهون ضعف المخزون عند الرجال، الا أنها لاتصاب كما نصاب ، والسبب يرجع الى تأثير هرمونات الجنس الانثوية بشكل واضح على كيمياء الدهون ، فتؤدى الى خفض نســبة الكوليسترول فى الاناث فى حين أنها ترتفــع فى الذكور .. فاذا وصلت الانثى الى سن اليأس ، واختفى الطمث الشهرى ، وافتقد الجسم الانثوى هرموناته التى كانت تشرف

على تجهيز الرحم للحمل ، فان ذلك يؤدى الى زيادة نسبة الكوليسترول فى دمائها بدرجة ملحوظة ، فتصاب كما نصاب .

والواقع ان فى هذا التغيير حكمة عميقة ، وهو دليل جديد على أهمية الانثى من الناحية البيولوجية .. فكأنما الحياة قد منحت الانثى وثيقة تأمين مؤقتة ضد أمراض القلب والجلطات والشرايين طالما هى بقيت خصيبة ، فاذا فقدت خصوبتها ، سحبت الحياة منها وثيقة تأمينها ، وتعرضت الاناث لما يتعرض له الذكور ، ولكن بدرجة لازالت أقل لأن الرجال يتعرضون دائما للاجهاد والتوتر ووجع القلب بمعدلات أكبر ، ولهذا كانت نسبة قصف أعمارهم أدهى وأمر !

على خنافسنا اذن أن يعتنوا بتنمية اردافهم أكثر من تنمية مداركهم وعقولهم ، وتنمية الارداف تحتاج الى مخزون من الدهون ، ولعل هذا المخزون يصيبهم بالازمات التى تقصف أعمارهم ، فيريحون ويستريحون ، فلسنا فيهم راغبين ، ولا لخنوثتهم منجذبين !

ولتحيا أرداف النساء ، ولتسقط ارداف الذكور .. أو فليذهب هؤلاء بشعورهم وأردافهم وكعوبهم الى الجحيم .. اللهم آمين !

لقد أضاعوا وقتنا .. وحطموا كبرياءنا .. واضحكوا علينا اناث العالمين .. ألا لعنة الله على المخنثين فى كل آن وحين !

ومسكين والله هذا الصنف من أشباه الذكور .. فلا شك أنهم يحسون بنقص لا ندرى كنهه ولا طبيعته ، ومع ذلك «ففاقد الشيء لا يعطيه » .. ولعلهم يدركون فيعودون ويرشدون !

رائع حقا عالم النساء !

لقد كان اختيارنا من البداية لعنوان « مسكين عالم الذكور » ثم بدايتنا بمقدمة « نكد أو دكر » من العناوين المطابقة للحال ـ حالنـا نحن معشر ذكور البشر فى عالم الانسان والحيـوان .. فلقد اتضح لنا ـ من خلال ما قدمنا أننا من الناحية البيولوجية الجنس الاضعف ، وهن الجنس الاقوى والاحسن والاثمن ، ومن هنا كان اختيارنا فى النهاية لذلك العنوان « رائع حقا عالم النساء » .. ليكون الختام مسكا على أيديهن بأذن الله الواحد القهار !

وقد يقال ان فى ذلك نوعا من التحيز أو التودد لهن أو الخوف منهن .. ونحن ـ فى حقيقة الامر ـ لانخشى الا الله المعز المذل .. ثم المرأة .. فهى أيضا قد تعز وتذل ، ويقال ، والعهدة على الراوى ـ وهو من المتزوجين القدامى ـ ان ذلها لذيذ .. لذيذ جدا ! .. ونحن لا نستطيع أن نهضم لذة الذلة .. ويبدو أن العقل البشرى قد اختل كما يختل العقل الاليكترونى . فخلط بين حروف لذة وذلة .. (لاحظ أنها نفس الحروف) !

ومـع ذلك .. فالمرأة ـ بلا شك ـ مخلوقة جميلة ، وهى الانثى الوحيدة التى أبدع الله تكوينها ، وصهرها فى قالب من الحسن والتناسق والبهاء ، لتحلو فى عيون البشر رغم ما يلاقون منها بعد ذلك من أمور تجعل منها لغزا كبيرا يستعص على الحل .. خصوصا اذا ملكت وتملكت .. ومع ذلك فهى لطيفة ولذيذة ..

فلأول مرة فى التاريخ البيولوجى تتخلى الحياة عن الذكر من البشر ، وتصب عنايتها على أنثاه ، وتقدمها له على هيئة مخلوقة تختلف عنه فى الصوت والملمس والقوام والطباع والخطوات وفى كثير من الامور الباطنة التى لاتهمنا هنا كذكور (مثل العمليات الفسيولوجية والهرمونية والكيميائية .. الخ) .. اذ كل مايهمنا منها قد مليح ، وثغر جميل ، وشعور ناعمة متهدلة على كتفيها ، وعيون نظراتها كالسهام ، ولغتها أبلغ من الكلام ، ومعانيها أروع من خطب الخطباء ، وحديث المتحدثين والفقهاء والعلماء .. ومن هنا — وكما سمعنا وكما نعلم ونرى — قد يتراهن بعضهن على ذكر — أى ذكر تشاء بأى مركز أو فئة تشاء — لتوقعه احداهن فى شباكها من أول نظرة .. وربما من ثانى نظـرة أو ثالث أو عاشر نظـرة .. المهم أن الذكر يقـع والسلام .. (وكل فولة ولها كيـال) !

ولقد وزعت الطبيعة لمسات جمالها على ذكور الحيوان .. فرأينـاها فى الاسماك وفى الطيور والاسود والقـرود والوعول .. الخ ، وبهذه اللمسات الفنية — التى قد تأخـذ بألباب البشر (مثل ريش الطاووس البديع) — يستطيع الذكر أن يستعرض نفسه أمام انثاه .. وفى الانسان انقلبت الآية ، فكان الاستعراض والتدلل للانثى ، والتودد والغزل للذكر .. ولقد ذهب الانسان بعقله المتطور ، ومخـه المدرك ، وتمييـزه الناضـج بين القبـح والجمال ، والفضيلة والرذيلة ، والحب والكراهية ، والتناسق والفوضى .. الخ ، ذهب الى اختراع أمور كثيرة جدا ليزين بها أنثـاه .. ذلك أن معظم الاختراعات القديمة والحديثة من اختراع الرجال .. لكننا نجد أنفسنا فى حل من التعرض لهذا الموضوع الطويل ، ويكفى أن نذكر — فى ذلك المجال — أن معظم بيوت الازياء من اختراع الرجال .. والذى يستطيع ان يحكم على الانثى هو الرجل لا المرأة ، والعكس أيضا صحيح .. المهم من العطور والمجوهرات والمساحيق والدهانات والملابس الخاصة

والعامة « والكورسيهات » « والسوتيانات » وما خفى وما ظهر من آلاف الاصناف التى تملأ مجلدات فوق مجلدات .. كل هذا وغيره كان من صـناعة العقل الانسانى الخلاق ، ليضفى لمسات من الجمال على أنثاه ، لتصبح أروع وأبدع وأقوى مخلوق على هذا الكوكب .. لا فى العضلات ، ولكن فى التخطيط والرسم والكيد والسياسة التى تتوافق مع مقتضيات الحال .. وكل هذا — بلاشك — يحمل فى طياته معنى الذكاء .. وبهذا السلاح العظيم تتغلب الانثى — لو شاءت — على الذكر ، أو ربما عشرة او مائة أو ألف .. او كما تشاء .. المهم انها بذكائها قد تخطط، ونحن نطبق وننفذ .. وقد نصاب ونموت دفاعا عن الشرف المثـلوم ، او الاهانة التى قد تأتيها من الذكور — فشرف الانثى غال ومصون — ولكن ما أكثر ماهدر ويهدر فى كل آن وحين ، ودون أن يظهر ذلك او يبين ، وفى ذلك الكفاية لقوم يفقهون فيفيقون !

والتاريخ ملىء بالمواقف الكثـيرة التى ظهر فيها تأثير الانثى على الذكر .. فقديما قيل أن قابيل قتل أخاه الاصغر هابيل من أجل الانثى ولا شك أن هذه أول حادثة قتل تتم فى النوع البشرى .. قتل من أجـل الانثى ، ويسحر الانثى وروعتها وتأثيرها .. واذا صح ذلك ، فلا غبار عليه من حيث المبدأ ، فلقـد جاء الذكور ليموتوا من اجل الانثى .. لا يختلف هـذا فى قابيل أو هابيل والوعل وخنفس الوعل وأبى جلمبو والحشرة وزعيط ومعيط ونطاط الحيط .. فكل هذا من أجل الاختيار الطبيعى للاقوى .. والاقوى يقتـل الاضعف ، لتصبح الانثى للاقوى .. وقد يعترض البعض على ذلك ، وقد يقولون : ان ذلك لا يمكن أن يكون ، وان كان ، فلابد أن يكون هـذا منط الحيوان .. لا الانسان !

ولكن الانسان حيوان عاقل متحضر ناطق .. اى أن حضارته ومدنيته تمنع ذلك ، وتضع حدا فاصلا بينه وبين الحيـوان ،

ولكن .. من قال لك ان هابيـــل وقابيـــل كانا متحضرين وهما يعيشان فى الغابات ؟ .. لابد اذن ـ والحال كذلك ـ أن يسرى عليهما قانون الغاب .. ولا قانون هناك ـ فى الواقع ـ الا هذا القانون .. ولابد أن يتغلب القوى على الضعيف ، والله دائمـا فى جانب القوى ، حتى يستطيع الضعيف أن يغـــير ما به من ضعف .. « أن الله لا يغـير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، ضعفا كان ذلك أو كيدا أو مكرا أو تواكلا .. الخ ، وهـذا هو ناموس الله فى خلقه ، ولا يعرف ذلك الا « أولو الالباب » !

ومهما تكن الامور ، فلاشك أن للقصة معنى واضحا وعميقا . فلقد قتل الأخ أخاه من أجل انثى .. وبعدها لم يسدل الستار . وتنسى « الرواية » بل ان المسرح ـ مسرح الحياة ـ يفتح أبوابه كل يوم ليقدم لنا قصصا أخرى كثيرة .. التخطيط فيها للانثى ، والتنفيذ للذكر .. أو يكون أثر الانثى على الذكور أقـوى من العقل ومن الحيـــاة .. فيروح الضعفاء ، ويبقى الاقوياء .. يسجن الاغبياء ، والبراءة للاذكياء .. يسقط الرجال ، وتحيا النســـاء !

ومن أعماق التاريخ أيضا تبرز قصـــة يوسف وعجل قوم موسى (لاحظ أن هـــذا العجل المعبـود كان من حلى النساء) كليوباترة مع قيصر وأنطونيو ، ودليلة مـع شمشون الجبـار ، وامرأة أبى جهل وشجرة الدر .. وما خفى كان أعظم .. ولكن الله حليـم ستـار ..

صحيح أن النساء أضعف فى العضلات .. وصحيح أن هـذا النقص قد أدى قديما الى اغتصـاب الرجل للمرأة بالقوة ، أو خطفها وحملها عنوة .. وصحيح أن آثار هـذه العادة لازالت موجودة فى بعض أجزاء من ريفنا المصرى بطريقة مهـذبة ليس فيها ضرر أو اغتصاب بالمعنى المفهوم ، ولكنها تحمل فى طياتها

بذور الماضى * .. وصحيح أن هناك حالات من اغتصاب الفتيان للفتيات (ليست مأساة بنجلاديش ببعيدة .. اذ اغتصب الجنود أثناء الحرب بين بنجلاديش وباكستان والهند آلاف الفتيات والنساء مما نتج عنه آلاف من حالات الحمل غير المشروع) . . وصحيح أن ذكر الانسان هو المخلوق الوحيد الذى قد يغتصب أنثاه عنوة (ومعه أيضا فى هذه الصفة بعض أنواع العناكب) ، فى حين أن ذلك لا يمكن أن يحدث فى الحيوان، لأن « عصمة » الجنس بيد الانثى ، وليس للذكر فى ذلك حيلة، فهى التى تحركه وتثيره ، وهى التى تجمعه وتطرده ، وهى التى تسعده وتشقيه ، وهو بالنسبة لها ليس الا بمثابة آلة حية تضغط الانثى على زرارها فى الوقت المناسب ، فتدور لتنكح ، ثم تتوقف وتنام عن الجنس أسابيع طويلة ، وشهورا عديدة ، أو ربما العام كله .. وصحيح أننا معشر ذكور البشر نتصرف مع الانثى بوازع من ضميرنا وديننا وخلقنا وقوانيننا التى قد تبعث بنا الى غياهب السجن فيما لو ادعت علينا أنثى (مجرد ادعاء) أننا تهجمنا عليها وأردنا بها اعتداء ، وعندئذ لن تنفعنا عضلاتنا ولا مراكزنا .. اذ لو كان الامر أمر عضلات ، لاصبح الفيل والحمار والاسد والنمر والحصان سيد الانسان .. لكن السيادة لا تنبع من العضلات ، بل مردها غالبا الى العقل ، ومن أجل هذا يسيطر الانسان على الحيوان ، وتسيطر المرأة على الرجل ، لانها تعرف مكامن الضعف فينا ، وفى قصة دليلة مع شمشون الجبار رمز عظيم لهذه الظاهرة المحيرة .. والظاهرة المحيرة هى المرأة .. وفى المرأة سلاح مكين ، وسر دفين ، وسحر مبين .. ولا شك أن لديها ــ بجوار كل هذا ــ حاسة عجيبة تقف معها

(*) تتلخص هذه العادة فى إصرار العريس على إنزال عروسه من مركبتها ، ثم حملها بين ذراعيه، والانطلاق بها جريا إلى حيث عش الزوجية ، وهناك يتركها ، ثم يعود إلى أصحابه ، وبعد ذلك يأتى اليها حلالا طيبا بعقد نكاح شرعى .

لتعوضها عن قوة العضلات التى افتقدتها ، ومن أجل ذلك كان عندها حق عندما تقف شامخة واثقة مما تقول وهى تقول « الرجل طفل كبير » .. بداية من آدم عليه السلام ، الى كاتب هذا الكلام عليه الامان ! (منهن طبعا) ! ..

لكن .. لماذا تنظر الينا الانثى مثل هذه النظرة « العيالى » ؟ أى لماذا تعتبرنا اطفالا أو عيالا كبارا ؟

لانها تدرسنا فى ساعات ضعفنا .. اى أنها قد ترمقنا بحسرة كما يرمق الاستاذ تلاميذه الذين لا يريدون أن يكبروا فى معلوماتهم ، أو يتطوروا فى مفهومهم ، فلو أننا درسنا الذكور فى ساعات الرضا والحبور والملذات الانثوية كما ندرس مثلا سلوك خنازير غينيا (وهى حيوانات تستخدم فى كثير من التجارب البيولوجية والطبية) ، لتبين لنا أن الرجل الغضنفر ـ بعد أن ينتهى من مهامه الهرمونية ـ ينام بين ذراعى الانثى كما ينام الطفل الوديع بين ذراعى أمه ، وقد يناجى نفسه وقتها هامسا « عجبى .. لقد تبخر كل شىء فى لحظات .. النار الى رماد .. والحب الى برود ، والقوة الى ضعف ، والرجولة الى طفولة .. عجبى .. عجبى » ! . ثم قد ترمقه الانثى ـ باشفاق ـ وهو واجم ساهم صامت بعد ان كان كالبركان المتفجر بالطاقات والكلمات والآهات .. واضيفوا الى ذلك ما تشاءون من معلومات، لتكتمل الصورة ، ونصل الى الحقيقة ، وما نحن اليها بواصلين، لكن الذى سنصل اليه حتما أن انتاجنا من « اللحوم » البشرية ـ نتيجة لتمسكنا بالعملية الجنسية دون ضابط ولا رابط ـ أكبر من انتاجنا من اللحوم الحيوانية .. ومن هنا انخفضت قيمة الانسان وزادت أسعار الحيوان .. نعنى لحم الماشية والطير وما شابه ذلك !

ورائع حقا عالم النساء .. ومسكين عالم الذكور ـ ذكور الانسان !

لكن مما لاشك فيه اننا فى الانثى نتكون ، ومنها نخرج ، وعلى صدرها نترعرع ، ومن ثديها نرضع ، وتحت رعايتها ننمو وتكبر ونلف وندور ، واليها نعود ، ولكن بادراك جديد ، حيث نعيش فى دنياها الى يوم معلوم !

يعنى هذا أن فى حياة كل ذكر منا ـ بالتأكيد ـ انثى .. قد تكون أما أو أختا او زوجة او حبيبة .. المهم ان هنـاك انثى يتأثر الذكر بها فى حياته ، وقد تدفعه الى الامام ، وتجعل منه عظيما من العظمـاء ، أو بطلا من الابطال ، أو قد تشـده الى الخلف ، فتخرب الدار ، وتيتم الاطفـال ، او ما بين ذلك تكون أقدار النساء !

ومن هنا تبزغ روعة الانثى ، وتبرز خطورتها ، فيكون تأثيرها عظيما فى الوحى الذى قد يهبط على المفكرين والفنانين والفلاسفة والكتـاب والشعراء .. ثم ان بركاتهن لا شك فيها فى توزيع الكتب والمجلات الجنسية التى تبرز مفاتنهن (الرجل ضعيف حتى أمام الصور .. ومن هذا الضعف تنبع قوة التوزيع) .. كما أن مشـاركتهن فى أدوار الاغراء لمن العوامل « الاستراتيجية » الهامة فى انجاح التمثيليات والافلام ، وبها يصعدون الى « قمم » المجـد بمساعدة مؤهلات المجـد التى تتفـوق فى عائدها على المؤهلات العقلية وارقاها .. ومع ان « المجد لله فى الأعالى ، وعلى الارض السلام ، وبالنـاس المسرة » .. الا انه مع المسرة أيضـا تبـرز المـراة .. والى المـراة .. انطلق روح الله ، ومنها خرجت على هيئـة السـيد المسيح ، ليؤدى دوره بين الناس ، وليكون من المنقذين للبشرية ، والداعين للسلام .

والمراة تحفظ دين الرجل ، لكن الرجل لا يستطيع أن يحفظ دين المرأة ، فاذا أحس الرجل بضعفه ، واذا شعر بعدم القدرة على الاعتماد على نفسـه ، سعى الى الارتباط بزوجة لتدير لـه

شئونه (والمراة بمفردها تستطيع أن تدير شئونها بنفسها) ، ولتكمل له نصف دينه .. أى ان الرجـل بدون زواج ناقص الدين .. وربما يكون ناقص العقل .. لسنا فى الواقع ندرى ، ولكن الذى ندريه أننا لم نسمع أن امراة تزوجت لتكمل نصف دينها برجل ، ومع ذلك فقد تكمل له أحيانا دينه ، وقد تعريه من النصف الذى به قد دخل !

وكثيرا ما تروق فى عقولنا سيرة عظيم من العظماء ، او انتـاج مفكر من المفكرين ، أو أديب من الادباء ، وقد ترسم لهم هالة من القدسية والاجـلال ، ومـع ذلك فبمقدور المرأة ان تلعب بعواطفهم فى الشيخوخة والشباب على حد سواء .. وغالبـا ما يعرى هؤلاء أنفسهم فى سيرة حياتهم عندما يصـدقون فيما يكتبون ، فزكى نجيب محمود يذكر بعض ذكرياته فى « قصـة نفس » كيف كان شعوره فى أيام شبابه عندما تقابل مع فتـاة فى مثل عمره وهو صائم فى شهر رمضان فى منزل أسرة يعرفها « وقد جلست الى ماكينة الخياطة تهز قاعدتها بقدميها ، وتمسك الثوب المخيط بيديها ، فيكون لجسمها بهذه الحركة شىء من التوقيع والنغم ، أما أنا فقد حييت وجلست الى منضدة قريبة وفتحت القرآن ـ وكنت أحمله معى ـ واخذت أقرأ فى همس ، وكأن كيانى كله عندئذ كان هو ذلك القرآن .. اخذت أتلو فى همس ، مدخلا نفسى فى عالمه ، ومازجا معانيه ـ بقدر ادراكى لها ـ بشغاف قلبى ، ودخل عم الفتاة يسألها ، ان كان لديها شىء يلف فيه ثوبا جديد على ذراعه ، وأجابت بالنفى ، وخرج العم ، وعلقت الفتاة بعبارة تشير بها الى معنى خفى ، وقرنت العبارة بابتسامة تنادى ، وبنظرة تدعو ، فاذا كنت قد رأيت شرارة النار ماذا تفعل بكومة من الدريس الجاف ، فقد رأيت ماذا فعلت تلك الشيطانة بجسدى الذى كان الصوم قد جففه . لقـد أشعلت فى أحشائه نارا ـ على سبيل الحقيقة لا على سبيل

المجاز — لاننى أحسست عندئذ لهب النار يأكل جوفى أكلا ، ويعلو الى وجهى فيشويه ، وتحول كيانى المتلهب الى عينين ذاهلتين تنظر الى الشيطان وقد تجسد فى انسانة من البشر ، لكن لسانى لم ينطق بحرف ، وتسمر بدنى كله على مقعدى ، وعيناها مازالتا تدعوان ، وابتسامتها مازالت تنادى » * !

ويذكر عباس محمود العقاد فى « أنا » * « ليس الحب بالغريزة الجنسية ، لان الغريزة الجنسية تعم الذكور والاناث، ولا يكون الحب بغير تخصيص وتمييز ، وليس الحب بالشهوة ، لان الانسان قد يشتهى ولا يحب ، وقد يحب وتقضى الشهوة على حبه ، وليس الحب بالصداقة ، لان الصداقة أقوى ماتكون بين اثنين من جنس واحد ، والحب أقوى ما يكون بين اثنين من جنسين مختلفين » .

ويقول عن حبه للمرأة « انها لتثير فى الرجل شعور القوة وشعور الجمال وشعور اللذة ، وشعور الالم ، وشعور الجموح والانطلاق من قيود المنطق والحكمة ، وشعور الانسان كله ، وشعور الحيوان كله .. بل تثير فيه الشعور بما وراء الطبيعة من أسرار مرهوبة ، ومن اغوار لا يسبر مداها فى النور والظلام »!

ويقول العقاد أيضا « منذ الازل وقفت الفتنة الى جانب ، ووقف الى الجانب المقابل لها حكماء الارض وهداتها ومشرعوها ، وأصحاب النظم والدساتير فيها .. قالت هذه كلمتها ، وقال الحكماء والهداة كلمتهم ، ونظرت ونظروا ، ووعدت وأوعدت ، ووعدوا وأوعدوا ، وأمامك الناس اجمعون فاسألهم واحدا

(*) عن دراسة نشرت بالهلال لعلى بركات فى « المرأة والجنس فى المجتمع العربى المعاصر » بعنوان أدباؤنا والاعترافات الجنسية .

واحدا : كم مرة سمعتم هذه ، وكم سمعتم هؤلاء ، وأنا الضمين لك أن فى تاريخ كل انسان مرة واحدة على الاقل سمع فيها لهذه الفتنة ، ولم يسمع معها لحكمة الحكماء ، ولا شىء من الاشياء » .

والاعترافات كثيرة ، ولو جمعت من صدور البشر ، لملأت خزائن من الكتب ، ولأجمعت كلها على أن كل واحد ممن جمعته الظروف بالفتنة المجسدة ، لابد وأن يكون قد ضعف أمامها .. اذ مما لاشك فيه أن الانثى قد تركت بصماتها على جلد كل منا، وكثيرا ما كان تأثيرها فوق ارادتنا ، وغالبا ما يتغلب نداؤها على صوت العقل فينا ، ورغم ذلك ــ ولذكائها العظيم ــ توحى لنا « بغمزة » عين حلوة أننا لازلنا سادة هذا الكوكب بعلومنا وفلسفاتنا ودياناتنا واختراعاتنا وغرورنا .. ثم تأتى بعد ذلك بفتنتها لتسود على هؤلاء السادة دون أن يدروا أو يدروا لست أدرى !

ولا شك أن الانسان يختلف عن الحيوان فى أمور جوهرية وهامة .. فحيث تتحكم الهرمونات فى الحيوانات ، فتجعل منها دمى جنسية حية ، وتدفعها دفعا لاشباع غرائزها ، لتأتى من وراء ذلك ذرية ، نجد أن الانسان هو المخوق الوحيد على هذا الكوكب الذى بزغ فيه نور العقل والحكمة والجمال والادراك والمثل والمعرفة .. الخ . وبجوار ذلك تلعب الهرمونات لعبتها ، ويقع الانسان أحيانا فى صراع جبار بين غريزته وعقله .. وقد تتغلب الهرمونات على العقل والارادة ، فيسلك سلوك الحيوان، وقد يحدث العكس ، فيصير على طبيعة الانسان .

ويختلف الانسان ايضا ــ والى حد ما ــ عن القرد فى نظرته للانثى .. فحيث تنصب عينا القرد على ردفى أنثاه ، نجد أن عيوتنا قد سمت وارتقت وتطلعت أولا الى وجود الجنس

الآخر .. والواقع أن العين لم ترتق حقا ، ولكن الاساس يتركز فى امخاخنا التى تطورت فأدركت معنى الجمال . . فالانسان هو أيضا المخلوق الوحيد الذى يستطيع أن يقرأ ما قد يظهر على وجوه الآخرين من انفعالات ، ويستشف ما يبدو عليها من عواطف ، ويعرف ماقد يرتسم فى العيون من لغات . . لاهى مقروءة ولا هى مكتوبة ، ومع ذلك فاثرها يغنى عن أى شىء عداها .. وكأنما وجوه البشر وعيونهم بمثابة لوحات حية رائعة يبزغ منها الشعور بالرضا والطمأنينة والاستسلام والصرامة والبراءة والخبث والمكر والدهاء والدعوة الى الحب والحنين الى الجنس .. الخ ، أى أن لانسان هو الكائن الوحيد ذو الوجه المعبر دون ما ثرثرة أو غلبة أو ضوضاء .. ولا يعرف وجه الحيوان عن ذلك شيئا مذكورا .

وعندما تطور العقل ، واستقام الجسم وانتصب فى تناسق على ساقين وقدمين ، وأصبح للوجه – بتعبيراته المختلفة – المقام الاول فى جذب انتباهنا ، ثم يأتى الجسد بعد ذلك فى المرتبة الثانية .. عندما حدث هذا ، كان الانسان أيضا هو المخلوق الوحيد الذى أصبح بمقدوره أن يجتمع جنسيا مع الجنس الآخر وجها لوجه .. ربما يستثنى من ذلك الاسد واللبؤة ، اذ يقال أن اللبؤة تستلقى على ظهرها كما تفعل نساء البشر ، ويقال أيضا انها تأتى بأصوات تشبه التأوهات التى تنطلق من البشر عند ممارسة النكاح ، لكن الاسد بالتأكيد لا يرى فى وجه اللبؤة شيئا يستحق أن يتطلع اليه ، أو يتأمل فيه ، فى حين أن ذلك من الامور الهامة التى قد تشد من أزر الانسان وهو يؤدى مهامه الجنسية فى قبلة يذوب فيها ، أو لمسة تثيره ، أو نظرة تلهب مشاعره ، أو تطويقا بالذراع أو بالذراعين ، أو وضع الخد على الخد ، أو اى امر آخر يشعل فيه الجذوة ، ويؤجج النيران ، ويمنح الطاقة ، أو قد يصاب بالقرف والغثيان

والضمور .. كل هذا يتوقف على تعبيرات الوجه الذى نطلع اليـــه ..

والانسان أيضا هو المخلوق الوحيـد الذى يستطيع أن يأتى انثاه فى مائة وضع ووضع ، أو أكثر من ذلك او اقل ؛ فى حين ان الحيوان لايعـرف من ذلك الا وضـعا يتيما يؤديه بطريقة اوتوماتيكية أشبه ماتكون بوضع مفتاح فى ثقب البـاب فيشعر باللذة . وبعدها ينتهى الامر ؛ ويحدث الحمل .

الا أن مافات من امور الحب والغـزل والودد والاستعراض والحب والجنس والتمنى والآهات والعـذاب والسعادة والهيام والأحـلام والخيال الذى يحلق بصـاحبه أو صاحبته فى دنيـا الورود والعطور والجمال .. كل هذا ليس الا فقرة صغيرة فى مقدمة متواضعة فى كتاب مخلوق جديد سيتشكل جنينا ليجىء الى الحياة .. وهنـا تبرز أمام الانثى الأم اصعب واعظم واروع واسمى رسالة يمكن أن يقوم بها مخلوق على ظهر هذا الكوكب . فعليها الحمل والوضع والرضـاعة والسهر والعنـاية بمملكتها الصغيرة فى فترة تعتبر من أغلى واعز فترات حيـاتها ؛ وليس للزوج فى كل هذه الاعباء الخطيرة والثقيلة نصيب كبير . اذ عليـه أن ينطلق ويسعى ليمول ويمون ثم ينطلق من جـديد .. فاذا أضفنا الى المرأة أعبـاء العمل الخارجى – بجوار اعبـائها الاساسية – فان ذلك يوضح لنـا قـوه احتمالها وصبرها . ولاشك أن الحياة قد أمدتها بطاقات خفية حتى لا تنهار كمـا ينهار الرجال .

ونحن – بلا شك – ابناء أمهاتنا فى المقـام الاول . كمـا أننا ننتسب اليها أكثر مما ننتسب الى آبائنا . فلقـد كانت علاقتنا بها أقوى (من حمل الى رضاعة الى طفولة وصبا) ؛ ولقد قضينا معها أوقاتا أطول بكثير مما قضيناه مع آبائنا ؛ وكان ارتبـاط

الابناء بالامهات أقوى من ارتباطهم بالاباء ، وحتى التجارب التى أجريت على هذه الظاهرة تؤكد ذلك ، فاذا رأت سيدة صورة فوتوغرافية لسيدة أخرى تحمل طفلا ، فان حدقة العين تتسع بنسبة ١٧٪ ، فى حين ان الرجل لا يهمه هذا المنظر كثيرا[1] ، انما تتسع حدقته اذا وقعت عيناه على صورة فاضحة ، أو انثى فى وضع من أوضاع الاغراء ، أو منظر من المناظر الطبيعية الخلابة . وهذا يعنى أن الاهتمام فى الانثى ينصب على الامومة ، وفى الذكر على الجنس والطبيعة الحيــة ، والذى يتحكم فى اتســاع انسان العين منطقة صغيرة فى المخ تقع فى مراكز الابصــار .. ونحن فى حل من التعرض لسرد المزيد ، فليس لمثل هذه التجارب هنــا مجال ، لكن يكفى أن نذكر اننا نتأثر كثيرا بأمهاتنا أكثر مما نتأثر بآبائنا ، فالأم هى المربية الحقيقية للاجيـــال ، وهى الاساس فى بناء الدول ، وقد تكون أيضا المعول الذى يهدمها .. وما أروع ما عبر عن ذلك الحديث الشريف عندما يشير الى حقيقة هامة فيقول « تخيروا لنطفكم ، فان العرق دساس » .. وما أصدق الرسول الكريم عندما نسب نفسه الى أمه ، لا الى أبيــــه فقال « أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد » .. وما قاله أمير الشعراء احمــد شوقى شعــرا :

الأم مدرسة اذا اعددتها   أعددت شعبا طيب الاعراق

وأحيانا ما تخرج الحكمة أيضا من أفواه العامة ، فتراهم يعبرون عن ذلك بطريقة فجة ، لكنها تحمل بذور الواقعية .. « اكفى القدرة على فمها ، تطلع البنت لأمها » .. والعلم أيضا يؤكد كل هــذا بيولوجيا ووراثيا ونفسيا .. ومن هنا يبرز دور المرأة الخطــير ، ورسالتها الجليــلة .. فهى الاساس ، ونحن عجينة فى يدها ، وهى التى تشكلنا منــذ الصغر .. ان خــيرا فخيرا ، وان شرا فشرا ، ولهذا يقولون انه « من وراء كل رجل عظيم امرأة » .. ونضيف أيضا أن من وراء كل مجــرم خطير

امرأة أخرى .. لكننا لا نقصد « وراء » بمعناها الحرفى الذى قد تشدقت به يوما واحدة من المتحذلقات المناديات بالمساواة عن غير دراية أو فهم ، (ولو شئنا العدل نحن معشر الذكور لطالبنا مساواتنا بالنساء) واعترضت هى على أن تكون المرأة وراء الرجل ، وتساءلت : ولماذا لا تكون هى بجواره بدلا من ورائه ؟. ورغم أن كلمة وراء هنا تعنى أنها هى صانعته الحقيقية ، وهى التى تدفعه وتعينه وتشجعه وتهيىء له المناخ المناسب للصعود الى عظمته « الفانية » ، ومع ان هذا الصنف من السيدات لا يهتم الا بالمظاهر ـ مظاهر اللفظ والحياة دون دراية بالباطن .. مع ذلك فلا يهم ان كانت المراة وراء الرجل أو امامه او بجواره أو فوقه او تحته .. كل مايهم انها قد صنعته صغيرا ، ولم تتركه كبيرا ، فاما ان نكون له من الرافعين أو من الخافضين !

والواقع أن هناك فرقا هائلا بين الأم المتعلمة والأم الجاهلة .. لان الأولى تدرك مالا تدركه الثانية ، ومع أن ثمرات التعليم يجب أن تنصب على تربية الاجيال ، وعلى العناية بتنشئة الاطفال ، الا أن ذلك قد شغل المراةعن اقدس واعظم رسالة يمكن ان يحملها مخلوق على ظهر هذا الكوكب .. فمواطن صالح ، خير من الف شهادة ، اذ ماذا يفيدنا فى الشهادات والعلوم اذا لم تكن بغير خلق ولا ضمير ..

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت

فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولسنا هنا من دعاة النصيحة ، ولا الموعظة الحسنة ، فلقد جاء الانسان بعقل مدرك ، وهو بلاشك يعرف الفضيلة من الرذيلة ، والطيب من الخبيث ، والصدق من الكذب . . « فالحلال بين ، والحرام بين » .. وما يعيب معروف ، ومالا يعيب معروف .. ورحم الله أمى وطيب ثراها ، فلقد كانت تجهل القراءة والكتابة ، ولكنها لم تكن تجهل ما يضر الناس

وما ينفعهم ، ولا ما يعيبهم أو يسمو بهم ، ولقد تعلمنا على يديها صلة الرحم ، والبر بالناس ، والصدق فى القول والعمل الى آخر هذه الخصال الحميدة التى لايختلف عليها اثنان : جاهل أو متعلم .. انما الجهل أن تنصرف الأم عن أقدس واهم وأعظم رسالة .. فاذا أولتها حقها ، وأرضت بها ربها ، فلاشك أنها ستكون أروع نساء العالمين .. وهذا هو المراد ، من رب العباد !

ولنختتم موضوعنا بهذا الحديث الشريف .. « من أولى الناس بحسن صحابتى يا رسول الله ؟ .. قال : أمك قال . ثم من ؟ .. قال : ثم أمك ؟ .. قال : ثم من ؟ .. قال ثم أمك ؟. قال : ثم من ؟ .. قال : ابوك » !

ولقد كرمها الرسول ثلاثا وكرمناها .. فهل تكرمنا بثمرات بديعة من صنع يديها .. فتكون مجدا للوطن ، وذخرا للمجتمع ؟ .. لست أدرى ، ولعلها تدرى .. فلست أدرى أنها تدرى !

« ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين » !

الفهرس

كتب صـــدرت للمؤلف

	النـــاشر
١ ـ **الميكروبات والحيـــاة**	دار القلم للطبع والنشر
٢ ـ **دورات الحيـــاة**	» » » »
٣ ـ **الفطريات والحيـــاه**	» » » »
٤ ـ **أسرار المخلوقات المضيئة**	» » » »
٥ ـ **الفيروس والحيـــاة**	» » » »
٦ ـ **لمـــاذا نموت ؟**	الهيئة العامة للكتـــاب
٧ ـ **معارك وخطوط دفاعية فى جسمك**	» » »
٨ ـ **الانسان والنسبية والكون**	» » »
٩ ـ **زوجات مفترسات**	دار الهلال ـ كتاب الهلال
١٠ ـ **أنت .. كم تساوى ؟ !**	» » » »
١١ ـ **مذكرات ذرة**	دار المعارف ـ سلسلة اقرأ
١٢ ـ **هل لك فى الكون نقيض ؟ (لغز الكون والكون المضاد)**	الهيئة العـــامة للكتاب

رقم الإيداع : ٥٤٧١ / ٨٧
الترقيم الدولى : ٩٧٧ - ١٤٨ - ١١٦ - ٩

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE